

«اتجاهات الرثاء وتطوره
في العصر الجبّاسي الأول»

الدكتور

عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي

أستاذ الأدب والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

﴿إهداء﴾

إلى الذي ضحى من أجل كل من تخص وغال
إلى الذائقني عمرة في تربيتي وتعليمي دون كل
إلى أبي الحبيب وروحه الطاهرة ...
أقدم دموع عصره بأكمله ...
أسعها حزناً وحسرة عليه ...
وأقدمها لجلال وتعظيماً بين يديه ..
وأعبر بها عن حبي وشوقني إليه .

دكتور

عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي

«المقدمة»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأفضل خلق الله أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وكل من آمن به وابتغى هدايته وعمل بشرعه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

ويهد

فهذا بحث موضوعه : "اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول" وهو موضوع يتناول شعر الرثاء واتجاهاته وخصائصه في هذا العصر ويكشف كيف سار هذا اللون من الشعر في هذه الفترة ؟ وهل كان الرثاء في العصر العباسي الأول شأنه شأن الرثاء في العصور السابقة ؟ أم أنه أضاف الجديد واتجه إلى وجهات أخرى لم يتجه إليها شعر الرثاء قبل العصر العباسي ؟ وقد دفعني إلى البحث في هذا الموضوع عوامل كثيرة، منها : أنني لم أجد دراسة مستقلة متخصصة وافية في هذا الموضوع بالرغم من عظم مادته وكثرة شعرائه وتشعب اتجاهاته واستحداثات الجديد فيه .

صحيح وجد من تعرض للحديث عن الرثاء في العصر العباسي الأول إلا أنه كان حديثاً عاماً ضمن حديثهم عن الأدب العباسي بوجه عام ولم يستحوذ حديثهم عن الرثاء إلا على صفات معدودة مختصرة لا تتلاءم ومكانة الموضوع وأهميته ولا تنفي غلة القارئ. نحو هذا الموضوع المهم من موضوعات الشعر في ذلك العصر وذلك مثل: الدكتور : طه حسين ، والدكتور : شوقي ضيف، والدكتور : عز الدين إسماعيل والدكتور : مصطفى هدارة ، والدكتور: الشكعة، وغيرهم من الباحثين الذي بحثوا في الأدب العباسي .

- ج -

ومنها أنتى وجدت تطوراً عظيماً قد حدث فى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول وهو تطور واسع النطاق شمل هذا اللون من الشعر شكلاً ومضموناً وتجلت فيه مظاهر تجديدية واضحة لم تكن موجودة من قبل وهو ماكشف عنه البحث كشفاً مفصلاً وواضحاً .
ومنها : أنتى وجدت أن معظم عيون قصائد الرثاء فى الأدب العربى قد وجدت فى العصر العباسى وأن شعراء العصر قد برعوا فى هذا اللون براعة فائقة تلفت النظر وتدعو إلى البحث فى هذا اللون الشعرى فى ذلك العصر .

وقد سرت فى بحثى هذا على خطة واضحة تكمل بعضها بعضاً حيث صدرته بالحديث عن تعريف الرثاء وألوانه، ثم تحدثت بعد ذلك عن شعر الرثاء قبل العصر العباسى حديثاً مجملأ فتعرضت بعد ذلك عن شعر الرثاء قبل العصر العباسى حديثاً مجملأ. فتعرضت لشعر الرثاء فى العصر الجاهلى وألوانه وخصائصه وشعر الرثاء فى عصر صدر الإسلام وألوانه واتجاهاته. وشعر الرثاء فى العصر الأموى واتجاهاته وخصائصه وذلك فى حديث مجمل غير مخل كى أوضيح الفرق بين شعر الرثاء فى العصر العباسى وبين العصور السابقة ولأظهر ما يمتاز به شعر الرثاء العباسى وما استجده شعراء العصر فيه سواء كان ذلك من حيث الشكل أو المضمون .
ثم تحدثت بعد ذلك عن الرثاء فى العصر العباسى واتجاهاته مثلاً القول فى كل اتجاه فى فصل خاص متعرضاً لكثير من النماذج الشعرية التى تعرضت لها بالشرح والنقد والتحليل موضعاً مظاهر القديم والجديد فيها، ثم تحدثت بعد ذلك عن الخصائص الفنية لشعر الرثاء فى العصر العباسى الأول سواء كانت خصائص موضوعية أو أسلوبية مبرزاً السمات القديمة والجديدة فى كل منها معتمداً على النماذج الشعرية اعتماداً واضحاً لتوضيح هذه الخصائص وإبرازها .

ومصادر البحث كثيرة ومتعددة منها القديم ومنها الجديد، فمن المصادر القديمة: «دواوين شعراء العصر العباسي» وكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وتاريخ الطبري، «طبقات الشعراء» لابن المعتز، «الأوراق» للصولي، وغيرها من المراجع القديمة التي أمدتني بمادة وفيرة ومهمة في هذا البحث .

ومن المصادر الحديثة : كتب الدكتور : شوقي ضيف : «العصر الجاهلي» و «العصر الإسلامي» و «العصر العباسي الأول» و «العصر العباسي الثاني» والفن ومذاهبه في الشعر العربي وغيرها وكتاب «فن الشعر العباسي الرؤية والفن» للدكتور عز الدين اسماعيل، و «الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير» للدكتور محمد رجب البيومي، وكتاب «إتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري» للدكتور هدارة ، وغيرها من المصادر والكتب التي أشرت إليها في هوامش البحث .

وبعد... فإنني أتقدم ببحثي المتواضع الذي بذلت فيه أقصى جهد لي محاولاً أن أقدم شيئاً راجياً المولى العلي القدير أن يكون قد وفقني في ذلك، وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور

عبد الهادي عبد النبي علي أبو علي
أستاذ الأدب والنقد المساعد

المنصورة : في ...

١٧ يوليو ١٩٨٩ م

«الفصل الأول»

أ - الرثاء وألوانه

ب - الرثاء في العصر الجاهلي

الرتاء وألوانه :

إن الموت هو الحقيقة الثابتة في هذا الوجود ولا ينكره إنسان سواء كان مؤمناً أو كافراً فمهما بلغ الإنسان في كفره وعناده فلا يستطيع أن ينكر الموت ولا يستطيع أن ينكر أنه سيصير إلى هذه النهاية المحتومة من انقضاء أجله وفناء عمره لأنه يرى بعينيه أن الكل من بني الإنسان وغير بني الإنسان يخنى ويتقضى وأن السابقين من أبنائه جنسه قد أفنأهم الموت وهدم بنيانهم وأصبحوا وكأنهم لم يوجدوا من قبل .

ومن الطبيعي أن يحزن الإنسان لفقد عزيز لديه ويسكب الدمع مدراراً عليه هذا العزيز الذي كان بجواره يراه ويتحدث معه ويروح ويخدر أمامه ثم فجأة يتوارى بين أحجار وحجب وأستار فلا يراه بعد ذلك. وهذا العزيز إما أن يكون أبناً أو أماً أو زوجاً أو أماً أو زوجة أو صديقاً أو غير ذلك من أحبائه وأعزائه حينئذ يروح يبكي عليه ويحمر عن حزنه وألمه لفراقه في كلماته وتعبيراته في فن رثائي حزين يجاء هذا الفقيد العزيز .

والموت كما نرى يسوى بين سائر الخلق ويعدل بين جميع البشر حيث يعم الغنى والفقر والفقير والفقير والضعيف والعظيم والحقير والصغير والكبير فكل الخلق مصيرهم الموت وكل مولود ولد ليموت كما يقول الشاعر :

ألا كل مولود فلولموت يولد ولست أرى حياً لشيء يخلد
مجرد من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد (١)
إذن لم تدم الحياة لإنسان ولم يكتب البقاء لبشر و كل نفس
ذاتقة الموت (٢) بل لا يبقى أي شيء على وجه الأرض كل من

(١) ص ديوان أبي العتاهية .

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ٢٦ .

عليها فان" (١) بل كل شيء هالك إلا وجه الله تبارك وتعالى فقد قال جل شأنه : "ولاتدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون" (٢) "وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التي لاتدفع، والرزية التي لاترد بكثرة الجموع ولاتمنع، والحادثة التي لاتنصرف بالفداء وإن حل مقداره، والنازلة التي لاتتأخر عن وقتها بالدعاء وإن عظمت في غيرها آثاره وهو أحد الأربعة التي فرغ منها وصرفت وجوه المطامع عنها وقد قالت الحكماء : أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء وقالوا : كل شيء يبدو صغيراً ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل" (٣)، من هنا كان فن الرثاء، رثاء الأحياء الذين فقدوا ولن يرادوا، ونذب الأجزاء الذين ذهبوا ولن يرجعوا. فالرثاء والموت متلازمان فلا رثاء دون موت، حتى هؤلاء الذين يرثون شبابهم فإنهم يرثون شباباً قنئ وحسب هؤلاء الذين يرثون أنفسهم فإنهم يرثونها لأنهم أحسوا الموت وقرب الأجل والمصير المحتوم الذي لا مفر منه ولا مهرب .

معنى الرثاء :

تدور مادة الرثاء في اللغة حول الحزن والبكاء ويقال رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثية إذا بكاه بعد موته، ورثيت الميت رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً ورثيته : مدحته بعد الموت وبكيتته، ورثوت الميت أيضاً إذا بكيتته وعددت محاسنه، وامرأة رثانة ورثاية : كثيرة الرثاء لبعلمها أو لغيره ممن يكرم عندها وتنوح نياحة، وفي الحديث : أنه

(١) سورة الرحمن الآية رقم : ٢٦ .

(٢) سورة القصص آية ٨٨ .

(٣) ص ١٦٥ ج ٥ نهاية الأرب للنويري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

نهى عن الترتى وهو أن يتدب الميت فيقال : وافلاتاه، ويقال :
مايرثى فلان لى أى مايتوجع ولايبالى^(١) :
فترى أن مادة "رثاء" تدور حول معنى الحزن والبكاء والتدب
والتوجع. وورد الفعل رثا مهموزاً فيقال "رثاً" وغير مهموز فيقال :
"رثا" ومعناها واحد فرثأت الرجل رثاً : مدحته بعد موته، فالهمز
لغة فى المادة والمعنى واحد لا يختلف، قال الجوهري : وأصله غير
مهموز^(٢). والرثاء فى الاصطلاح : يعنى التفجع على الميت
والتلطف عليه وتعداد مناقبة واستعظام المصيبة فيه^(٣).

وقد عرفه الدكتور شوقى ضيف بأنه : بكاء يتعمق فى القدم
منذ وجد الإنسان ووجد أمامه هذا المصير المحزن : مصير الموت
والغناء الذى لايد أن يصير إليه فيصبح أثراً بعد عين وكأن لم يكن
شيئاً مذكوراً^(٤).

ويرى قدامة بن جعفر أنه لافرق بين الرثاء والمدح إلا فى اللفظ
فقط حيث يقول : "إنه ليس بين المرتبة والمدحة فصل إلا أن يذكر فى
اللفظ مايدل على أنه لهالك مثل : "كان" و "تولى" و "قضى تحبه"
وماأشبه ذلك وهذا ليس يزيد. فى المعنى ولاينقض منه، لأن تأييد
الميت إنما هو يمثل ماكان يمدح به فى حياته، وقد يفعل فى التأييد
بشىء ينتقل به لفظه عن لفظ المدح بغير "كان" وماجرى مجراها
وهو أن يكون المحى وصف مثلاً بالجود فلا يقال "كان جواداً" ولكن
بأن يقال : "ذهب الجود" أو فمن للجود بعده "ومثل : "تولى الجود"

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف ص ١٥٨٢ ومابعدها ج ٣ .

(٢) ص ١٥٨٠ ج ٣ نفس المصدر .

(٣) ص ٣٨١ ج ٢ جواهر الأدب، لأحمد الهاشمى، الطبعة الثانية عشرة
١٣٣٨ هـ .

(٤) ص ٥ الرثاء "فنون الأدب العربى، الطبعة الثالثة . دار المعارف .

وما أشبه هذه الأشياء^(١) نرى قدامة بن جعفر لا يفرق بين الرثاء والمدح إلا في اللفظ فقط ونحن نتفق معه في ذلك إذا كان الرثاء تأبيناً أو تعزية ولكننا لا نتفق معه إذا كان الرثاء ندياً ونواحاً فبين الرثاء التندب والمدح فرق كبير، ففي الأول يبكي الشاعر المرثى ويتوجع لفقده ويتفجع لموته ويعلن حزنه وألمه بخلاف المدح الذي يعبر الشاعر فيه عن الفرح والبهجة ويصور المدوح تصويراً بعيداً كل البعد في اللفظ والمعنى عن التندب والبكاء والحزن والنواح .

وذهب ابن رشيق القيرواني مذهب قدامة حيث قال : وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شئياً يدل على أن المقصود به ميت مثل : "كان" أو "عدمنا به كيت وكيت" وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت^(٢) .

ولكنني لا أتفق معه ومع صاحبه على إطلاق هذا القول على الرثاء بألوانه الثلاثة : التندب والتأبين والتعزية، فإن صح هذه القول على رثاء التأبين والتعزية فإنه لا يتفق ورثاء التندب والبكاء كما قدمت .

ويكاد يتفق الرثاء بمعناه اللغوي في المفهوم مع الرثاء بمعناه الاصطلاحي حيث الإشارة إلى معاني الوجع والحزن والألم إلى جانب ما تشير إليه المعاني الأخر من تعداد المحاسن والمناقب والتأسي والتعزية .

وينقسم الرثاء إلى ألوان ثلاثة : ندب وتأبين وتعزية .

(١) ص ١٠٠ فقد الشعر، لقدامة بن جعفر، تحقيق / كمال مصطفى، الطبعة الثالثة . مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(٢) ص ١٤٧ ج٢ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد . دار الجيل ببيروت . الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

أما الندب : فهو النواح والبكاء على الميت بالعبارة المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في التحبيب والتشجيع وسكب الدموع^(١) .

والندب هو أقوى ألوان الرثاء تعبيراً عن الحزن والألم ولا يكون غالباً إلا في فقد عزيز يتحول الشاعر بعد فقده إلى مصاب بضربة قاسية أذ هلت عقله وفقدته له ويشعر بلطمة مروعة صويت إلى قلبه، ويكون هذا غالباً حينما يفقد الشاعر ابنه أو أباه أو أمه أو زوجته أو أخاه أو غيرهم من أهله وأقاربه فيروح بيكهم بكاء "حاراً" بدموع غزار معبراً عن حرقة قلبه وعظيم مصيبته في هذا العزيز الفقيد .

فالشاعر في رثاء الندب يئن ويتوجع ويتفجع لفقد عزيز لديه ويبكي بكاءً حاراً بدموع غزار، يبكي ويلحن بكاءً على قيشارة نظمه تلحيناً حزيناً كله آهات وحسرات ووجع وزفرات . ويتجلى هذا اللون غالباً في رثاء الأقارب والأهل حينما يعصف بهم الموت أو في رثاء من يتزلون من الشاعر منزلة الأهل والأقارب كـرثاء الشبيعة لأئمتهم ونحو ذلك .

أما التأيين : فهو أقرب إلى المدح منه إلى الحزن والبكاء والنواح التآكل فهو يعد ضرباً من التعاطف الإيتساني والتعاون الاجتماعي، حيث يأخذ المؤين الرائي في سرد فضائل الميت وتعداد مناقبه وذكر محاسنه وتسجيل فضائله، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة ومافقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها^(٢) .

(١) ص ١٢ الرثاء . د / شوقي ضيف (من فنون الأدب العربي) .

(٢) ص ٦ فن الرثاء . د / شوقي ضيف .

فالتأبين ليس نواحاً ولا بكاءً كالندب بل هو تعداد لفضائل الميت وذكر لحاسته في ظل علاقة اجتماعية وجماعية . واللون الثالث من ألوان الرثاء : التعزية . وهي تختلف عن الندب والتأبين فلا هي نواح وبكاء ولا هي تعداد فضائل وذكر محاسن ومناقب بل هي تعبير عن حزن لفقد ميت ينفذ الشاعر من حادثة الموت التي هو بصدها إلى التفكير العميق في حقيقة الموت والفناء وأحياناً ينتهي به التفكير في حقيقة الموت إلى الغوص وراء معاني فلسفية عميقة قد تشمل الوجود وحقيقة الوجود والعدم والخياة والمخلوق وما إلى ذلك . وهكذا تنوع فن الرثاء إلى أنواع ثلاثة : الندب والتأبين والتعزية .

وشعر الرثاء أشرف أشعار العرب لأنه ينأى عن النفاق والخداع وغالباً ما يصدر عن صدق شعور وعاطفة صادقة بخلاف شعر المدح مثلاً الذي يظهر فيه النفاق والكذب والتعلق بوضوح . والرثاء أشرف أشعار العرب قاطبة، فقد قال الأصمعي : قلت لأعرابي : ما بال المرثي أشرف أشعاركم ؟ قال : لأننا نقولها وقلوبنا محترقة .

أما سبيل الرثاء فهو كما يقول عنه ابن رشيق القيرواني : "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلطف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً" (١) . إلا أنني أود أن أشير هنا أن هذه الأنواع الثلاثة للرثاء قد تأتي كل منها في قصيدة مستقلة بعينها وقد يجتمع الندب والتأبين في قصيدة واحدة وهذا هو ما عليه معظم الرثاء . وقد يجتمع الندب والتعزية أو التأبين والتعزية وأحياناً تشمل القصيدة الواحدة على ألوان الرثاء الثلاثة .

(١) ص ١٤٧ العمدة لابن رشيق الجزء الثاني .

«شعر الرثاء في العصر الجاهلي»

يعد الرثاء من أهم الأغراض التي عرفها العرب منذ العصر الجاهلي، حيث كانوا يبكون موتاهم وينديونهم فضلاً عن أنهم كانوا يقفون على قبورهم يذكرون فضائلهم ويعددون محاسنهم متأملين حقيقة الموت عارفين أنه المصير الذي يصير إليه جميع البشر .
إذن عرف العرب منذ العصر الجاهلي الرثاء بألوانه الثلاثة :
الندب حيث كانوا يندبون موتاهم وينوحون عليهم وينرفون عليهم الدمع خاصة حينما يفقدون أبناءهم وأقلاذ أكبادهم، والتأبين : حيث كانوا يرثون الموتى معددين فضائلهم ومحاسنهم والثناء على خصالهم والإشادة بصفاتهم من الشجاعة والمروءة والوفاء والكرامة وما إلى ذلك، ويغلب هذا اللون في رثاء الأصدقاء والأهل والأقارب فضلاً عن الأشراف من القوم .

والعزاء : حيث كانوا رثائهم هذا يدعون إلى التخلي بالصبر وتملك النفس فإن الموت كأس يشربه الجميع وهو ليس وقفاً على شخص دون آخر وأن الدنيا دار فنا - وخراب لا دار بقاء - وعسران وليس أمام الإنسان إلا أن يصبر فلا راد للأقدار .

ويم أن الرثاء يتصل اتصالاً وثيقاً بالحماسة فقد أخذ الشعراء العرب في العصر الجاهلي "يرثون أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم"^(١) فضلاً عن أنهم كانوا يرثون بجوار أبطالهم الذين يقتلون في الحروب والغارات يرثون أشرافهم وعظماهم وإن ماتوا حتف أنوفهم معددين مناقبهم مشيدين بأعمالهم مفتخرين بأعمالهم وصفاتهم على القبائل الأخرى.

(١) ص ١٠٩ المفضليات .

وكان من عادة القدماء في شعر الرثاء : "أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعززة والأمم السالفة والوعول المتنعة في قتل الجبال والأسود الخادرة في الغياض وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لباسها وطول أعمارها. وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر" (١) .

ومن شعر الرثاء في العصر الجاهلي قول المهلهل التغلبي يرثي أخاه كليياً ويبيكيه فيقول :

أهـاج قـلـداء عـينـي الإـدكـار؟ وصار الليل مشتتلاً علينا وبت أراقب الجوزاء حتى وأبكي والتجسوم مطلعات على من لو نعت وكان حيا دعوتك يا كليـب فلم تجبني أجبتني يا كليـب خـلاك ذم سفاك الغيث إنك كنت غيثاً أبت عيناي بعدك أن تكفأ وإنك كنت تحلم عن رجال وقمتع أن يسهم لسان أرى طول الحياة وقد تولى كأنى إذا نعى الناعى كليبا قدرت وقد غش بصرى عليه سألت الحى : أين دفنتموه ؟ فسرت إليه من بلدى حثيثاً وحادت ناقتى عن ظل قبر أتغدو يا كليـب معى إذا ما	هدوماً فالدموع لها انهمار كأن الليل ليس له نهار تقارب من أوائلها اتحدار كأن لم تجرها عنى البحار لعاد الخيل يحجبها الغبار وكيف يجبنى البلد القفار؟ لقد فجعت بفارسها نزار ويدسرا حين يلمس اليسار كأن غضا القناد لها شفار وتعفو عنهم ولك اقتدار مخافة من يجير ولا يجار كما قد يسلب الشىء المعار تطايـر يـبـسـن جـنـبـى الشـرار كما دارت بشاريها العقار فقالوا لى : بأقصى الحى دار وطار النوم وامتنع الفرار ثوى فيه المكارم والفخار جبان القوم أنجسوا الفرار؟
--	--

خذ العهد الأكيد على عمري بتركي كسل ما حوت الديار
ولست بخالغ درعى وسيفسى إلى أن يخلع الليل النهار

المرثية بكاء حار على أخيه الذي قتل وأحزان وآلام لا تنتهى
حتى يقتص من قاتليه ونحيب وعويل على فقده لأخيه وهو لا يحس
للحياة طعماً ولاللونوم راحة وكيف يفكر فى النوم وأخوه مفقود ؟
وكيف يهدأ بالراحة وأخوه قد امتدت عليه يد البغى فأصبح وراء
حجب وأستار وتراب وأحجار ؟
إنه يبكى بكاءً شديداً لفقد أخيه هذا الأخ الشجاع الكريم
الجراد فارس قبيلته وقومه، هذا الرجل الكريم الخليم ذو العقو عند
المقدرة .

فالشاعر يبكى أخاه ويعدد مناقبه ويذكر فضائله ويصور عظم
الفجيعة فيه والمصيبة التى لحقت ولحقت قومه بسبب فقده ويخبره أنه
سيظل يطلب ثأره وهذا عهد بينه وبينه أنه لن يترك درعه وسيفه
حتى يشفى غلته وتهدأ النيران ويطفى شررها بأخذ الثأر لأخيه. وكان
من عادة الشعراء العرب فى الجاهلية أن يبتدئوا قصائد المدح والفخر
والتبجاء ونحوها بالنسب والوقوف على الديار وبكاء الأبطال فقلما
قصيدة خلو من ذلك إلا أنهم لم يؤثروا هذا النهج وهذه الطريقة
حينما كانوا يرثون كما يقول ابن رشيق : "وليس من عادة الشعراء
أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح
والتهجاء" (١) .

ومع ذلك نجد بعض النماذج لشعر الرثاء وقد استهلها
الشعراء بالغزل والنسب، مثل قصيدة دريد بن الصمة فى رثاء
أخيه حيث يقول :

أرثُ جديد الجبل من أم معبد
وبانت ولم أحمد إليك نوالها
بعاقبة أم أخلفت كل موعد (١)
ولم ترج مشاركة اليوم أوغد
كان حمول الهى إذ متع الضحى
أو الأثاب العسم المحرم سوقه
بناصية الشحنا . عصبية مذود (٢)
بكابة لم يخيظ ولم يتعضد
ورعط بنى السوداء . والقوم شهدي
فقلت لعارض وأصحاب عارض

ومضى دريد بن الصمة فى قصيدته الرثائية الطويلة يرثى
أخاه عبد الله رثاءً حاراً مصوراً حبه لأخيه وفقده له ومصوراً مقتله
وحزنه عليه معدداً لصفاته الحميدة ومآثره ومناقبه : من شجاعة وقوة
وكرم وشدة بأس وقوة عزيمة وصبر عند الشدائد :

فإن يك عبد الله خلى مكانه
ولا يرمأ إما الرياح تناوحت
وتخرج منه صرة القصر جرأة
كميش الإزار خارج نصف ساقه
قليل تشكبه المصيبات ذاكر
إذا هبط الأرض الفضا . تزينت
فما كان وقافاً ولطائش اليد
برطب العضا والضرب المعضد
وطول السرى درى عضب مهند
صبور على الضرا . طلاع أنجد
من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
لرؤيته كالماتم المتندد (٣)
ومضى على هذه الشاكلة مصوراً حزنه وجزعه عليه ومعدداً
مناقبه وقضائله .

- (١) رث الجبل : بلى . والاستفهام من باب تجاهل العارف .
(٢) الحمول : جمع حمل وهو ما يحمل على الإبل . متع الضحى : بلغ آخر
غايته . العصبية : الشجرة تعلق فى شبيه عال فتكون كالحيمة . مذود :
إسم جبل .
(٣) ص ٥٤ جزء المنتخب من أدب العرب . شرح / لجنة من الأساتذة / أحمد
الاسكندرى وأحمد أمين وعلى الجارم وعبد العزيز البشرى ود / أحمد
ضيف . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٢ م .

ومن شعر الرثاء في العصر الجاهلي قول ذي الإصبع العدواني
"وهو شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية وله غارات كثيرة
في العرب ووقائع مشهورة يقول يرثي قومه "عدوان" حيث وقع
بأسهم بينهم فقتلوا :

عذير الحمى من عدوا	ن كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضاً	فلم يبغوا على بعض
فقد صاروا أحاديث	برفع القول والحفض
فمنهم كانت أنسدا	ت والموفسون بالقرض
ومنهم من يجيز النسا	س بالسنسقا والقرض
ومنهم حكم يقضى	ولا ينقض ما يقضى (١)

فالمرثية تعدد لفضائل قوم الشاعر وذكر محاسنهم ومناقبهم
فضلاً عن تصوير موتهم، وقد رثاهم الشاعر بغير ذلك كما رثتهم
ابنته أمامة بنت ذي الإصبع وكانت شاعرة - حيث ذكرت محاسن
قومها وعددت مناقبهم وصورت موتهم وحزنها نحوهم (٢) .
والنايعة الذبياني يرثي النعمان بن الحارث بقصيدة يستهلها
بالغزل على خلاف المألوف عند شعراء العصر الجاهلي ثم يتخلص
منه إلى الرثاء فيقول : (٣)

فلا تبعسدين إن المنية موعد	وكل امرئ يوماً به الحال زائل
فما كان بين الخير لو جاء سالماً	أبو حجير إلا ليال قلائل
فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت	فما في حياة بعد موتك طائل

- (١) ص ٣٥٣ ج١ القسم الأول مجريد الأغاني لابن واصل الحموي / محقق
/ د طه حسن وإبراهيم الأبياري مطبعة مصر عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م .
(٢) ينظر ص ٣٦٣ المصدر السابق .
(٣) ص ١١٥ - ١٢٢ ديوان النايعة الذبياني محقق / محمد أبو الفضل
إبراهيم طبع دار المعارف، الطبعة الثانية .

فآب مصلوه بعين جليلة وغودر بالجولان حزم وناتل
سقى الغيث قبرا بين بصري وجاسم بغيث من الومى قطر ووابل
ولازال ريحان ومسك وعنبر على منتهاه ديمة ثم هاطل
وينبت حوذانا وعوقبا منورا سأتبعه من خير ماقال قاتل
يكى حارت الجولان من فقد ربه وحوران منه موحش متضائل
تعودا له غسان يرجون أوبه وترك ورهط الأعجمين وكابل

يرثى النابغة النعمان بن الحارث رثاءً تقليدياً ليس فيه توهج عاطفة ولا تفتح لمحزون فقد حبيبه، بل الأبيات من الرثاء.. الرسمى الذى لا بد لقائله أن يقوله فى زعيم أو عظيم .

ونراه فى الأبيات يدعو له بعدم الهلاك مع أنه هلك على عادة الشعراء - وهو كلام كثر استعمالهم له حتى أصبح مثلاً . وقد وضع ذلك مالك بن الربيع فى قوله :
يقولون : لا تبعذوهم يدقنوتسى وأين مكان البعد إلا مكانياً^(١)

ثم يستطرد النابغة فيقول إنه لا يستجاب لدعائه لأن المنية أنفذت حكمها ولا راد لها وإنما ستطول كل إنسان، ثم يتعرض الشاعر لحياته التى كانت مع المرثى حيث كانت كلها أنسى وبهجة، ثم أخذ يصور دفته والصلاة عليه ويدعو لقبه بالسقيا وأن الريحان والمسك والعنبر يعطرون قبره مع كل سحابة ممطرة، كما ينبت على قبره الحوذان والعوف ثم أخذ يصور حزن قومه الفساسة عليه وأنهم محزونون لا يصدقون أن النعمان فاتهم وتركهم إلى الأبد ويشاركهم حزنهم أقوام آخرون كالترك والفرس والأفغان وكثير من بنى العجم لأن المصاب جليل عظيم فهو ملك عظيم محبب إلى الجميع .

(١) ص ١٣٧ ذيل الأملى .

- ويقول امرؤ القيس حين يلقه أن بنى أسد قتلت أباه : (١) .
والله لا يذهب شيخى باطلاً .
حتى أبير مالكا وكاهلا (٢)
القائلين الملك الملاحلا (٣)
خير معد حسبا وتائلا
بالهف هند إذ خطن كاهلا (٤)
نحن جلبنا القرع القوافلا (٥)
يحملتنا والأسل التواهلا (٦)
مستفرمات بالحصى جوافلا (٧)
تستشغر الأواخر الأوانلا (٨)

نرى امرؤ القيس فى رثائه لأبيه لا يتوجع ولا يتفجع ولا يندب ولا يبكى وكأن الأتفة والكبرياء لا تسمحان له بذلك وكيف يبكى ويتفجع لمقتل أبيه وعند قومه من القوة والبأس ما يستطيع أن يأخذ الثأر ويقتص لأبيه ؟

- (١) ص ١٣٤ - ١٣٥ ديوان امرؤ القيس . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف الطبعة الرابعة .
(٢) أبير : أهلك . ومالك وكاهل : من بنى أسد .
(٣) الملاحل : السيد الشريف . ويقصد أباه .
(٤) هند : أخته .
(٥) القرع القوافلا : الحبل المسنة الضامرة .
(٦) الأسل : الرماح الرقاق . التواهلا : العطاش .
(٧) مستفرمات : أى تغرم . الجوافل : السراع .
(٨) تستشغر : أى يتلو أواخر الحبل أوانلها .

وهو في رثائه أيضاً يعدد بعض فضائل أبيه فهو السيد الشريف في قومه وهو خير معد حسباً ونسباً .
وامرؤ القيس قليل الرثاء في شعره وكأنه عاش حياته للهو والعبث لاغير فليس له في الرثاء باع طويل، وكما رثى أباه رثى قومه^(١) ورثى الحارث بن حبيب السلمي^(٢) .
ومن شعر الرثاء في العصر الجاهلي قول عنترة بن شداد العبيسي يرثى الملك زهير بن جذيمة العبيسي بقصيدته التي يقول فيها: (٣)

وخفى نوره فعاد ظلاماً	وخفى نوره فعاد ظلاماً
ودرارى النجوم غارت وغابت	ودرارى النجوم غارت وغابت
حين قالوا زهيراً ولي قتيلاً	حين قالوا زهيراً ولي قتيلاً
قد سقاء الزمان كأس حمام	قد سقاء الزمان كأس حمام

ويعنى عنترة في رثائه للملك زهير بصور عظم المصيبة التي حلت بفقده ويصور المأساة تصويراً يمتزج بالحزن والأسى لفقد هذا الملك العظيم، ثم يدعو عينيه أن تجودا بالدمع لفقده مطالباً بأخذ الثأر من قتلته وأنه سيظل شاهراً سيفه حتى يقتص من الجنة فيقول:
قسما بالذي أمات وأحيا وتولى الأرواح والأجسام
لا رفعت الحسام في الحرب حتى أترك القوم في الفياق عظاما
يا بنسى عامر ستلقون برقاً من حمامى يجرى الدماء سجاما
وتضح النساء من خفية السبي وتبكي على الصغار اليتامى

(١) ص ٢٠٠ ديوانه .

(٢) ص ٣٤٧ ديوانه .

(٣) ص ١٣٧ ديوان عنترة . طبعه دار الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

فالمرثية ليست بكاءً خالصاً بل هي بكاء مشوب بالحماسة وإظهار القوة والفخر بها .

وكما رثى عنتره الملك زهير رثى أيضاً قماضر زوجة الملك زهير وبكاها وصور قتلتها تصويراً يمتزج بالحزن والأسى ودعا لقبورها بالسقيا واتجه إلى الطبيعة التي شاركته حزنه وبكائه وألقت بظلمها على القبر تنسج من أكفانها حلالا والربيع يكسو ربوع القبر بأنواره ويسرى النسيم فيعطر أرجاءه ثم يصور المصيبة التي حلت على القوم لفقدائها فهي الكرمة العزيزة ثم يدعو القوم للتهوؤ بأخذ الشار لها (١) .

وإذا كان شعراء العصر الجاهلي قد عرفوا فن الرثاء بألوانه الثلاثة وإذا كانوا قد رثوا في أشعارهم الأهل والأحباب والأصدقاء وسادة القوم فإنهم أيضاً عرفوا رثاء النفس، حيث يأخذ الشاعر في رثاء نفسه ويتصور أنه مات وفارق الحياة ويتصور مايفعله أهله وبنوه به حين موته ويتصور تكفينه ودفنه (٢) .

وإذا كان الشعراء الجاهليون قد نظموا فن الرثاء دون تمهيد غزلي في مقدمة القصيدة الرثائية غالباً وإذا كانوا قد مهذبوا لبعض قصائد الرثاء بذكر النسب والغزل أحياناً فإنهم كذلك قد عددوا موضوعات القصيدة الرثائية بأكثر من موضوع بجوار الرثاء حيث ترى القصيدة المشتملة على الرثاء والمديح والفخر والهجاء إلا أن ذلك كان نادراً (٣) .

وهكذا عرف الشعر الجاهلي فن الرثاء بألوانه الثلاثة وجاءت القصيدة غالباً دون تمهيد وأحياناً بتمهيد غزلي ونادراً متعددة

(١) ص ٤٩ ديوان عنتره .

(٢) ص ٣٠٠ المفضليات .

(٣) ينظر على سبيل المثال ص ٢٣٧ المفضليات .

الأغراض إلا أنه يلاحظ على شعر الرثاء في ذلك العصر أنه لم يأخذ حقه من حيث الكم والكثرة مثل بقية الأغراض الشعرية الأخرى كالممدح والفخر والهجاء والغزل ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تأبى النفس العربية وتعففها عن البكاء والعيول والنحيب والبكاء. وكيف يبكي العريس الجاهل وقد أحاطت بنفسه بلباس الأنفة والعزة والكبرياء والشجاعة والفتوة ؟ فضلاً عن هذه الطبيعة الجافية الغليظة والرثاء تميله رقة الطبع ورقة العاطفة ورهافة الإحساس والشعور .

«الفصل الثاني»

«الرتاء في العصر الإسلامي والأيام»



« شعر الرثاء في العصر الإسلامي »

يختلف شعر الرثاء في العصر الإسلامي عن مثيله في العصر الجاهلي اختلافاً واضحاً تبعاً لاختلاف المجتمع والعادات والتقاليد فقد كان العصر الجاهلي عصر العنجهية القبلية والمفاخرة والتباهي بالشجاعة والقوة وتتابع الغارات على القبائل الأخرى فضلاً عن غلظة القلوب وصلابة العقول مما لم يجعل لهذا الفن الشعري سوقاً رائجة في هذا العصر الجاهلي حيث لم يؤثر الجاهليون الرثاء لأنهم كانوا يرونه ضعفاً يتناقض مع عاداتهم وتقاليدهم .

فلما جاء الإسلام بمبادئه السمحة التي خاطبت العقول فهذتها وخاطبت القلوب فرققتها والعواطف والمشاعر فأرهقتها وجعلت المسلمين كلهم أخوة يتأثر المسلم بأخيه المسلم فرحاً وحزناً وحاربت العنجهية والعنصرية والطبقية بين أبناء المجتمع الإسلامي فتغيرت تبعاً لذلك تقاليد المجتمع وعاداته وتحول المجتمع الإسلامي تحولاً كبيراً وخطيراً في شتى مناحي الحياة .

من هنا اختلفت النظرة إلى الرثاء والبكاء والتعبير عن الأحزان والمصائب، فرقت القلوب وأرهفت الأحاسيس ولم يعد الرثاء ضعفاً أو تعبيراً عن الضعف بل أصبح تعبيراً عن الوفاء والحب وقوة الإيمان بل أصبح تعبيراً عن رقة القلوب ولين العاطفة وتعبيراً عن الأحاسيس والمشاعر الصادقة دون خجل أو نظرة عنجهية .

وتبعاً لذلك انطلق شعراء العصر الإسلامي يعبرون عن أحزانهم وآلامهم ومصائبهم حينما يفقدون عزيزاً لديهم سواء كان من أهلهم وأقاربهم أو من أصدقائهم وأصحابهم أو زعيماً دينياً وسياسياً، فتجدهم يرثون الأنبياء والآباء والإخوة والأخوات والأزواج والزوجات والأصدقاء والأصحاب فضلاً عن شعر الرثاء العظيم الذي رثوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاء الراشدين ورثاء.

شهداء الغزوات والسرايا والمعارك التي دارت بين المسلمين والكافرين .

وقد تأثر شعر الرثاء في العصر الإسلامي من حيث الشكل والمضمون بمبادئ الإسلام وعقائده فأحل الشعراء في مراتبهم ما أحله الإسلام وأباحه ونزعوا منه ما حرمه الإسلام وانتزعه وبدأت معاني الرثاء - والشعر يوجه عام - تنتج نحو العمق والدقة وترتيب الأفكار واستقصائها متأثرة بمعاني الإسلام وأفكاره، فضلاً عن أنها أسطيفت بالروح الدينية والمعاني الإسلامية، كما أخذ الشعراء يهجرون الألفاظ الغريبة الحوشية واتجهوا بها نحو العذوبة والرقّة والسلاسة، وأخذت الأساليب تميل إلى جمال السبك وسماحة الديباجة والاختصاص من القرآن الكريم واستخدام ألفاظه وعباراته والتأثير بأساليبه وتشبيهاته تأثيراً عظيماً .

وتعد الخنساء أشهر من رثت وبكت وعبرت عن أحزانها وآلامها في شعر كله آهات وأنات وعبرات وزفرات تحوطه العاطفة الصادقة والمشاعر القوية المعبرة وذلك في رثائها لأبيها عمرو وأخويها معاوية وصخر حيث بكتهم بكاءً مرّاً وجزعت عليهم جزعاً شديداً وكان أشد حزنها ووجدتها على أخيها صخر "لأنه شاطرها هي وزوجها أمواله مراراً"^(١)، مما جعل له منزلة خاصة في قلبها فعاشت حياتها حزينة مكلمة بعد فقدها له وظلت تبكيه قبل الإسلام ويعدده حتى فقدت نور عينها "وقد طال بها العمر حتى شهدت حرب القادسية مع أولادها الأربعة فأوصتهم وصيتها المشهورة وحضتهم على الصبر عند الزحف فقتلوا جميعاً فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ولم يحزن عليهم حزنها على أخويها"^(٢) وظلت

(١) ص ١٣٩ ج ٢ جواهر الأدب ، للسيد الهاشمي .

(٢) ص ١٤٠ ج ٢ نفس المصدر .

الخنساء تبيكى أخويها وأولادها حتى توفيت عام ٤٦ هـ في خلافة معاوية (١).

ومن جيد شعر الخنساء في رثاء أخيها صخر : (٢)
أعيتني جسوداً ولا تجمداً ألا تبيكان لصخر الندى
ألا تبيكان الجسرى . الجميل ألا تبيكان الفتى السيدا
رفيع العنود طويل النجا دساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم انتمى مصعدا
وإن ذكر المجد ألقيته تأذراً بالمجد ثم ارتدى
إن الأبيات تفيض بالشاعر والأحاسيس الصادقة، مشاعر تنبئ عن قلب حزين مكلوم وتوحى باكتواء قلبها بنيران فقد أخبها، فهي حزينه ملتاعة مهمومة والهة تعلق بالنواح وتفرط وتردد آهاتها بين أبياتها وترتفع بنشيجها ويكاتها، كل ذلك بأسلوب واضح وألفاظ سهلة معددة صفات أخيها مثنية عليه .

ومن رثائها لأخيها صخر قولها : (٣)
ما هاج حزتك ؟ أم بالعيس عوار أم ذرفت أن خلت من أهلها الدار
كأن عينى للكره إذا خطرت فيض يسيل على الخدين مدرار
تبيكى لصخر هي العبرى وقد ولعت ودونه من جديد الترب أستار
تبيكى خناس فما تنفك ما عصرت لها عليه رنين وهى مقتنار
تبيكى خناس على صخر وحق لها إذ رابها الدهر إن الدهر ضرار
يا صخر وراى ما قد تناذره أهل السوارى ما فى ورده عار

(١) ص ١٤٠ ج٢ المصدر السابق .

(٢) ص ٨٣ وما بعدها دبر إن الخنساء . محقيق / الدكتور إبراهيم عوضين، الطبعة الأولى عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، طبع مطبعة السعادة .

(٣) ص ٩٧ ج٤ المنتخب من أدب العرب .

فتحس في الآيات لوعة متقدة ونيراناً تفوح بين ثناياها
ودموعاً غزيرة تنسكب على الحدود فتحرقها من شدة لهيبها وعاطفة
صادقة تفتليء بمشاعر الأسى والحزن العميق، إن الخنساء ترفع
صوتها بالأنين والبكاء لفقد أخيها وتسيل دموعها منحدره على
الخدنين على أخيها الذي بعد عنها وكان كل أملها في الحياة وأصبح
في لحظة بين ترب وخلف أحجار فلم تعد تراه ولا يراها، إنه الموت
الذي فرق بينهما، ثم تكيه وتندبه وتنفجع عليه ويحق لها ذلك فقد
كان لها العون والنصير في هذه الحياة، ثم تمضى بعد ذلك معدة
صفات ومناقبه فتقول :

وإن صخرأ لكافينا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشتلونحار
وإن صخرأ لمقدام إذا ركبوا وإن صخرأ إذا جاعوا لعقار
أغسر أبلج تآسم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
جلد جميل المحيا كامل ووع وللحروب غداة الروح مسعار
حمال ألوية هباط أودية شهاد أندية للجيش جرار
لا يمنع القوم إن سألوه خلعتة ولا يجساوزها لليل مسرار
وهكذا أخذت الخنساء تنوح وتبكي أخاها وتؤينه تأبيناً حاراً
معددة مآثره وصفاته بعاطفة حزينة مكلومة يحولها الصدق
ويسكنها الحزن الدفين .

وإذا كانت الخنساء الشاعرة المسلمة قد أخذت تبكي أخاها
صخرأ وتندبه فإنها أيضاً رثت أباهاً عمراً وأخاها معاوية^(١) كما
رثت أبناءها رثاءً حاراً وكأنها عاشت للبياء وبالبياء وقضت
أيامها حزينة مكلومة ترثي أهلها بكل الصدق والوفاة ومن بينهم
زوجها وابن أخيها كرزاً^(٢) إلا أن أكثر رثائها كان لأخيها صخر
وكان أروع شعر في فن الرثاء عندها .

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوان الخنساء ص ٢٧ .

(٢) ينظر على سبيل المثال : ديوان الخنساء ص ١٣٣ و ص ١٢٦ .

فالحنساء كانت أروع شاعرة في فن الرثاء ولم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها ومن فضل عليها ليلي الأخيلية في الشاعرية فلم ينكر أنها أرثى النساء جميعاً .
ومن شعر الرثاء في العصر الإسلامي قول قتيلة بنت النضر بن الحارث ترثي أخاها وكان النصر مع قريش في غزوة بدر فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتله فقالت تبكيه : (١)

ياراكيباً إن الأثيل مظنةً أبلغ بها ميتاً بسان محبسة متى إليك وعبرة مسفوحة هل يسمعن النضر إن ناديته أمحمد ياخير ضنى كريمة ماكان ضرك لو منتت ؟ وربما أو كنت قابيل فدينفقن فالنصر أقرب من أسرت قرابة ظلت سيوف بني أبيه تتوشه صبراً يقاد إلى المنية متعباً	من صبح خامسة وأنت موفق (٢) ماإن تزال بها النجائب تخفق جسادت بواكفها وأخرى تخنق (٣) أم كيف يسمع ميت لاينطق في قومها والفعل فحل معرق (٤) من الفتى وهو المغيظ المحنق بأعز مايفلر به ماينفق وأحقهم إن كان عتق يعتق لله أرحام هنسك تشنق رسف المفيد وهو عان موثق (٥)
---	---

(١) ص ٨٥ - ٨٦ ج٤ المنتخب من أدب العرب . و ص١٢ ج١ تجريد الأغاني .

(٢) الأثيل : موضع به قبر النصر .

(٣) المسفوحة : المعبوية .

(٤) الضن : الأصل والولد .

(٥) صبراً : أي حبساً حتى يقتل .

ترثي الشاعرة أباها وترسل له التحية وتقول : إن الأثيل يظن
أن تبلغه في صبح الليلة الخامسة إذا وقفت ولم يعقك عائق ثم
تسفع عليه الدموع التي سالت وأخرى جمدت وأخذ الحزن بالخلق
منها فخنقه حزناً على أخيها، ثم أخذت تعدد عليه وتبكي وتنوح
وتذكر أسر الرسول له وقتله وتتمنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم
لو كان أطلق سراحه .

وهناك كثير من الشعراء المخلصين رثوا وبكوا وأسألوا الدمع
وعبروا عن أحزانهم لفقداهم الأهل والأقرباء والأصدقاء والأصحاب،
بكوا الأبناء والأخوة والآباء والأزواج والزوجات أمثال : أبي ذؤيب
الهمزلي الذي رثى أولاده بقصيدة رائعة يقال : إنه تقدم بها على
جميع شعراء هذيل^(١) ويفتتحها بقوله : (٢)

آمن المنسون وربيه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً منذ ابتذلت ومثل مالك يتفجع

وتعد هذه القصيدة من عيون شعر الرثاء في الأدب العربي
حيث بلغ أبو ذؤيب في رثائه من التعبير عن حزنه ولوعته على فقد
أبنائه السبعة الذين اختطفهم الموت بين عشية وأخرى واحداً بعد
واحد أمام عينيه ما لم يبيلنه شاعر مثله، فالقصيدة كلها رثاء وبكاء
وتفجع وتوجع وأخران وآلام وأهات وحسرات، فهي صريحة حسرة
خرجت من أحشاء الشاعر ونبضة حزن نبض بها قلبه .

وقد صور فيها الشاعر عظم المصيبة التي لحقت به بفقد أبنائه عن
طبع وسجية "المراثي" إنما تقال على السجية إذا كان الشاعر قد فجع
بفقد أهله والفقيد هنا ليس أهله فقط بل سويداء قلبه ولبه وقلدة
كبده إنهم أبنائه وليس هناك من هو أعز وأغلى من الأبناء .

(١) ص ٧٨٥ مجريد الأغاني .

(٢) ص ٧٨٥ المصدر السابق .

فضلاً عن شعراء آخرين من المخضرمين الذين لهم باع طويل في شعر الرثاء أمثال : مالك بن الربيع التيمي وأميرة بن أبي الصلت وكعب بن مالك وكعب بن زهير وأعشى باهلة وغيرهم من الشعراء المخضرمين الذين راحوا يبكون أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأزواجهم وأهلهم وأصدقائهم .

ومن أروع شعر الرثاء وأعظمه في العصر الإسلامي رثاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق وسيد البشر، فقد كان موته صلى الله عليه، مصيبة كبرى أمت بالمسلمين ونازلة عظيمة داهمتهم وهزت مشاعرهم وعقولهم حتى أنكروا البعض منهم موته صلى الله عليه وسلم كعمر بن الخطاب وهو من هو ديننا ومكانة بين المسلمين حتى جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه وخطب في جموع المسلمين وأخذ يتلو قول الله تعالى : "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين" (١) . عندئذ أفاق المسلمون وخبروا الحقيقة وواجهوا الفجيعة التي لحقت بهم بموته صلى الله عليه وسلم .

ورثاء الرسول صلى الله عليه وسلم يتبعون عن حب عميق يمتلك أفئدة الشعراء بل والمسلمين جميعاً وكيف لا يكون ذلك كذلك والفقيد أعظم من استولى على قلوب المسلمين وأحب إنسان لديهم، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أحببناه بكل مشاعرنا وجوارحنا .

ومن رثاء النبي صلى الله عليه وسلم قول ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها تكيهه وقد جزعت جزعاً شديداً "وعلى شدة الجزع يبني الرثاء كما يقولون" : (٢)

(١) الآية : ١٤٤ سورة آل عمران .

(٢) ص ١٥٣ ج٢ العمدة لابن رشيقي .

إغبر آفاق السماء وكورت
فالأرض من بعد النبی كتيبة
فليبكه شرق البلاد وغربها
وليبكه مطر وكسل يمانى
ياخاتم الرسل المبارك صنوه
صلى عليه منزل القرآن
شمس النهار وأظلم العصران
أسفا عليه كثيرة الرجفان

إنها مرثية حارة خرجت من قلب حزين مكلوم عبرت عن حزن فاطمة رضى الله عنها على أبيها الرسول العظيم، بل عبرت عن الحزن الذى خيم على الكون : على السماء والأرض والشمس والنهار خيم على الأرض شرقها وغربها، بل حزنت الجبال لفقده وشاركها البيت الحرام، فالكون حزين مكلوم وكيف لا يحزن الكون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعظم من جاء إليه وشرقه؟ ومن أبرح شعر الرثاء النبوى وأروع رثاء حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه لنبيه صلى الله عليه وسلم بل يعد شعر الرثاء فى النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته أروع شعر الرثاء عند حسان بن ثابت حيث لم يصل إلينا شعر رثائى قيم فى الجاهلية لحسان .

وشعر الرثاء النبوى عند حسان كله هموم وأحزان وآلام وأشجان وحب وإيمان وحنين ومحنتان وتعبير عن عظم المصيبة وهول الفجعية بموت الرسول صلى الله عليه وسلم وتعداد لفضائل الرسول ومناقبه وتصوير مكانته وفضله وعظمته .

ولم يستطع حسان بن ثابت رثاء النبى صلى الله عليه وسلم يوم موته لغلبة حزنه وهول فجيعته وعظم مصيبته إلا بببيت واحد هو قوله : (١)

(١) ص ٣٨٠ ديوان حسان بن ثابت / تحقيق / د سيد حنفى حستين
طبعة : دار المعارف .

ألا دفتتم رسول الله في سفيط من الألوّة والكافور متضود؟ (١)
ويذكر حسان بن ثابت في رثائه للنبي صلى الله عليه وسلم أن
النبي صلى الله عليه وسلم كان كل همه وشغله وهو نور عينيه
وليس له أحد سواه وإنه لن يحزن على أحد بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولا يهمه أحد غيره فيقول في رثائه له: (٢) .
كنت السواد لناظري فعمسى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحساذاً

ومن روائع شعر الرثاء المحمدي قول حسان يرثيه صلى الله
عليه وسلم: (٣) .

بطينية رسم للرسول ومعهد
ولا تنمحي الآيات من دار حرمة
وواضح آثار وياقسي معالم
بها حجرات كان ينزل وسطها
معارف لم تطمس على العهد أيها
عزقت بها رسم الرسول وعهده
ظلمت بها أبكى الرسول فأسعدت
مفجعة قد شقها فقد أحمد
فيوركنت يا قبر الرسول ويوركنت
وسورك نحد منك ضمن طبيباً
تهيل عليه التراب أيد وأعين
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة
وراحوا يحزن ليس فيهم نبيهم
بيكون من تبكى السماوات يومه

منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وربع له فيه مصلى ومسجد
من الله فور يستضاء ويوقد
أناها البلى فالأى تجدد
وقبراً بها وأراه في التراب ملحد
عيون ومثلاً من الجن تعد
فظلمت لآلاء الرسول تعدد
بسلام سوى فيها الرشيد المسدد
عليه بناء من صفيح متضدد
عليه وقد غارت بذلك أسعد
عشية علوه الثرى لا يوسد
وقد وهت منهم ظهور وأعضد
ومن قد بكته الأرض فالتاس أكمد

(١) سفيط : وعاء الطيب . الألوّة : عود الطيب .

(٢) ص ٣٨٣ ديوان حسان بن ثابت .

(٣) ص ٣٨٧ وما بعدها ديوان حسان بن ثابت .

إلى أن قال :

فبكى رسول الله يا عين عبسة ولأعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما لك لا تبكين ذا النعمة التي على الناس منها سابغ يتغمد
فجودي عليه بالدموع وأعولى لفقد الذى لامثله الدهر يوجد
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

إلى أن قال :

وليس هوائى نازعاً عن ثنائه لعلى به فى جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بتلك جنواره وفى نيل ذلك اليوم أسعى وأجد

المرثية طويلة تبلغ ستة وأربعين بيتاً اخترت منها الأبيات التى
تعبر عن حزن حسان بن ثابت وامتلاء نفسه بذكرى الرسول صلى الله
عليه وسلم وما كان يمثله النبى صلى الله عليه وسلم له فهو نبيه
وحبيبه وصديقه وعديله فى تزوج الأختين القبطيتين بل هو كل شىء
فى حياته .

والمرثية بكاء حار على الرسول صلى الله عليه وسلم وندب
وعويل وتوجع وتفجع عليه صلى الله عليه وسلم، وفيها إيمان وحب
وحنين ودمع وفيها الوفاء والولاء وفيها اللوعة المتناغة والعين
النازقة للدمع والقلب الحزين المكلموم .

وقد صور حسان فى مرثيته عظم المصيبة وعظمة الفقيد إنه
ليس أى فقيد، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه الحلم والعلم
والرحمة، إنه الإمام الحق، المعلم الصدق، إنه النعمة العامة إنه
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقيد الذى لا يعد له فقيد
منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة .

وحسان فى مرثيته يعدد بعضاً من صفات النبى الكريمة التى
لا تحصى ولا تعد ثم يبكى عليه بل يدعو عينيه إلى البكاء وإسالة
الدموع .

وقد تأثر حسان في مراثيته بمعاني الإسلام ومبادئه بل تأثر بالألفاظ الإسلامية والأفكار الإسلامية إلى حد بعيد، بل إننا لانغالي إذا قلنا إن الإسلام بمعانيه وأفكاره ومبادئه وتعاليمه وعقائده يسيطر على المراثية سيطرة كاملة .

ولعل شاعراً إسلامياً لم يرث النبي صلى الله عليه وسلم كما رثاه حسان فقد رثاه بجملة قصائد يقفح منها الحزن والبكاء والعويل والتذب والتفجع والندرة والجراح الغائرة التي لا تشفى، ولاغرو في ذلك فهو شاعره الخاص الذي وقف بجانبه يدفع كيد الكافرين عنه بشعره ويدعو إلى دعوته ويشرح شرع الله عنه ويحده بكل الصدق والوفاء والحب والولاء .

ومن شعر المراثي المحمدية قول الإمام علي بن أبي طالب يرثي

الرسول صلى الله عليه وسلم : (١)
أمن بعد تكفين النبي ودفنه
رثنا رسول الله حقاً فلن نرى
وكننا لنا كالمحصين من دين أطله
وكننا بمرأه نرى النور والهنى
لقد غشيننا ظلمة بعد موته
فياخسر من ضم الجوانح والحشا
كأن أسود الناس بعدك ضمنت
وضاق قضاة الأرض عنا برحبه
فقد نزلت بالمسلمين مصيبة
كصدع الصفا لاشعب للصدع في الصفا (٢)

(١) ص ٨ ديوان الإمام علي ، تحقيق الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي
طبع : دار ابن زيدون ببيروت .

(٢) الصدع : الشق . الصفا : حجارة ملساء قوية . الشعب : الالتحام
والضم والجمع .

في مرثية للرسول صلى الله عليه وسلم يوضح على بن أبي طالب عظم المصيبة وهول الفجيرة التي حدثت للمسلمين بموته صلى الله عليه وسلم، ثم يعدد رضى الله عنه بعض صفاته صلى الله عليه وسلم فكان صلى الله عليه وسلم الحصن الحصين للإسلام والمسلمين والمعقل الذى يحتوى به وكان النور الذى يضىء والهدى الهادى للمضالين. ثم يوضح الإمام على حالة المسلمين بعد فقدته صلى الله عليه وسلم حيث عاشوا فى ظلام بعد موته صلى الله عليه وسلم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وأصبحت الأمور غير مستقرة فكان صلى الله عليه وسلم النور المضىء والمرج للكروب والمثبت للقلوب والأقنعة .

هذا وقد رثى الرسول صلى الله عليه وسلم بمراث كثيرة عديدة من كثير من الشعراء الآخرين أمثال : كعب بن زهير وعبد الله بن رواحة وشعراء آخرين كثيرين .

وإذا كان شعراء العصر الإسلامى قد رثوا نبيهم العظيم صلوات الله وسلامه عليه فإنهم كذلك رثوا خلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم ويكروهم وأزرقوا عليهم الدموع وأشادوا بفضائلهم، من ذلك قول حسان بن ثابت يرثى أبا بكر الصديق : (١)

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة
خير البرية أتقاها وأعدلها

والثانى الصادق المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا
عاش حميداً لأمر الله متبعاً يهدى صاحبه الماضى وما انتقلا

يرثى حسان أبا بكر رضى الله عنه فيذكر فضائله ويعدد مناقبه فهو خير الخلق وأعدلهم وأوفاهم بعد النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه عاش متبعاً لأمر الله تعالى وهدى نبيه طيلة حياته .

(١) ص ٢١١ - ٢١٢ ديوان حسان بن ثابت .

ويلاحظ على الأبيات تأثرها بالإسلام تأثيراً واضحاً في الأفكار والمعاني، فأبو بكر كان تقياً عادلاً متبعاً لأوامر الله وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم، والمرثية تأبين لأبي بكر وسرد لمميزاته وصفاته وتعداد لفضائله وسماته .

كذلك رثى الشعراء الإسلاميون ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضی الله عنه ويكوا عليه وعدادوا مناقبه وفضائله، وقد كان لموت عمر بن الخطاب رضی الله عنه وقع خاص يختلف عن موت أبي بكر الصديق رضی الله تعالى عنهما لأنه مات مقتولاً بطعنة أئمة سددها إليه أبو لؤلؤة المجوسي وهو يصلى في المحراب . يرثى حسان بن ثابت عمر بن الخطاب رضی الله تعالى عنه بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة بن شعبه وهو يصلى بالناس إماماً فيقول :

فجعنا فيروز لادردهُ بيأ بيض يتلو المحكمات منيب
رعوف على الأذنَى غليظ على العدا أخص ثقة في النائبات نجيب
حتى ما يقل لا يكذب القول فعله سرىح إلى الخيرات غير قطوب
مطيع لأمر الله بالحق عارف بعيد الأنام عنده كقريب (١)

نرى الشاعر في رثائه عمر بن الخطاب رضی الله عنه يبين عظم المصيبة التي حلت بفقدته ثم أخذ يحدد صفاته وفضائله وكلها صفات وفضائل إسلامية دعا إليها الإسلام وحض عليها : فهو رعوف على الأذنَى غليظ على العدا كما قال الله تعالى في صفات المؤمنين - أشداء على الكفار رحماء بينهم - (٢) وأنه يصدق القول، يسرع إلى الخيرات مطيع لأوامر الله يعرف الحق ويعدل بين الناس جميعاً .

(١) ص ٢١٢ ديوان حسان بن ثابت .

(٢) الآية : ٢٩ سورة الفتح .

وقالت عاتكة بنت زيد تربيته وكان قد تزوجها رضى الله عنه
وهو ابن عم أبيها زيد بن عمرو بن نفيل : (١)
عين جودى بعيرة ونحيب لاقلسى على الإمام النجيب
فجعتنا المنون بالفارس المع لم يسوم الهياج والتليب
عصمة الله والمعين على الدهر سر غياث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب

تدعو عاتكة عينيها أن تجودا بالدمع على عمر رضى الله
تعالى الله وتندبه وتنعاه وتوضح بعض صفاته ومجراته، فهو
الفارس المغوار فى الحرب وهو عصمة الله والمعين على نوابه الدهر.
ويقول جزء بن ضرار يرثى عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (٢)
جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله فى ذلك الأديم المسزق
فمن يسمى أو يركب جناحى نعامه ليدرك ما حاولت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائسقى فى أكمامها لم تفتسق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكفى سنبتى أزرق العيد مطرق (٣)
أبيات جيدة رائعة فى رثاء عمر رضى الله عنه بيتدتها الشاعر
بالدعاء له أن يجزيه الله خير الجزاء وأن يبارك الله فى جلده الممزق
الذى مزقه الكلب المجوسى أبو لؤلؤة - ثم يوضح الشاعر فضل
الخليفة المقتول فى حسن سياسة المسلمين ويرى أنه لم يتعلق به أو
يصل إلى درجته فى ذلك أى شخص حتى لو ركب جناحى نعامه
فإنه سيبقى مسبوقاً فإنه رضى الله عنه لم يسبقه فى ذلك سابق ولم
يتعلق بأطرافه لاحق، ثم يتوجه الشاعر إليه بالخطاب معلناً أن

(١) ص ١٩٢٠ مجريد الأغاني . القسم الثانى الجزء الثانى .
(٢) ص ١٣٣ ج ١ طبقات فحول الشعراء . لابن سلام ، شرح / محمود
محمد شاكر طبع : مطبعة المدنى .
(٣) السنبتى : النمر وهو لثيم خبيث الطبع .

الخليفة الشهيد قد قدر الأمور وأحكمها بحسن وأبه وصواب عقله وترك خلفه غوائل عظماً لاتزال في أكامها لم تظهر وتضح .
وقد صدق الشاعر في قوله فقد ترك عمر بن الخطاب الدنيا وغادرها وترك بعده أكاماً تفتقت عن أعظم الدواهي والبيوتق، ثم يذكر الشاعر أنه ما كان يظن أن تكون نهاية هذا الخليفة العظيم على يد لثيم جيان غادر كأبي لؤلؤة اللثيم الدليل صاحب الغدر والغبلة .
وهكذا صور الشاعر عظم المصيبة بصورة جديدة لم يألفها الشعراء الجاهليون حيث دعا الشاعر الله له بأن يعمه برحمته ويظله بظله ولم يدع لقبه بأن تسقيه السحب كما يدعو شعراء الجاهلية .
وإن كان يلاحظ عليه استخدامه لبعض الألفاظ المعجمية الغامضة إلا أن للشاعر عذره في ذلك فقد كان شاعراً مخضراً عاش عيشة الجاهليين قبل الإسلام .

كذلك رثى الشعراء الإسلاميون عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد أصابه ما أصاب سابقه عمر بن الخطاب حيث قتل على يد طائفة وهو يقرأ كتاب الله تعالى، فمن ذلك قول حسان بن ثابت يرثيه: (١)
إن نُس دار بنى عثمان خاوية باب صريع وساب محسرق خسرب
فقد يصادف باغى الخير حاجته فيها ويأوى إليها العرف والحسب
بأيها الناس أبدوا ذات أنسكم لا يستوى الصدق عند الله والكذب
إلا تنيبوا الأمر الله تعترفوا كتاباً عصبا من خلفها عصب
فيهم حبيب شهاب الحرب يقدمهم مستلثماً قد بدا في وجهه الغضب
يرثى حسان بن ثابت عثمان بن عفان رضى الله تعالى ويصور
الفجيعة ويصف داره التي قتل فيها ثم يقرع حسان أولئك الذي
اغتالوه. ثم نراه كذلك يقرع أولئك الذين قتلوا عثمان وتركوا الجهاد
في سبيل الله وأخذ بعضهم ينحر بعضاً ثم يطلب من نفسه أن تبكى

(١) ص ٢١٢ ديوان حسان بن ثابت .

على الخليفة المقتول لصوره وماقدمه للإسلام والمسلمين، وقد استقر فى "بقيع الفرقد" وهو المكان الذى دُفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: (١)

أتركتكم غزوا الدروب وجنتم
فلبئس هدى الصالحين هديتم
وكان أصحاب النبى عشية
فابكوا أبا عمر ويحسن بلائه
لقتال قوم عند قبر محمد
ولبئس فعل الجاهل المتعمد
بىدن تنحسر عند باب المسجد
أمسى مقيماً فى بقيع الفرقد

وقد رثى الشاعر الخليفة بأشعار أخرى يلوم فيها الأنصار الذين كانوا بجواره وتقاعسوا عن نصرته (٢) كما نراه يرثيه بأشعار يتخذ فيها موقفاً محدداً من الفتنة بعد مقتل عثمان رضى الله تعالى عنه حيث نراه يحض على القصاص من قتلة عثمان ويقف جنباً إلى جنب مع هؤلاء الذين يطالبون بأخذ الثأر من قتلة عثمان رضى الله عنه (٣).

ويقول أمين بن حازم يرثيه أيضاً ويهاجم هؤلاء القتلة ويهجوهم ويدعو الله عليهم فيقول: (٤)

ضحوا بثمان فى الشهر الحرام ضحى
إن الذين تولى قتلها سفها
مساذا أرادوا أضل الله سعيهم
بسفحهم للدم الزاكي الذى سفحوا
ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه أرسل على بن أبى طالب كرم الله وجهه فأخذ ما كان فى داره وإبلاً من إبل الصدقة فقال الوليد بن عقبة أخو عثمان بن عفان يرثيه ويعرض بعلى رضى الله

(١) ص ٢١٦ ديوان حسان بن ثابت

(٢) ينظر ديوان ص ٢١٤ .

(٣) ينظر ديوانه ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٤) ص ٤٩٣ الاستيعاب .

عنه فيقول : (١)

ألا من الليل لاتفور كواكبه إذا غار نجم لاح نجم يراقبه
بنى هاشم ردا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه لا تحمّل مناهبه
بنى هاشم لا تمجلونا فإنسه سواء علينا قاتلاه وسالبه

ومضى الوليد بن عقبة يعرض بالهاشميين ويرى أنهم قتلوا
عثمان كى يكونوا مكانه ثم يهددهم ويتوعددهم .

وبعد مقتل عثمان بن عفان تولى على بن أبي طالب خلافة
المسلمين إلا أنها لم تدم طويلاً فقد قتل كرم الله وجهه بعد مسألة
التحكيم حيث قتله عبد الرحمن بن ملجم غيلة ليلة الجمعة فى
الثالث عشر من شهر رمضان فبكاه كثير من الشعراء بكاءً حاراً
على رأس هؤلاء أبو الأسود الدؤلى حيث يقول فى ذلك حين بلغه أن
معاوية بن أبى سفيان قد أظهر الشماته بقتله :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلاقرت عيون الشامتين
أفى شهر الصيام فجعثموننا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتهم خير من ركب المطايا وخيسها ومن ركب السفينا
ومن ليس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثناسى والمنيسنا
إذا استقبلت وجه أبى حسن رأيت البسدرراق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرها حسباً وديناً

فالمرثية تأبين الخليفة على بن أبى طالب وتعداد لفضائله
ومناقبه. تأبين جديد يختلف عن تأبين الجاهليين حيث يتحدث حديث
المسلمين عن موتاهم لاحديث الجاهليين عن موتاهم يتحدث وعدد
الفضائل الإسلامية التى غرثها الإسلام فى أتباعه فالإمام على هو
خير الناس دنيا ودين. يقرأ القرآن ويرتل آياته وهو الخليفة التقى
الذى سار على طريق الإسلام وشريعته.

(١) ص ٦٤٥ مجريد الأغاني ، القسم الأول .

وهكذا أخذ الشعراء في العصر الإسلامي يرثون الخلفاء الراشدين رثاءً حاراً مؤينين لهم ناديين إياهم بصورة جديدة مختلفة عن صورة الرثاء في العصر الجاهلي حيث تأثروا بالإسلام ومبادئه في رثائهم ويكاتفهم في الشكل والمضمون والمعاني والأفكار والصور.

وإذا كان شعر الرثاء في العصر الإسلامي قد عرف رثاء الأتباء والأزواج والأهل والإخوة والخلفاء وكبار الدولة خاصة رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه قد عرف رثاء قتلى المعارك والغزوات والحروب وتديهم وتأبينهم متأثرين في ذلك بقيم الإسلام ومبادئه (١) فضلاً عن رثاء النفس قبل موتها (٢).

(١) ينظر على سبيل المثال ديوان حسان ص ٣٧٤ وتجريد الأغاني ص ١٥١٦ وطبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٦٣ .
(٢) ينظر ص ٨٩ المنتخب الجزء الرابع .

«شعر الرثاء في العصر الأموي»

بدأ العصر الإسلامي برسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهى بمقتل ابن عمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هذا الخليفة التقى الورع الفقيه الذي لاحقته الفتنة العثمانية وأودت به قتيلاً وهو يؤم المسلمين للصلاة .

ويتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية عام ٤١ من الهجرة النبوية بدأ العصر الأموي الذي ظل يحكم المسلمين أكثر من تسعين عاماً في المشرق حدثت أثناءها تغييرات سياسية وثقافية، فقد تعددت الأحزاب المعارضة وأعلنت ظهورها وتكوينها ورفعت راية العصيان في وجه الأمويين : منهم الحزب الشيعي الذي يرى الخلافة حق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحزب الخوارج الذي يرى الخلافة حقاً عاماً للمسلم الكف، وحزب الزبيرين الذي يرى الخلافة حق آل الزبير، والحزب الأموي الحاكم الذي يرى الخلافة حقه دون سواه عن بقية الأحزاب الأخرى المعارضة وكان لكل حزب من الأحزاب شعراء الذين يشبثون حقه ويدافعون عن مبادئه .

وحدثت صراعات وحروب طويلة بين الأحزاب المعارضة وقع خلالها كثير من القتلى من بين صفوف سائر الأحزاب فأخذ الشعراء ييكونهم ويثرونهم رثاءً حاراً نادبين ومؤنين ومعزين . مما فتح المجال واسعاً لشعر الرثاء في هذا العصر، فقد انتشر انتشاراً كبيراً عما كان عليه من قبل في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي ووجد كثير من شعر المراثي السياسية التي تفيض بها كتب الأدب والتاريخ، هذا فضلاً عن شعر الرثاء الاجتماعي الذي نظمته شعراء العصر ويكون فيها الأنبياء والآباء والأمهات والأزواج والزوجات والأخوة والأخوات والأصدقاء والأصحاب، ويندبونهم ويؤنونهم ويرسلون أشعار التعازي إلى أهاليهم .

فالعصر الأموي عرف شعر الرثاء بتوعيه : السياسي الذي نظم في رثاء الخلفاء وقتلى الحروب الحزبية بين الأحزاب المتصارعة وقتلى الحروب التي دارت بين المسلمين وغيرهم في الفتوحات الإسلامية، والاجتماعي الذي نظم في رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء .

فمن شعر الرثاء الاجتماعي في العصر الأموي قول الفرزدق

يرثى ابنه : (١)

أبرأ الحزن أن أسلى بنى وسوذة
وما ابتأى إلا مثل من قد أصابه
ثوى ابنأى في بيتي مقام كلاهما
ومحفوظة لأماء فيهما مهيبة
أناخ إليها ابنأى ضيفى مقامة
إلى أن قال :

وكانوا هم المال الذي لأبيعه
إذا ذكرت أسماهم أو دعوا بها
أراها إذا الأيدي تلاقى غضابها
حيال المنايا مرثا واشتبابها

أخلته عنسى بطسى ذهابها
يفغى بأعواد المنية نابها
إلى عصبية ماتستمار ثباتها
ودرعى إذا ما الحرب هربت كلاها
تكداد حيازيسى تغرى صلابها
المريثة طويلة تبلغ ثلاثين بيتاً كلها نذب ويكاه وعويل وتفجع
على ابنى الشاعر، فالحزن عقيم في قلبه لا يسلوه على فقدهما،
وكيف لا يكون كذلك وقد فجع الشاعر في أعز شىء لديه؟ فجع في
أبنائه فلذة كبده وسويداء قلبه ونور عينيه، وقد أخذ الشاعر يوضح
عظم المصيبة التي لحقت به فهما المال الذي لا يبيعه والدرع الذي
يحميه عند الشدائد وهما كل فكره وعقله وهمه فلن ينساهما حتى
يموت .

يبكى الفرزدق ابنه بكاءً عتيفاً بعاطفة صادقة تملك عليه قلبه
وعقله وجوارحه يبكيهما عن طبع وسجية وكيف لا يبكيهما كذلك
وقد فجع في أعز شىء لديه والمراثى إنما تقال على السجية إذا
فجع الشاعر ببعض أهله والفرزدق فجع في أعز شىء من أهله .

(١) ص ٣٤٨ ج ٢ ديوان الفرزدق، طبعة : دار صادر بيروت .

وقد رثى الفرزدق كذلك أربعة أولاد رزء بهم وفقدهم فى حياته ويكاهم وأذرف عليهم الدمع وندبهم وتفجع عليهم وتوجع من أول الأبيات حتى نهايتها (١).

ومن رثاء الأنبياء فى العصر الأموى ما قاله جرير يرثى ابنه

سواده بمرثية حارة كلها بكاء ووعويل وآهات وآنات فيقول : (٢)

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشباهي

لكن سواده يجلو مقلتى لحم

قد كنت أعرفه منى إذا غلقت

إلا تكن لك بالدبرين معولة

كأأم ببر عجول عند معهده

فارتنتى حين كف الدهر من بصرى

إن الشوى بلى الزيتون فاحتسبى

يرثى جرير ولده وكله حزن وهم من رأسه حتى قدميه ويبكيه

ويتعنى حظه فيه هذا الحظ العاثر الذي حرمه من أعز مخلوق عنده

وقد بين عظم المصيب التى أحلت يفقده خاصة فى هذه الظروف

الحالكة التى فقد الشاعر فيها بصره .

إنها عاطفة الحزن الشديدة من أب نحو ولده وفلذة كبده الذى

رزء به وفقده، عاطفة الحزن الصادقة التى توحى بتقطع قلب الشاعر

وتزقه على ولده .

(١) ينظر ديوانه ص ٢١٩ و ص ٤١٠ ج ١.

(٢) ص ٤٣٠ ديوان جرير / محقق / محمد إسماعيل عبد الله الصاوى، مكتبة الحياة ببيروت .

(٣) يجلو مقلتى لحم : أراد يحلو بمقلتى لحم من جلى البازى ببصره إذا أنسى الصيد فرقع طرفه ورأسه . والمقلة : شحمة العين التى تجمع السواد والبياض .

(٤) البر : ولد الناقة .

هذا ورثاء الأبناء كثير في شعر الرثاء في هذا العصر ويمتاز بأنه الشعر الصادق العاطفة لاشك فيها ولاغرو في ذلك فكيف يشك في عاطفة شاعر يبكي أبناءه وقلدة كبده ؟
كذلك رثى شعراء العصر الأموي الآباء ويكوهم وأزرقوا الدمع عليهم وأبنوهم وذكروا فضائلهم وعددوا مناقبهم، ومن هذا القبيل قول الفرزدق يرثى أباه في مقطوعة قصيرة : (١)
نعم أبو الأضياف في المحل غالب إذا لبس الغادى يديه من البرد
وما كان وقافاً على الضيف محجماً إذا جاء يوماً ولاكابسى الزند
وكسان إذا ما أصدرته مكسارم وساور أخرى غير مجتنب الورد (٢)

الفرزدق يرثى أباه ويؤينه ويعدد فضائله وصفاته ويبرزها ويذكر من أهمها أنه كان كريماً جواداً يغمر الضيوف بكرمه الواسع. ونراه يرثى أباه في أكثر من موضع في ديوانه ويبكيه ويتدبه ويتفجع عليه ويؤينه ويعود فضائله وصفاته وكلها صفات وفضائل إسلامية تأثر بها الشاعر من مبادئ الإسلام (٣).

ومن أبرز موضوعات الرثاء الاجتماعي في العصر الأموي رثاء الإخوة حيث يحتل المرتبة الثانية من حيث الكم بعد رثاء الأبناء.

ومن رثاء الإخوة في هذا العصر قول المار بن سعيد الأسدي يرثى أخاه : (٤)

ألا قاتل الله المقادير والمنسى وطيراً جرت بين السعافات والحير (٥)

(١) ص ١٣٨ ج١ ديوان الفرزدق .
(٢) ساور : واثب . المحتجج : المائل على أحد جنبيه .
(٣) ينظر على سبيل المثال ديوانه ج٢ ص ٦٥ ، ص ١١٥ ، ص ١١٨ .
(٤) ص ١٢٤٣ القسم الأول من مجريد الأغاني .
(٥) السعافات والحير : موضعان .

تذكرنى بدمراً زعمازح لزيه
تذكرت بدمراً بعد ما قبل عارف
إذا خطرته منه على النفس خطرة
أعينى إنسى شاكر «افعلتما
سألتكما أن تسعدانى فجدتما
إذا عصفت إحدى عشياتها الغير
لما نابسه بالهيف نفس على بدر
مرت دمع عيني فاستهل على تحرى
وحسق لما أبلتجانسى بالشكر
عرائين بالشجاء باقية القطر (١)

هذه الأبيات من مرثية طويلة كلها نذب ويكاء وعويل من الشاعر على أخيه الذى قتل فى حرب وقعت بين قومه وقبيلة أخرى، نظمها الشاعر وكله حزن وألم لمصابه فى أخيه وتزخر الأبيات بزفرات الحزن ونيران الجوى، كما تفيض بعاطفة جياشة صادقة إلا أنه يؤخذ على الأبيات حشوها بالألفاظ المعجمية التى تحتاج إلى التوضيح التى تدل فى نفس الوقت على تملك الشاعر من اللغة وتراكيبها .

وإذا كانت الأبيات السابقة نذباً ويكاءً وعويلاً على أخ فقدده الشاعر فإننا نرى الغرزدق يرثى أخاه ويؤينه ويعدد فضائله ويذكر مناقبه فيقول :

أبى الصير أنه لأرى البدر طالماً
شبهين كانا باين ليلى ومن يكن
فتنى كان أهل الملك لا يجبرونه
كان تيمساً لم تصبها مصيبة
ولو شعر الأجيال ومع ويذيل
ولا الشمس إلا ذكرنى بغالب
شبهه ابن ليلى مع ضوء الكواكب
إذا فاد يوماً بين سباب وحاجب
ولا حدشان قبل يوم ابن غالب
لما لا بأعراف الدرى والمناكب

نجد المرثية تعادلاً لفضائل الميت وذكراً لمناقبه وصفاته فالميت كان معروفاً مشهوراً بين قومه بل بين أصحاب الملك، وأنه كان عزيزاً عند قومه وقبيلته .

(١) العرائين : أوائل المطر .

إلا أنه يلاحظ على الأبيات نزعة العصبية القبلية التي ظلت موجودة في العصر الأموي والتي أحيها وعمل على استمرارها الخلفاء الأمويون حتى يشغلوا العرب عن الملك والخلافة، كما يلاحظ عليها استخدام بعض الألفاظ المعجمية البدوية التي تحتاج إلى معاجم اللغة لشرحها وتوضيحها والتي تدل على مقدرة الشاعر اللغوية وقلقه من ناحية اللغة ودرايته الواسعة بتراكيبها وألفاظها.

هذا ورثاء الأخوة كثير في شعر الرثاء الأموي والمجال هنا ليس مجال الإفاضة والاستفراق^(١). ومن أبرز موضوعات شعر الرثاء في العصر الأموي رثاء الأزواج والزوجات، ورثاء الأزواج أو الزوجات يدل على الرثاء والحب العظيم من الزوج لزوجته أو العكس لأنه تعبير عن عظم الشعور ورقته وتعلق قلب أحدهما بالآخر تعلقاً يملك عليه قلبه وعقله وحواسه.

ومن شعر الرثاء في الأزواج ما قالته عاتكة ترثي زوجها الزبير وتصور مقتله فتقول: (٢)

غدرأ بن جرموز بفارس بهمنة	يوم اللقاء وكان غير معرد
يا عسرو لسنوبهته لوجدته	لا طائشا عش أهنان ولا أيد
شلت ميمتك إن قتلت لسلما	حلت عليك عقوبة المتصمد
إن الزبير لذوبلاء صادق	سمح سجيته كريم المشهد
فاذهب فما ظفرت يداك بمثله	قيما مضى بمن يروح ويعتدى

(١) ينظر على سبيل المثال . مجريد الأغاني ص ١٢٤٢ و ص ١٤٧٨ و ص

١٩٠٩ وديوان الفرزدق ص ٢٧٩ ج ١ . وديوان جرير ص ٢٢٢ .

(٢) ص ١٩١٧ مجريد الأغاني في القسم الثاني .

نجد عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل - التي تزوجت كثيراً من الرجال منهم الزبير - ترثى زوجها وتبكي لمقتله على أيد أعوانه وتدعو الله عليهم لأنهم قتلوا مسلماً عمداً ثم أخذت تعدد فضائل زوجها الميت وتذكر مناقبه : حيث كان صاحب بلاء حق وكان سمح الطبع كريم المشهد وأنه لامثيل له على وجه الأرض، ويلاحظ على الأبيات تأثرها بالإسلام وحدوده، فقد حلت على القاتل عقوبة القتل العمد .

ومن رثاء الأزواج مارثت به عاتكة زوجها الإمام الحسين بن على حيث تزوجها فيمن تزوجها من الرجال وكانت أول من رفع حده الكريم من التراب يوم قتله وتأيت بعده فلم تتزوج أحداً، فقالت تنديه وترثيه : (١) .

واحسيناه فلانسيت حسينا أقصدته أسنقاً لأعداء
غادروه بكرى لاصريعاً جادت المسزن فى ذرى كرىلاء
فعاتكة حزينة لما أصاب زوجها سليل الشجرة المحمدية محبة
لزوجها وفيه له حتى أنها لما جاء مروان بن الحكم يخطبها بعد
الحسين رضى الله عنه رفضت وقالت : ماكنت لأتخذ حمأ بعد رسول
الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

ومن أروع شعر الرثاء فى الزوجات مارثى به جرير زوجته خالدة بنت سعد وهى قصيدة طويلة رائعة تعد من عيون الرثاء فى الشعر العربى ولجودتها وروعيتها ناع بها النائحون ويكروا بها على هوالك الفرزدق وسارت أبياتها بين البلاد وذاعت شهرتها شهرة واسعة وفيها يقول : (٣)

(١) ص ١٩٢١ القسم الثانى من مجريد الأغاني و ص ٥٨ ص ١٨ الأغاني .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ص ١٩٩ وما بعدها ديوان جرير .

لسولا الحياء لعادنى استعمار	ولسزت قبرك والحبيب بزار (١)
ولقد نظرت وماقتع نظرة	فى اللحد حيث تمكّن المحفار (٢)
فجزاك ربك فى عشيرك نظرة	وسقى صدائك مجلجل مدرار
ولهمت قلبى إذ علتنى كبرة	وذوو التماس من بنيك صغار (٣)
إلى أن قال :	
نعم القرين وكنت علق مضنة	وأرى بنحف بلية الأحجار (٤)
إلى أن قال :	
صلى الملائكة الذين تخيروا	والصالحون علسك والأبرار (٥)
وعليك من صلوات ربك كلما	نصب الحجيج ملهين وغاروا (٦)
بانظرة لك يوم هاجت عبرة	من أم حسرة بالتميرة دار (٧)
تحسى الروامس ربهما فتجده	بعد الهلى وقتيه الأمطار (٨)
إلى أن قال :	
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا	ليل يكسر عليهم ونهار (٩)

- (١) استعمار : حزن ودمع .
(٢) الأحفار : جمع حفرة والمراد هنا : القبر .
(٣) ولهمت : حيرت من الحزن . كبرة : ضعف
(٤) القرين : الزوج والصديق . العلق : النفيس . المضنة : ما يظن به تعف بلية : مكان قبرها .
(٥) الأبرار : جمع بار وهو الصالح وكثيراً الإحسان .
(٦) نصب : جدو تعب . ملهين : محرمين . غاروا : نزلوا الغور .
(٧) النجدة : جبل .
(٨) الروامس : الرياح . الريح : الدار .
(٩) لا يلبث : لا يهلهم حتى يفرقهم . القرناء : جمع قرين وهو المصاحب .

وهكذا يمضى جرير فى مرثيته الرائعة يرثى زوجته وينديها ويبيكها ويذرف عليها الدمع حزناً وحسرة وألماً، ثم أخذ يعدد فضائلها ويذكر خلالها متأثراً بتعاليم الإسلام ومبادئه فى مرثيته التى تبدو فيها عذوبة نفسه وشجو أئينه وتأثره بآيات القرآن الكريم.

وقد أشاد بها كثير من الأدباء والنقاد ورفعوها منزلة عالية حيث جعلوها من جيد شعر الرثاء فى الأدب العربى كله .
وكما رثى شعراء العصر الأموى الأهل والأقارب وتديروهم وأبنوهم فإنهم كذلك رثوا أنفسهم ويكوها وهم ما يزالون على قيد الحياة، رثوا أنفسهم حينما أحسوا الموت ووصلوا إلى النهاية والمصير المحتوم الذى لا بد منه لكل حى على وجه الأرض .

ومن الشعراء الذين رثوا أنفسهم فى هذا العصر الصمة بن عبد الله القشيري حيث يقول حين حضره الموت فى معسكر المسلمين لغزو الديلم وهو بطبرستان : (١)
تعزّ بـصبر لا وجدك لا تسرى بشام الحمى أخرى اللبالي القواير
كأن فؤادى من تذكرة الحمى وأهل الحمى يهقرون به ريشى طائر
وما زال الشاعر يردد هذين البيتين حتى فاضت روحه كما روى صاحب الأغاني .

ومن رثى نفسه أيضاً مالك بن الربيع حينما أشرف على الموت وأحس بأنه مفارق الحياة قال يرثى نفسه ويبيكها :
أيا صاحبي رحلى دنا الموت فانزلا برابيسة إنسى مقيم ليايسا
وخطا بأطراف الأسننة مضجعى وردا على عيني ففضل رداييا
ولا تحسدانى ببارك الله فيكما على الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

(١) ص ٧١٦ مجريد الأغاني .

لعمرى لئن غالت خراسان هامتسى لقد كنت عن بابى خراسان نائياً
قباليت شعرى هل أبيتن ليلة بجنب الفضى أزجى القلاص التواحيا

وإذا كان شعراء العصر الأموى قد رثوا الأهل والأحباب
والنفس فإنهم كذلك رثوا أصدقائهم وأحبابهم الذين كانت بينهم
علاقات طيبة ودواوين شعراء العصر تزخر بمثل هذا اللون من فن
الرثاء (١).

وإذا كان الشعراء الأمويون قد أكثروا من شعر الرثاء
الاجتماعى بموضوعاته العديدة فإنهم كذلك أكثروا القول من شعر
الرثاء السياسى الذى دعت إليه العقيدة السياسية واستدعته الحاجة
لرثاء رجال السياسة والمملك وكبار رجال الدولة الأموية .
ويعد شعراء الشيعة فى العصر الأموى من أبرع شعراء العصر
وأروعهم وأصدقهم فى رثاء أئمتهم من آل البيت لما للأئمة من منزلة
مقدسة عندهم ولما محوطه العقيدة الشيعية للأئمة من منزلة دينية
رفيعة بل جعلوا الإمامة والاعتراف بالإمام ركناً من أركان الإسلام
بل الركن الركين منه .

وجاء رثاء الشيعة لأئمتهم منجماً باكباً ملتاع الزفرات ملتهب
العبرات لأنه صدر عن حب ووفاء مجاه هؤلاء الأئمة الذين لاقوا من
المأسى والفواجع مالم يحدث لقوم من بنى الإنسان، حيث قتلوا
وصلبوا وذبحوا وسجنوا وشرذوا وفعل بهم مالم يفعله حيوان مفترس
بقرسته .

(١) ينظر على سبيل المثال : ديوان الفرزدق ج١ ص ٨٩ و ص ١٢٢
و ص ١٣١ و ص ٣٨٢ . و ديوان جرير ص ٨٨ و ص ٢١٥ و ص ٤٠١
ومجريد الأغانى ص ١٥٧٩ .

وكان رثاء الشيعة لآل البيت رثاءً حزيناً قائماً يدعو القلوب لتذوب والأكباد لتتمزق والمعقول لتذهب حيرة ودهشة لما أصاب آل البيت النبوي .

وأحياناً كانوا يمزجون بالبكاء بالدعاء . لأخذ الثأر من القتلة الظالمين والنعمة على الفاسق الباغي، فضلاً عن تعداد فضائل آل البيت ومناقبتهم وأحقيتهم للخلافة وأنهم أصحاب الحق الشرعي فيها وقد اغتصبه الأمويون ونصبوا أنفسهم عليها عنوة وظلماً .

ويعد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما أكثر بكاء ورثاءً حاراً من جانب الشعراء . وأكثر تفجعاً وتوجعاً وندباً فقد قتل الحسين قتلة لاتزال ترتعد منها فرائض الدهر وتواتبه حيث ديس بسنابك الحيل حتى تكسرت أعضاؤه وفرك لحمه في التراب وفصلت رأسه عن جسده ورفعت على خشبة وذهب بها إلى يزيد بن معاوية . وقد رثاه الشعراء رثاءً حاراً وأكثروا من ذلك ومنه ما قاله عبيد الله بن الأحمر يرثيه ويدعو لأخذ الثأر من قتلته : (١) .

صحوت وقد صبحوا الصبا والنعاليبا	وقلت لأصحابي : أجيئوا المتاديسا
وقولوا له إذ نام يدعو إلى الهدى	وقبل الدعاء : لبيك لبيك داعيا
ألا وإنع خسر الناس جداً ووالياً	حسيناً لأهل الدين إن كنت ناعيا
وأضحى حسين للرماح درتية	وغودر مسلوباً لدى الطف ثاوريا
إلى أن قال :	
سقى الله قبر اضمن المجد والتقى	بغريبة الطف الغمام الغراديسا
فياأمة تاهت وضلت سفاهة	أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليسا

رثاء حار وبكاء وعويل من الشاعر علي الإمام الحسين ودعوة واضحة للمسلمين أن يهبوا ويأخذوا الثأر من قتلته، ووصف حالته

(١) ص ١١٠ ج ٢ مروج الذهب للمسعودي، المطبعة البهية المصرية طبع عام ١٣٤٦ هـ .

حينما قتل بأرض كربلاء، ودعاء وتضرع إلى الله أن يسقى قبر الإمام المقتول، هذا القبر الذي ضم المجد والتقى بضمه للحسين الشهيد خير الناس جداً ووالداً .

ومن أروع الأبيات التي رثى بها الإمام الحسين مارتته به زوجته "الرباب" تنعاه وتبكيه وتندبه وكلها حزن وحسرة وآلام لما أصاب زوجها، فتقول في ذلك : (١)

إن الذى كان نوراً يستضاء به بكربلاء قتيلاً غير مدفون
سبط النبى جزاك الله صالحاً عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى حيلاً صعباً ألوة به وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من الليتامى ومن اللسانلين ومن يعنى ويسأوى إليه كل مسكين
والله لا أبتقى صهراً بصهركم حتى أغيب بين الرمل والطين

وقد رثى الحسين كثير من شعراء عصره - وليس المجال هنا مجال إفاضة حتى استقصى شعر الرثاء فيه وآل بيته - أمثال : زيد بن علي ومحمد بن عبد الله وغيرهم من أئمة آل البيت النبوى إلا أننى أحب أن أشير إلى أن الإمام الحسين على الأخص "كان ماثراً لقصائد رثائية طويلة وقصص خيالية رائعة فى هذا العصر بل ومختلف العصور الأخرى" (٢).

كذلك يعد رثاء الخوارج فى قتلاهم من أروع شعر الرثاء فى العصر الأموى وأقواه قلباً وقالباً، حيث كان كثيرون يقتلون فى الحروب فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً مازجين نديهم بما ينتظروهم من تعيم الخلد" (٣) وظهرت الروح الدينية ظهوراً واضحاً فى رثائهم

(١) ص ١٧٠-٥ مجريد الأغاني، القسم الثانى .

(٢) ص ٣٠٣ ج ٣ ضحى الإسلام لأحمد أمين، الطبعة العاشرة . مكتبة النهضة المصرية .

(٣) ص ١٨١ العصر الإسلامى، للدكتور شوقى ضيف ، الطبعة التاسعة طبع دار المعارف .

لقتلاهم حيث عمت شعرهم الرثائي كله بل كل ما نظموه من شعر لأنهم كانوا يحاربون عن عقيدة إيمانية قوية ومبدء راسخ لا يلين ولا ينتنى .

ومن شعر الرثاء عندهم قول عمر ان بن حطان (أحد شعراء الخوارج) يرثى أبا بلال مرداس بن أدية الخارجي الذي قتل في معركة نشبت بينهم وبين عبيد الله بن زياد وبقيادة عباد بن علقمة المازني الذي داهم الخوارج أثناء صلاة الجمعة بعد أن هادنهم للصلاة ومال عليهم وهم بين رابع وقائم وساجد وقاعد^(١)، فقتلهم وأتى برأس أبا بلال، وفيه يقول الشاعر :

يا عيسن بكسى لمرداس ومصرعه	يسارب مرداس اجعلنى كسرداس
تركتنى هائماً أبكى لمرزنتسى	فسى منزل موحش من بعد إنناس
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه	مالناس بعدك يامرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولهسا	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلأ	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس ^(٣)

يرثى الشاعر الخارجي أحد قواد الخوارج ويكبيه بكاءً حاراً ويرى أن الدنيا موحشة سيئة بعد مرداس وأنه لا يدوم فيها إنسان فكل حتى لا يد وأن يشرب من كأس الموت لامحالة. وقال يرثيه بمقطوعة أخرى : (٤)

لقد زاد الحياة إلى السى بغضاً وحباً للخروج أبوبلال (٥)

- (١) ص ٢٥٤ ج ٣ الكامل للميرد . محقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته مطبعة نهضة مصر .
(٢) ص ١٥٠ ج ٤ المنتخب من أدب العرب .
(٣) الورد : يقصد به الموت .
(٤) ص ١٤٩ ج ٤ المنتخب من أدب العرب .
(٥) الخروج : الانضمام للخوارج .

- أحاذر أن أسوت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرا العوالى (١)
ولو أنسى علمت بأن حتفى كحتف أبى بلال لم أبال (٢)
فمن يك همه الدنيا فإنسى لها والله رب البيت قالى (٣)

الشاعر فى رثائه لمرداس الخارجى يحسده على هذه الميتة التى ماتها ويتمنى أن ينال الشهادة التى نالها مرداس، بل إنه يخاف أن يموت جباناً على فراشه ويتمنى الموت فى ساحات المعارك، ولو أنه علم أنه سيموت كمرداس لايبالى بشىء لأن همه كله الآخرة ولايرجو الدنيا ولايحبها .

نرى إلى أى حد كان الخوارج يستعذبون الموت ويرون الشهادة حلوة المذاق ويتهافتون على القتال دون خوف أو ميالاه ؟ وكان هذا شأن كل خارجى لأن أخلاقهم قامت على دعامين اثنتين هما : التقوى والشجاعة، وظلوا طيلة حياتهم متمسكين بدينهم محافظين على عبادتهم صوامين قوامين، متمسكين بالقرآن الكريم والعمل بأحكامه والحشية الشديدة من عذاب الله تعالى يوم القيامة. فهم لاينتظرون ثواباً ولاجزاء إلا من الله تعالى فى جنان الخلد كما يقول الضحاك بن قيس فى رثاء بهول الضفرى أحد قواد الخوارج : (٤)
ياعين جردى دموعاً منك تهنانا وإبكى لنا صحبة بانرا وإخوانا
خلو لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوا فى جنان الخلد جيرانا

- (١) ذرا العوالى : ظل الأرماع .
(٢) الحتف : الموت والهلاك .
(٣) قالى : كاره ومبغض .
(٤) ص ٤٦٠ ج ٥ تاريخ الطبرى .

ومن شعر الرثاء السياسي في العصر الأموي ما رثى به رجل
من بني أسد مصعباً ابن الزبير بعد مقتله فيقول : (١)
لعمرك إن الموت منا لموسع بكسل فتسى رجب الذراع أريب
فإن يسك أسد مصعب نال حتفه لقد كان صلب العود غير هيسوب
جميل المحيا يوهن القرن غريه وإن عضه دهر فغير رهوب
أتاه حسام الموت وسط جنوده فطاروا شلالاً واستقى بذنوب (٢)
ولسو صبروا نالوا حياً وكرامة ولكنهم ولسوا بغير قلوب (٣)

يرثي الشاعر مصعباً ويندبه ويؤيته معدداً مناقبه وفضائله :
فقد كان صلب العود جميل المحيا غير رهوب ثم أخذ يصور قتلة
حيث قتل بين جنوده الذين قروا هارين من حوله ولم يصبروا
ويصابروا ويقاتلوا ولو أنهم صبروا لنالوا الجزاء والكرامة .
ومنه أيضاً رثاء جرير للخليفة الأموي الوريح عمر بن عبد
العزیز خير من أناب إلى الله ورعى حقوقه وأقام شرعه وحدوده
وأدى الأمانة العظمى صابراً فحزنت الدنيا كلها لوفاته وبكت
الشمس لموته وغيابه ونجوم الليل لأفوله واحتجابه : (٤)
تنعى النعاة أمير المؤمنين لنا ياخير من حج بيت الله واعتبرا
حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له وقمت فيه بأمر الله ياعمرا (٥)
فالشمس كاسفة ليست بطالعة تبكى عليك نجوم الليل والقمر
فيرثي جرير عمر بن عبد العزيز رثاء تعمه الروح الدينية
ومحملاً بعاطفة صادقة جياشة ومنتزجاً بالخيال والتصوير الرائع :

- (١) ص ١٣١ ج ١٩ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبع دار الكتب المصرية.
(٢) طاروا شلالاً : فروا متفرقين .
(٣) الحيا : جمع حيرة وهي العطية .
(٤) ص ٣٠٤ ديوان جرير .
(٥) نصب عمر على الندبة أي ياعمرا

حيث نرى الشمس تبتكى لفقده ونجوم الليل والقمر يشاركون في البكاء، والشاعر يفضل الخليفة على سائر المسلمين في تقواه وعبادته ويشيد به في حسن تدبير السياسة وإطلاعه بأمرور الرعية بأمر الله وشريعته .

فجرير يرثى الخليفة ويؤينه بمناب إسلامية خالصة إلا أنه لم يقل إلا صدقاً وعدلاً فقد كان عمر بن عبد العزيز ورعاً تقياً زاهداً يخشى الله ويرجو ثوابه رحمه الله تعالى .

كما رثى الفرزدق سليمان بن عبد الملك وأبنه وعدد فضائله ومآثره ويرى أنه ورث النبوة وملأ البلاد بمجهوداته فيقول : (١)

مالمنية لا تزال ملحمة تعدو على وما أطيع قتالها
تسقى الملوك بكأس حشف مرة ولتلبسك إن بقيت حلالها (٢)
أردت أغر من المسوك متوجاً ورث النبوة بدرها وهلالها
أغنى العفاة بتائلر متدق ملأ البلاد دافعاً فأسالها (٣)

فالمرثية رثاء رسمي نرى الشاعر قد اضطرت لنظمها مما أفقدها صدق العاطفة وحرارة الرثاء .

وهكذا عرف الرثاء بتوعيه : الاجتماعي والسياسي في العصر الأموي وتعددت موضوعات الرثاء في ذلك من رثاء : الأبناء والبنات والإخوة والآباء والأزواج والزوجات والأصدقاء والأحباب ورثاء الأئمة من آل البيت والخلفاء وكبار رجال الدولة الأموية وقتلى الحروب والمعارك الداخلية منها والخارجية .

وعرف الرثاء بألوانه الثلاثة : الندب والتأبين والتعزية وقد سادها كلها أو معظمها الروح الدينية وقيم الإسلام ومثله .

(١) ص ٨٣ ج ٢ ديوان الفرزدق .

(٢) جلالها : ثيابها .

(٣) الدواقع : الأثفار .

«الرتاء في العصر العباسي الأول»

بعد شعر الرثاء من أهم الأغراض الشعرية وأبرزها في العصر العباسي الأول، فقد انتشر انتشاراً واسعاً واحتل مرتبة متقدمة بين أغراض الشعر العربي في ذلك العصر، ونشط شعراء العصر نشاطاً ملحوظاً فيه فلم يمت خليفة ولا أمير ولا وزير ولا قائد ولا عالم ولا فقيه إلا وتنافس الشعراء في رثائه وتأبينه وتقديم العزاء لأهله ويرجع ذلك إلى زيادة الاتصال الوثيق بين خلفاء العصر وشعرائه وإغداق الأموال الطائلة عليهم في حياتهم مما جعلهم يشيدون بهم مادحين في حياتهم ورائين مقبزين معزين بعد مماتهم .

فضلاً عن تسابق الشعراء في رثائهم لقتلى المعارك الحربية التي دارت بين المسلمين وغيرهم ورثائهم لتلك المدن الإسلامية التي خربها أهل الكفر والشرك ودمروها تدميراً، فضلاً عن هذا الكم الهائل من شعر الرثاء الذي ذرفه شعراء الشيعة على أئمتهم من آل البيت يصورون فيه مأسيتهم وفواجعهم تصويراً حزيناً باكياً مشيتين أحقيتهم في الخلافة دون غيرهم .

وفضلاً عن هذا الكم الهائل من شعر الرثاء الاجتماعي الذي بعد عن مناصب الدولة والتيارات السياسية فيها، حيث أخذ الشعراء يبيكون أهلهم وأقاربهم وأصدقائهم على اختلاف أعمارهم وقرباتهم، فقد رثوا الأبناء والبنات والآباء والأمهات والأزواج والزوجات والإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والحالات وغيرهم من الأهل والأقارب ورثوا أصدقائهم وكل من اتصل بهم اتصالاً وثيقاً من أبناء الأمة، كما رثوا العبيد والجواري، فضلاً عن رثائهم لأنفسهم قبل مماتهم ورثائهم للحيوانات والطيور والزروع وغيرها مما هو شائع ومنتشر في شعر شعراء العصر .

وبرع كثير من شعراء العصر في فن الرثاء - براغة معدومة
التظير وأصبحت قصائدهم الرثائية أو أصبح بعضها مضرب الأمثال
وسار بها الركبان شرقاً وغرباً، كمرثية ابن الرومي في لده الأوسط
ومرثية دعبل الخزاعي في آل البيت ومرثية أبي تمام في محمد بن
حميد الطوس ومرثية البحتري للمتوكل وغيرها الكثير والكثير مما
تزخر بها دوواين شعراء العصر العباسي الأول .

الفصل الثالث

«الرتاء الاجتماعي في العصر العباسي»

« الرثاء الاجتماعي في الشعر العباسي »

استطيع أن أقسم الرثاء في شعر العصر العباسي الأول إلى :
رثاء سياسي ورثاء اجتماعي، فالرثاء السياسي : هو هذا اللون من
الرثاء الذي يتعلق برجال السياسة في الدولة من خلفاء أو أمراء أو
وزراء أو قواد للجيش أو كبار المسؤولين في الدولة أو يتعلق بعمق
سياسية بشأن الخلافة أو الحكم كرثاء الأئمة من آل البيت .
أما الرثاء الاجتماعي : فهو هذا اللون من الرثاء الذي تحكمه
العلاقات الاجتماعية بعيداً عن شئون السياسة والجهة الرسمية
للدولة كرثاء الأهل والأصدقاء ونحو ذلك .
وإن كانت طبيعة الرثاء تجعله اجتماعياً مهما يكن متصلاً
بفرد من الأفراد لأنه يتحدث عن الحياة والموت وفراق الأبناء والأهل
والأصدقاء والأعلام النابهين وكل ذلك يشترك فيه أفراد
المجتمع^(١) إلا أن النوعين يختلفان في الباعث والداعي فالأول
باعثه سياسي . والثاني باعته اجتماعي يبعد عن السياسة والجهة
الرسمية للدولة .
فضداً عن الاختلاف في الغالب في كيفية الرثاء . وصوره
وصفات المرثي .

والرثاء الاجتماعي يحتل مكانة عظيمة في شعر الرثاء في
ذلك العصر نظراً للترابط الوثيق بين أفراد المجتمع الإسلامي ونظراً
للصحية والصدقة التي كانت تربط بين الشعراء وكثير من أبناء
الأمة العباسية، ونظراً للعلاقة الوثيقة بين الشعراء وأهلهم وذوهم
ونظراً لما طرأ على المجتمع من تقدم حضارى وثقافى وتغيير في
العادات والتقاليد الاجتماعية، فلم يعد رثاء الشعراء لأهلهم دليلاً

(١) ص ١١ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور / د/ شوقي ضيف،
دار المعارف .

على الضعف المناقض للعزة والأنفة والكبرياء التي عرفت عن العرب في عصر الجاهلية، بل أصبح رثاء الشاعر لأهله دليلاً على رفاقة الإحساس والمشاعر ورقة العاطفة والوجدان .
ويضم الرثاء الاجتماعي موضوعات متعددة بين طبقاته فيتناول رثاء الأبناء والبنات ورثاء الآباء والأمهات ورثاء الأزواج والزوجات ورثاء الإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والحالات ورثاء الجوارى والعبيد فضلاً عن رثاء الأدباء والعلماء .
وسوف أتناول بعون الله كل موضوع منها تناوياً منفرداً عن بقية الموضوعات الأخرى بشيء من التفصيل واستيفاء الموضوع بقدر المستطاع .

رثاء الأبناء والبنات :

يعد رثاء الأبناء من أهم موضوعات الرثاء الاجتماعي وأبرز موضوع فيه كما وكيفا حيث يحتل أكثر الصفحات المحزونة من رثاء الأهل والأقارب جميعاً فضلاً عن هذه الحرقه ولهيب الحزن ونيران الألم التي تفوح بها قصائد الرثاء في الأبناء، هذه الحرقه وهذا اللهب اللذان ينبعان من قلب مكلوم حزين تغشاه الحسرة والفجيعه على فراق عضو منه وفضلاً عن صدق العاطفة الموهلة في صدقها حيث تنبع الأشعار في رثاء الأبناء من بين طبقات قلب الشاعر معبرة عن أحاسيس الشاعر بكل الصدق الذي لا يشوبه أدنى شك، وكيف لا يكون ذلك كذلك وقد فجع الشاعر في أغلى شيء لديه إنه كبده وفؤاده ونور عينيه .

إن أصوات الآباء الشعراء قد بحت من البكاء والندب والوعيل مع موت أبنائهم وأفلاذ أكبادهم لأنهم يرون فيهم قطعة من أجسادهم وعضواً من أعضائهم قد بترت بترأ وانتزعت انتزاعاً منهم وأمام عيونهم .

فرثاء الأبناء أبكى وأندب وأفجع الرثاء كله سواء كان هذا الرثاء اجتماعياً أو سياسياً ففيه الأهات الحزينة والألام الدقينة بل هو عصارة نفس خيم عليها الحزن وتمكن منها كل تمكن .
ورثاء الأبناء موضوع شعري تناوله معظم شعراء العصر العباسي الأول إن لم يكونوا كلهم تناولوا رائعاً مبرزين عظم الفجيجة وأهات الحزن والحسرات في تصوير رائع وصور بارعة مع تباين بينهم في عظم الروعة والبراعة .
وسعر موت الأبناء قلوب الشعراء فيكوههم بدموع غزار وأنوا أنيناً حاراً من قلوب جريحة كوتها نار الفراق الملتهبة ومضوا يتأوهون وجدوات الحزن المعض تلذع أفئدتهم لذعاً^(١) واشتهر كثير من شعراء العصر في هذا الرثاء وتزخر بها دواوينهم .

فمن رثاء الأبناء قول بشار يرثى محمداً ابنه ويبكيه بكاءً حاراً فيقول :

أجارتنا لاجمزعسى وأنيبى	أتانى من الموت المظل نصيبى
بنى على قلبى وعينى كأنه	ثوى رهن أحجار وجار قلبى ^(٢)
كأنى غريب بعد موت محمد	وما لمسرت فينا بعسده بغريب
صبرت على خير الفتور وزنته	ولسولا اتقاء الله طال نحيبى ^(٣)
لعسرى لقد دافعت موت محمد	لو أن المنايا ترعسوى لطبيب
وماجزعسى من زائل عم فجعه	ومن ورد آبارى وقصد شعيبى ^(٤)

(١) ص ٢١٦ العصر العباسي الثاني د / شوقى ضيف ، الطبعة الخامسة .

طبع دار المعارف بمصر .

(٢) فى الكلام تقديم وتأخير وأصله : بنى كأنه ثوى على قلبى وعينى .
والقلب : البئر والمراد هنا : القبر .

(٣) الفتور : جمع الفتى .

(٤) الشعيب : مرادة الماء .

يذكرنى نوح الحمام فراقه
ولى كل يوم عبيرة لأفبضها
إلى الله أشكو حاجة قد تقادمت
دعته المنايا فاستجاب لصوتها
أظلم لأحداث المتسورن مروعا
عجبت لإسراع المنية تحو
رزئت بنى حين أورو عوده
وقد كتبت أرجو أن يكون محمد
وكان كريهان العروس بقاؤه
أغر طوبى الساعدين سميدع
غدا سلف منا وهجر رانع
ومانحن إلا كالمخيط الذى مضى
تؤمل عيشاً فى حياة ذميمة
وماخير عيش لايزال مفاجئاً
إذا شئت راعتنى مقيماً وطاعناً

وارنسان أبكار السماء وثيب^(١)
لأحظى بصير أو يحط ذنوب
على حدث فى القلب غير مريب
فله من داع دعا ومجيب
كان فؤادى فى جناح طلوب
وماكان لو مليته بعجيب^(٢)
وألقى على الهم كل قريب^(٣)
لنا كافيأ من فارس وخطيب
ذرى بعد إشراق الفصون وطيب^(٤)
كسيف المحامى هز غير كذوب^(٥)
على أثر الغادين قود جنيب^(٦)
فرائس دهر مخطىء ومصيب^(٧)
أضرت بأيدان لنا وقلوب
بموت نعيم أو فراق حبيب؟
مصارع شبان لى وشيب^(٨)

- (١) الإرنان : الصباح .
- (٢) مليته : تمتعت به .
- (٣) رزئت : أصبت بفقد .
- (٤) بعد إشراق الفصون : ارتفاعها .
- (٥) السميدع : السيد الشريف . كذب السيف : عدم قطعة ما ضرب به .
- (٦) هجر : سار نصف النهار . الرانع : الخارج فى الماء .
- (٧) الفرائس : جمع فريسة وهى التى يفترسها السبع .
- (٨) ص٢٧٨ ج١ ديوان بشار بن برد / تحقيق / الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية بالجزائر .

المرثية طويلة ومن بحر الطويل وقد أثبتتها بأكملها لروعتها
وبراعتها نسجاً وتصويراً ومعانٍ وصوراً شعرية راتقة .
والشاعر يبكي ابنه بقصيدة كلها ندب وحزن وتوجع وتفجع
على هذا الفقيد الذي رزء به ويتحسر عليه ويذرف الدمع أنهاراً .
إنها تصور مأساة حزينة باكية قد حدثت للشاعر وفجع بها على غير
توقع مما جعله يفقد اتزانته ويختل توازنه في الحياة، فهو الأب
الكبير يحس أنه غريب في الحياة بعد فقد ابنه وهو الشاعر المسلم
الذي يؤمن بقضاء الله وقدره يذكر أنه دافع القدر والموت عن ابنه
ويجزع جزعاً شديداً ويبكي بكاءً حاراً مع أن البكاء لن يفيد في
شيء، ثم يأخذ الشاعر في تصوير حالته بعد فقدانه ولده فهو دائم
التذكر له لا ينساه، ويتجلد ويصبر لعل الله تعالى يكفر من خطاياهم،
ثم بعد ذلك يغلب عليه الحزن ويسيطر عليه الأسى فيأخذ في البكاء
والعويل والتعديد ويخبرنا أنه سيظل مروعاً منذ اختطاف الموت
لابنه .

ثم يأخذ في تعداد فضائل ابنه ومناقبه ويرى أنه كان كريحان
العروس وأغر وسيد شريف، ثم يرضى بقضاء الله وقدره ويرى الحياة
لاطعم لها وأن الناس متلاحقون في غمار الموت وأن الموت لن يفلت
من يده شخص شاباً كان أو كهلاً .

إن الأبيات عصارة نفس حزينة فقدت عضواً من أعضائها
فيها البكاء والعويل والآهات والآلام وفيها الأتین والتوجع والحسرة
والتفجع، وفيها العاطفة الصادقة: عاطفة الحزن والحب: الحزن لفقد
ابنه والحب الخالص له، ومع أن بشاراً عاش حياته في اللهو والمجون
ولم تكن نفسه مطبوعة على الحزن إلا أننا نرى أن موت ابنه قد
حرك قلبه وعقله ونفسه وهزهم هزاً .
ومن جيد شعر رثاء الأبناء في العصر العباسي الأول قصيدة
أبي تمام التي رثى فيها ولده فقال :

كان الذى خفت أن يكونا إنما إلى الله راجعونا
أسمى المرجى أبو على موسداً فى الثرى بيننا
حين انتهى واستوى شباباً وحقق الرأى والظنوننا
أصبت فيه وكان عندى على المصيبات أن يعينا
كنت عزيزاً به كثيراً وكنت صياً به ضنيننا
دافعت إلا المنون عنه والمرء لا يدفع المنونا

يصور أبو تمام فى هذا الجزء من المراثية ابنه الذى كان أمام عينيه يراه ويبصره ويخاف عليه من الموت إلا أنه بين عشية وضحاها قد فارقه وغادر الحياة وسكن الثرى بالرغم من مجالدته للموت ومقاومته بكل ما يستطيع إلا أن الموت غالبه وصرعه فرضى بقضاء الله تعالى وقدره فالموت لا يغالبه إنسان مهما كانت قوته لأنه أمر الله الذى أراده وإذا قضى الله أمراً قال له كن فيكون .

ثم أخذ بعد ذلك يصور لحظة الاحتضار وما صاحبها من ضربات الموت فيقول :

آخر عهدى به صريعاً	للموت بالبداء مستكيننا
إذا شكنا غصة وكرباً	لاحظ أو راجع الأئيننا
يدبر فى رجعه لساناً	يمنعه الموت أن يبيننا
يشخص طوراً بناظريه	وتارة يطبق الجفوننا
ثم قضى نجه فأسمى	فى حدث للثرى دفيننا

إنه - وهو الشاعر البارح المصور الذى برع فى تصوير لحظة الاحتضار تصويراً لم يقدر عليه إلا ذو موهبة فذة - استطاع أن يصور لنا لحظة احتضار ابنه وصرع الموت له وهو يسدد إلى ابنه الضربات المتتالية وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاهها ويتألم ويتوجع ويشكو ويفتح عينيه ويطبقها حتى غلبه الموت وفارق الحياة.

ثم أخذ يصور حالته بعد فقد ابنه وبعد أن سكن القبور وبعد
عنه إلى دار بعيدة وألقى بوجهه على التراب وهو الوجه الذي كان
مصوناً طيلة حياته فيقول :

بعيد دار قريب جار	فى حدث للشرى دفيننا
باشر يبرد الشرى بوجه	قد كان من قبله مصوننا
بنسى يا واحد البنينا	غادرتنى مفرداً حزينا
هون رزنى بك الرزايانا	على فى الناس أجمعينا
آليت أنساك ما تجلسى	صبح نهار لمصبحينا
ومادعا طائر هديلا	ورجمت والبسه حنيننا
تصرف الدهرى صروفنا	وعاد لى شانه شتوننا
وحز فى اللحم بسل براه	واحتث من طلحتى فنونا
أصاب منى صميم قلبى	وخفت أن يقطع الوتيننا
فالمرة رهمن بهالتيه	قشدة مرة وليتنا (١)

يصور أبو تمام حالته بعد فقد ابنه فيقول : إن موت ابنه قد
خلف له الأوجاع والهموم والأحزان وأنه سيظل فى فكره وقلبه لن
ينساه مادامت به الحياة، ويرى أن موت ابنه قد أثر فى نفسه تأثيراً
كبيراً ويرى لحمه وجسده بل أصابه نى صميم قلبه ونياط فؤاده إلا
أنه مع كل هذه المصائب وهذه المآسى والنواجع صابر راض بقضاء
الله تعالى فكل نفس ذائقة الموت وقد يهون عليه حزنه بعض الشيء .
أنه يرى الموت كأساً يشرب منه جميع الخلق وسائر البشر .

وهكذا برع أبو تمام فى تصوير الاحتضار وصرع الموت لولده
وقلذة كبده، وبرع فى تصوير حالته بعد موت ولده وفقده، وبرع فى
تأثيره بشعره فى الآخرين حيث استطاع أن يجعلهم يحزنون لحزنه
ويكون ولده ويشاركونه همومه وأوجاعه .

وليس هذا غريباً على أبي تمام وهو الذي برع في شعر الرثاء
براعة معدومة النظير في كل موضوعاته وأنواعه، واستطاع
برثائياته أن يقف في الصف الأول مع شعراء الرثاء المجيدين في
الأدب العربي .

ولعل هذه البراعة وتلك الروعة لرثاء أبي تمام ترجع إلى نظرة
الشاعر للحياة وخبرته بحقيقة الموت ومرضه الطويل الذي عاش به
وكثرة الفواجع التي لحقت أسرته وأهله فقد فقد أبناءه وزوجته
وإخوته وكثيراً من أهل بيته الذين رزء بهم في حياته وشاهد موتهم
وحضر استحضارهم، كما ترجع أيضاً إلى نفسية أبي تمام التي كانت
تحس الموت دائماً في نفسها وأولاده أكثر مما تحس بالحياة .

ويتجلى في مراثية أبي تمام شيوع الروح الإسلامية والإيمان
بقضاء الله وقدره "فكل من عليها فان" و "كل نفس ذائقة الموت" مما
جعله يبعد في قصيدته عن البكاء والصراخ والعيويل الذي اعتاد
عليه معظم الشعراء في رثائهم خاصة لأهلهم وأقاربهم. كما
استطاع أبو تمام أن يجعل مأساته الخاصة "موت ولده" مأساة عامة
حيث أعطانا الإحساس بأن الإنسان مخلوق ضعيف يستطيع الموت
أن يفترسه بين لحظة وأخرى ولا مرد لأمر الله في ذلك .
والقصيدة من مخرج "البيسط" وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلن فعولن مرتين .

وقد صرّح الشاعر - كما هو معروف عنه - في البيت الأول
ثم يعود إلى التصريح ويكرره كلما يقتضى الموقف ذلك التصريح،
كما يلاحظ على الأبيات خلوها من الصناعة والتكلف البديعي الذي
عرف به الشاعر وجاءت الأبيات بلغة سهلة واضحة بعيدة عن
الفلسفة والعمق والغوص وراء المعاني .
وهكذا كان أبو تمام رائعاً في رثائه لابنه بل في رثائه كله
فمراثيه لاتقل عن مدانحه روعة وبراعة .

ومن روائع شعر الرثاء في الأبناء قصيدة "ابن الرومي" الذي يرثى فيها ولده الأوسط "محمدًا" وقد مات منزوقاً وهو لم يزل صبياً فأحس بأن الموت قد اختطفه منه وانتزع منه نياط القلب وغلظة الكبد فراح يبكيه بكاءً حاراً بدموع غزار وكله حزن وألم وحسرة على ما أصابه في ولده ، فيقول :^(١)

فجوداً فقيد أودى نظيركما عندي	بكاؤكما يشقى وإن كان لا يجدي
فباعزة المهدي وباحسرة المهدي	بني الذي أهدته كفتى للشري
من القوم حيات القلوب على عمد ^(٢)	ألا قاتل الله المنايا ورميها
فلله كيف اختار واسطة العقد ^(٣)	توخى حمام الموت أوسط صبيتي
وأنست من أفعاله آية الرشد ^(٤)	على حين شمت الخير من لمحاته
بعيداً على قرب قريباً على بعد ^(٥)	طواه الردى عنى فأضحى مزاره
وأخلفت الآمال ماكان من وعد	لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد	لقد قل بين المهد واللحد ليشه

ففي هذا الجزء من المرثية يتحسر الشاعر ويتوجع لموت ابنه ويسخط على النايا التي رمته بمصائبها في ولده وكأنها أماتته عن عمد وسبق إصرار. هذا الفقيده الذي كان يحيى الأمل في نفس أبيه لما كان يحسه فيه من الخير إلا أن الموت عاجله وداهمه على غرة وباعد بين الأب وولده واستطاع الموت أن ينفذ وعيده لولده أما هو فقد أخلفت الآمال ماكان يرجوه منه .

- (١) ص ٦٢٤ ج٢ ديوان ابن الرومي ، تحقيق / د / حسين نصار طبع : مطبعة دار الكتب . عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- (٢) قاتل الله المنايا : لعنها حيات القلوب : سويداؤه .
- (٣) توخى : تجرأ وقصده عن عمد . واسطة العقد : أعظم جوهرة فيه .
- (٤) شمت توقعت .
- (٥) يريد بالقرب : قرب المكان ، وبالبعد : بعد اللقاء .

ثم أخذ الشاعر بعد ذلك يصور مرضه وحالته قبل موته وبيان أعراض المرض التي صاحبتة فيقول :

- | | |
|----------------------------|-----------------------------------|
| تنفس قبل الرموى ما - حياته | ونجس منه بالعذوية والبرد (١) |
| ألح عليه النزف حتى أحاله | إلى صغرة الجادى عن حمرة الورد (٢) |
| وظل على الأبدى تساقط نفسه | ويذوى كما يذوى القضب من الرند (٣) |
| فبالك من نفس تساقط أنفاساً | تساقط در من نظام بسل عقد (٤) |

الشاعر قلبه محترق على ابنه الذى يراه أمامه وهو فى غرغرة الموت ويوجد بأنفاسه الأخيرة أمام عينيه، ويراه والنزيف المستمر قد قضى عليه وأحاله من حمرة الورد التى كان عليها إلى صغرة الزعفران ثم يصور استمرار مصارعة الموت لابنه حيث جعله يرتعش فى يده وكأنه مقاتل سل سيفه على ولده، ثم يتدب نفسه ويصور أحاسيسه تجاه ما يحدث لولده فكأن نفسه تتساقط من بين جنبه وهو يرى ولده يزيل ويموت أمام عينيه، إنها فجعية ما بعدها فجعية ومصيبة ما بعدها مصيبة حين يرى الإنسان ولده على هذه الشاكلة وهو لم يستطع فعل شئ .

إنه التصوير الرائع والصور البارة التى جاءت بها مخيلة الشاعر وجادت بها براعته فى النفاذ إلى دقائق الأشياء وعمقها . فابن الرومى لا يبارى فى تصويره ولا يجارى فى براعته وروعته .

ثم أخذ بعد ذلك يصور عظم الفجعية وهول المصيبة وشدة وقعها وتأثيرها على قلبه ونفسه، حيث أخذ يتعجب من أن قلبه

- (١) الرى : الارتواء بالما . والمراد : زهرة الشباب .
- (٢) الجادى : الزعفران وهو أصفر .
- (٣) الرند : نوع من الريحان .
- (٤) النظام : الخيط .

لم يتقطع حزناً وكمداً على ولده حتى ولو كان أصلب من الحجر؟
ويتمنى الشاعر أنه لو كان مات قبل ولده ولم ير موته أمام عينيه
وهنا يخرج الشاعر من شدة الصدمة فيفقد صوابه وعقله، ثم يعود
إليهما ويرى أن الله يفعل ما يشاء ويختار ويبدد الموت والبقاء ثم
يعود ثانية إلى فقدان صوابه وعقله فلا يرض بابنه بديلاً حتى ولو
كانت جنة الخلد :

وماسرتسى أن بعته بشوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعاً ولكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من معدى

إنها صيحة حسرة وألم خرجت من أحشاء الشاعر وتباط قلبه
حزناً منه على ولده الذى فقدته أمام عينيه .
ثم يصور ابن الرومى معزة الأبناء ومكانتهم من قلوب آبائهم
وأنهم لا يبدل لهم ولا يسد أحد مكانهم بل لكل ولد مكانته لا يغنى
عنه بقية إخوته فيقول فى تصوير رائع :

وأولادنا مثل الجوارح أهبنا فقدنا كان الفاجع البين القصد
لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه فى جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟

فالأولاد كالأعضاء فى الجسم الواحد لكل منهم مكانته
ومنزلة ولا يغنى عنه غيره كما لا يغنى السمع عن البصر والبصر عن
السمع فلكل وظيفته ومكانته .
ثم يأخذ الشاعر بعد ذلك فى بكاء ولده وذرف الدموع عليه بل
يطلب من عينيه أن تغزر الدمع على هذا الحبيب الذى فقدته والذى
هو أغلى من عينيه .

ثم أخذ ينوح ويعدد مثل الشكالى ويصيح بصوت مرتفع
مصوراً شعوره وأحاسيسه بعد موت ابنه وكأنه كان حتماً للاحقيقة،
ثم يوجه الخطاب لولده الفقيد بأنه سيظل يبكيه حتى آخر رمق فيه
وأنه لا يشغله وجود بقية أولاده عنه بل إنهم سيوقدون قلبه ناراً على

نيران كلما رأيهم يلعبون في ملعبه. ثم يعود إلى محبة ولده ويستسقى له الغيث على عادة العرب القدماء :
عليك سلام الله منى محبة ومن كل غيث صادق البرق والرعد
إن مرثية ابن الرومي هذه تعد أروع قصيدة في رثاء الأبناء وأصدقها عاطفة وحزناً وأبرعها تصويراً وصوراً قبلت في هذا العصر. بل تعد من عيون قصائد الرثاء في الأدب العربي كله، وقد أخذت من الشهرة والمدح ما لم تنله قصيدة أخرى وقد تناولها الباحثون والدارسون والتقائم واهتموا بها اهتماماً ملحوظاً لروعيتها وبراعتها في التصوير والأفكار والمعاني بل والأسلوب والألفاظ، فابن الرومي لا يبارى في تصويره وصوره وأفكاره ومعانيه .

ورثاء الأبناء في العصر العباسي الأول جاء أحياناً في قصائد طويلة متمثلاً في النماذج السابقة وأحياناً يأتي في مقطوعات قصيرة يعبر بها الشاعر عن حزنه وألمه دون إطالة، من ذلك رثاء عبد الله ابن أيوب التيمي يرثى ابناً له يسمى "حيان" مات وهو حديث السن فجزع عليه وقال يرثيه : (١)

أودي بحيان مالم يترك الناسا فامنح فؤادك من أحبابك الياسا
لما رمته المنايا إذ قصدن له أصيدن منى سواد القلب والراسا
وإذ يقول لى العواد إذ حضروا لاتأس أبشراً أبسا حيان لاتأس
فبت أرعى مجوم الليل مكنثيا إخاله سنته فى الليل قرطاسا
فرق كبير بين هذه الأبيات والأبيات السابقة فشاعرية الشاعر دون شاعرية ابن الرومي بكثير ولذلك لم يستطع اللحاق بابن الرومي في تصويره أو أفكاره أو معانيه، بل لم يبلغ تصوير ابن الرومي لحزنه وأساه على تباط قلبه في تصويره حزنه وألمه على ولده، فقد استطاع ابن الرومي أن يؤثّر فينا ويهز مشاعرنا وقلوبنا هزاً

(١) ص ٤٥ ج ٢٠ الأغاني .

واستطاع أن يجعلنا نحزن لحزنه ونأس لآسائه فضلاً عن براعته في التصوير .

وقالت جارية ديك الجن ترثي ولدها منه وتكيه فتقول : (١)
بأبى نبتك بالعرا - المفسر وسترت وجهك بالتراب الأعفر
بأبى بذلتك بعد صون للبلبي ورجعت عنك صبرت أو لم أصبر
ولسو كنت أقدر أن أرى أثر البلبي لتركت وجهك ضاحياً لم يقبر

ترثي الأم ولدها التي تفتديه بأبيها وتصور دفنها لابنها حيث سترت وجهه بالتراب الأعفر وقدمته بنفسها للقبر وهي التي عاشت تصونه وحفظه من كل سوء طوال حياته، وتصور معزته عندها ومكانته من قلبها وتتمنى أن تراه دائماً حتى ولو كان ميتاً إلا أن آثار البلبي ستظهر عليه وهي لاتقدر أن تراها .

هذا والأمثلة على ذلك كثيرة من رثاء الأبناء في العصر العباسي الأول ولاستطيع سردها كلها في البحث وإنما ذكرت عدة نماذج منها تصور مدى ماوصل إليه شعراء العصر في رثاء أبنائهم من براعة في التصوير والصور والأفكار والمعاني وروعة في إجادة هذا اللون من الرثاء في هذا العصر .

وإذا كان شعراء العصر العباسي الأول قد رثوا أبنائهم ويكوهم وتذبوهم وتفجعوا عليهم وأظهروا عظم المصيبة والفجعة فيهم وأكثروا من ذلك فإنهم أيضاً قد رثوا بناتهم ويكوهن وتفجعوا عليهن وفي ذلك دليل على مانالته الأئمة من حظ في الرثاء العربي ولم تعد البنت عاراً ومصيبة كما كان ذلك في عصر الجاهلية فقد كرمها الشعراء فرثوها كما رثوا الأبناء وهذا يرجع إلى الأثر العظيم للإسلام ومبادئه التي أعطت للبنت حقها وردت إليها كرامتها ومكانتها في المجتمع .

(١) ص ١٨٧ ج ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن شعر رثاء للينت قول بشار بن برد يرثى ابنته : (١)
يا بنت من لم يكن يهوى بنتها ما كنت إلا خمسة أو ستا
حي ولدت في الحشى وحشى فتت قلبى من جوى فانفتا
لأنت خير من غلام بنتا يصبح سكران ويمسى بهتا
صحيح لم يبلغ بشار في رثائه لابنته ما بلغه في رثائه ابنه من
تحسر وتوجع وتعبير عن شدة الحزن والألم وعاطفة متوهجة وأحزان
ملتزمة إلا أنه قد رثاها وأعلن أنه حزن لفقدها وأثر موتها في أبيها
وجعلته يعترف بمكانتها على الرغم من أنه لم يكن يهوى البنات
كعادة الرجل العربى على الرغم من أنه ليس من العرب .

ومن رثوا بناتهم أيضاً في هذا العصر الشاعر العباسى
المشهور عبد الله بن المعتز حيث يقول في رثائها : (٢)
وغرت من الأحباب غيبت في الثرى وأسقتسه أجفانى بسح وقاطر
فأثرهما لا يبيد وحسرة لقلبى يجنيها بأيدى الخواطر
أيا شعبة النفس التى ليس غيرها سقطت فقد أفردت عودى لكاسر
ويادهر حتى هذه قد فعلتها على مثلها كانت تدور دوائرى
يبكى عبد الله بن المعتز ابنته ويدرف عليها دموعه ويرى أنه
بفقدتها قد أصبح في هم وحسرة يسيطران على قلبه، ثم يصور عظم
المصيبة في فقدتها ويشكو الدهر على فعلته وموت ابنته .
ويلاحظ أن هذه الأبيات أروع تصويراً وأعظم حزناً وأصدق
عاطفة من أبيات بشار في رثاء ابنته .
وكما رثى الشعراء أبناءهم وبناتهم فإنهم أيضاً رثوا أبناء
وبنات أصدقائهم وذويهم وأبنوهم وعددوا فضائلهم ومآثرهم ودعوا

(١) ص ٢٢٤ ج ٣ الأغاني لأبى الفرج الاصفهاني .

(٢) ص ٣٤٣ ج ٢ ديوان عبد الله بن المعتز، تحقيق / د / محمد بدیع
شريف طبع : دار المعارف .

أهلهم إلى التأسى والصبر فكل إنسان مصيره الموت وأن الدنيا دار
متاع زائل ودار فناء لا محالة (١).

وهكذا رثى الشعراء الأبناء والبنات ويكوههم وإن كان رثاء
البنات قليلاً - وأذرفوا عليهم الدمع وندبوهم بكاءً حاراً كله حزن
وآلام وأوجاع وبرعوا في تصوير صورهم وتوضيح عظم المصيبة
والفجيعة التي أحلت بفقد الأبناء فضلاً عن تعداد فضائلهم
وشمائلهم وما كانوا يمثلونه بالنسبة لأبائهم مكانة ومنزلة .

(١) ينظر على سبيل المثال لالمصدر : ص ٣٠ ج ٢ ديوان البحترى و
ص ٨٦ و ص ٨٦ ج ٤ ديوان أبي تمام . و ص ٩٥٢ ج ٣ ديوان ابن
الرومي . و ص ٢٢٣ ج ١٨ الأغاني لأبي الفرج .

رثاء الآباء والأمهات :

يعد رثاء الآباء من الموضوعات الرثائية القديمة التي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، وظل في العصر الإسلامي والأموي إلا أنه كان من الموضوعات المقلدة التي لم تأخذ حقها كبقية الموضوعات الرثائية الأخرى مثل: رثاء الأبناء والإخوة والأصدقاء ، وظل رثاء الآباء على هذه الحالة المقلدة في العصر العباسي الأول فلم يحتل رثاء الآباء حيزاً كبيراً من جملة شعر الرثاء الاجتماعي في العصر العباسي الأول ولعل ذلك يرجع إلى موت الآباء دون أن يراهم الأبناء الشعراء أو موتهم قبل أن يكونوا شعراء قادرين على نظم القريض أو لأسباب أخرى غير ذلك .

المهم أن شعر الرثاء في العصر العباسي الأول احتوى بين طياته رثاء الآباء ويكاثفهم والتفجع عليهم وتديهم ندياً حاراً وتأيينهم وذكر فضائلهم ومناقبهم وشمائلهم وتصوير عظيم المصيبة والفجيعية التي حلت بموتهم إلا أننا لم نجد هذه الحرقرة وهذا الحزن الدفين والآهات الملتهية التي تقطع الأحشاء والأكياد في رثائهم الآباء والتي عهدناها في رثاء الأبناء ، فقد جاء رثاء الآباء خافتاً بعض الشيء في حرارته وعاطفته عن رثاء الأبناء .

ولاضير في ذلك فالأبناء أغلى ما يملك الإنسان وأعز من في الوجود بالنسبة لأبائهم فضلاً عن أنهم يموتون وهم في ريعان شبابهم أو قبل الشباب مما يجعل المصيبة أو هي وأعظم .

ومن شعر رثاء الآباء في العصر قول الشاعر أبي محمد عبيد الله بن يوسف يرثى أباه فيقول :^(١)

تطاول في بغداد ليلى وضافتي نزيلاً جوى بين الحشا والترائب
أناخا على صبرى فخلى مكانه لفقد أب يسر جزيل المواهب

(١) ص ٢٣٨ الأوراق ، للصولي .

أبها جعفر ياخير وأتل كلها
وحاميمهم إن صبحتهم مغيرة
فتسى كان مثل السيف إن هزمه
له شيمة عند المحامسة فظنة
وقدكته عند الندى أريحية
تخال به ليثاً وغيثاً وسنة
إذا يده بليت بقائم سيفة
وليس بساج منه قرن يريده
سلام على قبر تضمن شلوه
بمثل تدى كفيه أو مثل عبرتى

إذا نزلت بالناس إحدى النوائب
عليها المنايا في صدور الكتاب
أتى حده دون الطلى والغوارب
تشيم العدا منها بروق المعاطب
تحكام تسي أمواله كل راغب
من البدر تجلر مسدقات الفياهب
هسوت قسم الأعداء من كل جانب
ولو حل بين الجاريات التواقب
وجادت عليه هاطلات السحاب
عليه فسرواه حياً غير ناضب

يرثى الشاعر أباه ويعلن عن حزنه وأساءه لفقده، هذا الأب
الفقيد الذى أورث الشاعر السهر وعدم الراحة وأورثه الحزن الدفين
بين حشاياه وتراثيه، هذا الأب الذى كان عظيماً فى قبيلته وأهله
شجاعاً مقداماً بحميمهم ويرد عنهم الأعداء إن أصابهم مكروه، هذا
الأب المقاتل الذى أفرغ الأعداء بشجاعته وشدة بأسه، ومع شجاعته
وقوة بأسه يتسم بالندى والأريحية، ثم يسلم الشاعر على قبر أبيه
ويدعوه بالسقيا على عادة الشعراء العرب القدامى .

فالمرثية تقليدية فى صورها ومعانيها وأفكارها، وهى تأبين
للفقيد وتعداد لفضائله ومميزاته وشمائله تسودها عاطفة حزينة صادقة
كلها آسى وتحسر على هذا الأب الفقيد.

ويروى أنه قيل للشاعر حينما رثى أباه بهذه الأبيات :
"وصفت أباك بالشجاعة والقتال وهو كاتب جبار ا فقال : والله
ماوصفته إلا بما فيه ولقد حججت معه سنة فخرج علينا أعراب فما
كان فى القافلة أشجع منه ، قتل فارساً وأسر فارساً ولكنه كان
يكنم هذا ولا يذكره" (١) .

(١) ص ٢٣٨ الأوراق .

ويقول عبد الله بن المعتز يرثى أباه المعتز بالله : (١)
ربُّ حَتَفَ بين أُنثاء الأمل
لو نجح شئ، نجت ضارسة
إلى أن قال يرثى أباه :
أين من يسلم من صرف الردى
وكأننا لا نرى ما قد نرى
إن بالكامل لى ذا حفرة
رعى فوق سرى رخلته
ليديه بنده عجل
ويرى القتل بقا ما ثابتاً
إن يكن خضيه أعداؤه
ولقد خلف منى بعدهم
فرويداً بظلام صبحه
كم أخ لى لم يلد له والدى
ولقد أعجب من ذى يخل
كم يدار الموت من ذى إربة
وملكوك بليت أيديهم
يا مكل العيش فى ديمومة
إن مفتاح الذى تطلبه
فرغ الله من الرزق ومن

وحياة المرء ظل ينتقل
تهجر السهل وتحتل القلل
حكيم الموت علينا فعدل
وخطوب الدهر فينا تتصل
سوف أكيه بأطراف الأمل
عاقداً جهوته فوق جبل
وله فى البطش والسطو مهل
ويرى الموت قبيحاً بالرجل
بدم فالدم حنا ما يهطل
لهم صل أعاد أى صل
فهى الأيام والدهر دول
وابن قريى كان هما ووجل
منع الناس ندها وسأل
عجزات منه عن الموت الحيل
ولقد كانت مطايا للقبيل
يتسع الأمال كالباغى المضل
بيد المقدار قاصبر وانكل
مدة العمر ومن وقت الأجل

هذه الأبيات من قصيدة مقيدة فى "الرمل" يتحسر فيها ابن المعتز لمقتل أبيه الذى قتل وخضب بدمه وتسير خيوط الحزن بين أبياتها متشابكة، فالحزن فيها دفين والألم فيها مسيطر إلا أن الشاعر يتجلد ويتكلف الصبر تكلفاً ويحاول أن يعزى نفسه فأبوه

(١) ص ٣٦٠ ديوان عبد الله بن المعتز الجزء الثانى .

ليس الملك الوحيد الذي اغتاله الموت فكم من ملوك بليت أجسادهم
وأن الموت أمر قدره الله تعالى وهو الذي حدد الأجل .

والشاعر يؤين أباه فيعدد فضائله وشمائله فهو الكريم
الجواد الشجاع القوي، وتفوح من الأبيات ثورة عارمة على هؤلاء
القتلة وأنهم لن يفلتوا من أيد القدر فالأيام دول بين الناس .
والشاعر في رثائه مقلد للأقدمين جرى على سنن من قبله من
الشعراء . اقتداء بهم وأخذاً بسنتهم، فقد ضرب المثل في مرثيته
بالمملوك الأعزة والأمم السالفة، ويظهر فيها التأثير بالروح الإسلامية
والدين الإسلامي الذي يقر أن الأجل والأعمار مقدرة "فإذا جاء
أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" وأن كل العباد مصيرهم
الموت "كل نفس ذائقة الموت" ، ولا يعد رثاء الشاعر لأبيه من قبيل
الرثاء السياسي لأن الدافع للرثاء لم يكن سياسياً فقد رثى أباه
بعيداً عن السياسة .

ومن رثاء الآباء في العصر العباسي الأول مقاله اسحاق بن

إبراهيم الموصلى يرثى أباه بقوله : (١)

و نحن نحسى ريسه ونخاطبه	سلام على القبر الذي لا يجيبنا
محل التصابي قد خلا منه جانب	سبكيه أشرف الملوك إذا رأوا
عليه أمير المؤمنين وصاحبه	ويكيه أهل الظرف طراً كما بكى
عيسون بواكيه وملت نواده (٢)	ولما بسدا لي اليأس منه وأنزفت
إفاضة دمع تستهل سواكيه	وصار شفاء النفس من بعد فقدته
ولليل أخرى ما بدت كواكيه	جعلت على عيني للصبح عبرة

(١) ص ٦٧٢ مجريد الأغاني، القسم الأول .

(٢) أنزفت العيون : فقد ماؤها .

يرثى الشاعر أباه (إبراهيم الموصلى أحد المشهورين بالغناء فى العصر العباسى) ويبكيه بكاءً حاراً وينزف عليه الدمع ليلاً ونهاراً، ويذكر عظم المصيبة فيه حيث خلت مجالس الأتس وأهل الظرف من طربه وغنائه لذلك فهم محزونون يبكون أيضاً معه، بل سيبكيه أمير المؤمنين وحاجبه حيث كانا يستمتعان بغنائه فى مجالسهما .

والشاعر حزين باك لفقد والده وفى مخلص له حيث أخذ العهد على نفسه بأنه سيظل يبكيه حتى آخر عمره، بكاه بعاطفة جياشة صادقة حيث عبرت الأبيات عن مشاعره وأحاسيسه بكل الصدق وكل الوفاء .

ثم قال يرثيه أيضاً على عادة القدماء من طلب السقيا لقبره فيقول :

عليك سلام الله من قبر فاجع وجسادك من نوء السماكين وأبل
هل أنت محى القبر أم أنت سائل وكيف تحيا ترسة وجنادل
أظن كأنى لم تصبى مصيبة وبالصدر من وجد عليك بلايل
وهون عندي فقدته أن شخصه على كل حال بين عينى مائل
يبعث الشاعر التحية لقبر أبيه ويدعو له بالسقيا على عادة الشعراء العرب القدماء ويعبر عن عظم حزنه وألمه لفقدته بعاطفة ملتهبة جياشة .

وإذا كان الشعراء قد رثوا أباهم ويكوههم فإنهم كذلك عزوا أصدقائهم وأصحابهم فى موت آبائهم وطالبتهم بالصبر والسلوان معددين صفات المرثى ومناقبه مشيدين به ومثله التى كان يتحلى بها فى حياته، مصورين عظم الفجعة وهول المصيبة التى حلت بفقدته إلا أن ذلك كان قليلاً (٢) .

(١) ص ٦٧٣ مجريد الأغاني ، القسم الأول .

(٢) ينظر على سبيل المثال : ديوان أبى تمام ص ٤٧ ج ٣ .

كما ورد في شعرهم رثاء الخال - الذي هو بمنزلة الأب -
رثاءً لا يختلف عن رثائهم لأبائهم^(١) .

وإذا كان شعراء العصر العباسي الأول قد يكونوا آباءهم ورثوهم
فإنهم مع ذلك يكون أمهاتهم ورثوهم إلا أن ذلك كان نادراً. فقليل
من شعراء العصر من رثى أمه، ولم يكن مثل ما ذهب إليه الدكتور
على إبراهيم أبو زيد "من أن صورة الأم شغلت الحيز الأكبر من
وجدان الشعراء الذين رثوا أمهاتهم"^(٢)، ولعل السبب في ذلك
يرجع إلى قصور الأبناء في رثاء أمهاتهم تقليداً للعرب في الجاهلية
الذين كانوا لا يؤثرون ذلك. ولاتبلغ مراثي الأمهات ما تبلغه مراثي
الأبناء من حرارة التفجع واشتعال العاطفة ولم نجد هذه الحرقه التي
تنقطع لها الأحشاء وتنمزق لها الأكباد .

ومن رثى أمه من شعراء العصر العباسي الأول الشاعر ابن
الرومي حيث يقول في رثائها :^(٣)

وأيت طويل العمر مثل قصيره	إذا كان مفضاه إلى غاية تزم
تدعه الأوقات وهي بقساؤه	وتفتاله الأوقات وهي له طعم
هو الواهب السلوان والصبر وحده	لذي الرزء والمهدى الشفاء لذي السقم
ظوى الموت أسباب المحاباة بيننا	فلست وإن أظنيت فيك مهتم
رجعنا وأفردتناك غير فريدة	من البسر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدنى أنسى المحل فطالما	عكفت فأنت المحارين في الظلم

(١) ينظر على سبيل المثال : الأوراق للصولي ص ٢٥٢ . وديوان ابن الرومي
ص ١١٣١ ج ٣ .

(٢) ص ٢٩٤ صورة المرأة في الشعر العباسي، الطبعة الأولى، عام ١٩٨٣
طبع : دار المعارف بمصر .

(٣) ص ٤١٧ ج ٢ ديوان ابن الرومي .

يرثى ابن الرومي أمه فلاجهد بكاءً ولاندياً ولاسكباً للدموع
مثل مايكى وندب وسكب الدموع أنهاراً على ولده الأوسط "محمد"
(وهى القصيدة التى مرت فى رثاء الأبناء) بل نجد عزاءً من الشاعر
لنفسه فهو يذكر : أن العمر مهما كان طويلاً فهو كالتصير
نهايتهما واحدة وهى الموت، وأن الله تعالى هو الذى يهب الصبر
والسلوان لأهل المصائب والرزايا، وأن الحياة تنهب من الإنسان دون
أن يدري فهى تفتاله حينما تريد .

ثم يذكر الشاعر أنه ترك أمه وحيدة فى قبرها يؤنسها عملها
الصالح الذى قدمته فى حياتها، وأنها كانت فى حياتها معتكفة
للناس وفى قبرها معتكفة كذلك .
كل ذلك يسوقه الشاعر دون حرارة عاطفة أو لهيب حزن
ونيران فجيعة، بأسلوب يغلب عليه الفكر والمنطق والفلسفة، فشتان
بين رثاء الشاعر لولده ورثائه لأمه تصويراً وبراعة وروعة وأفكاراً
ومعان وعاطفة بل وصياغة فنية محكمة .

وكما رثى ابن الرومي أمه رثى أم غيره^(١) وعزى أهلها فيها
وأبنائها. كما رثى خالته - التى هى بمنزلة أمه - رثاء. كله فكر
وفلسفة ودعوة إلى الصبر والسلوان فالموت كأس يشربه الجميع^(٢) .
ومن الشعراء الذين رثوا أمهات غيرهم: الشاعر البحرى فقد
رثى أم المتوكل وكانت تدعى "السيدة" وكانت أم ولد صالحة تقية
كثيرة الصدقات والمعروف، فقال فى رثائها: ^(٣)

(١) ص ٣٧٤ ج١ ديوان ابن الرومي .

(٢) ص ٥٤٠ ج١ ديوان ابن الرومي .

(٣) ص ١٨٨٣ ج٣ ديوان البحرى، تحقيق / حسن كامل الصيرفى،
الطبعة الثالثة، دار المعارف .

غروب دمع من الأجنان تنهمل
وليس يطفىء نار الحزن إذ وقدت
إن لسج حزن فلا بدع ولا عجب
عمرى لقد فدح الخطب الذى طرقت
لله أى يد بان الخمام بها
سيدة الناس حقاً بعد سيدهم
جرى لها قدر حتم فحل بها
فكسل عيسن لها من عيرة درر
عم اليكاه عليها والمصائب بها
فالشرق والغرب مغموران من أسف
مشوية الله مما فارقت عوض

وحرقة بغليل الحزن تشتعل
على الجوانح إلا الواكف الخضل
أو قل صير فلالوم ولا عذل
به الليالى وجلل الحادث الجلل
منا وأية نفس غالها الأجل
ومن لها المائترات السبق الأول
مكروهة وقضا موشك عجل
وكل قلب له من حسرة شغل
كما يعم سحاب الديسة الهطل
باق لفقدانها، والسهل والجبل
وجنة الخلد مما خلفت بدل

يعزى الباحثرى المتوكل فى موت أمه ويعبر عن حزنه وألمه لما
أصاب المتوكل، ثم يذكر عظم المصيبة ويوضح هول الفجيرة التى
حلت بفقدانها، ثم يعدد صفاتها وشمائلها ويذكر مناقبها ومحاسنها
فهى : سيدة الناس، صاحبة الأعمال الجليلة، ثم يعزى الشاعر
المتوكل فيذكر أنه سيعرضه الله بها جنة الخلد .
وهكذا ورد رثاء الأمهات فى شعر الرثاء فى العصر العباسى
قليلاً ونادراً للسبب الذى ذكرته فى بدء الكلام عنه، ولأنه أشد
الرثاء صعوبة على الشاعر لضيق الكلام فيه وقلة الصفات " كما
يقول صاحب كتاب العمدة " (١) .

رثاء الأخوة :

يعد رثاء الإخوة من الموضوعات القديمة فى شعر الرثاء فى
الأدب العربى منذ العصر الجاهلى، حيث راح الشعراء يتدبون
إخوتهم ويكوتهم بكاءً حاراً موجعاً، بل إن تدب الأبناء والأخوة

(١) ص ١٥٤ ج ٢ العمدة لابن رشيق .

يحتل الجزء الأكبر من رثاء الأهل والأقارب وأوجهه ألماً وحسرة وأغزره سفكاً للدموع والعبيرات وأفرطه نحيباً وشجواً ونواحاً وأصدقه عاطفة وأحزنه شعوراً وإحساساً .

فرثاء الإخوة لا يقل توجعاً ولوعة ولهيبةً ونيراناً موقدة في الأحشاء عن رثاء الأبناء وذلك لما للأخ من مكانة عظيمة عند أخيه فهو - كعادة العرب - ساعده الأيمن ومعينه على حوادث الدهر ومصائب الأيام فضلاً عن هذا الدم الواحد الذي يجري في عروق الأخ وإخوته فضلاً عن النشأة معاً منذ الصغر في أسرة واحدة مع أب واحد وأم واحدة فضلاً عن العادات والتقاليد العربية الموروثة التي تنزل الأخ من أخيه منزلة عظيمة، فضلاً عن المبادئ الإسلامية التي تعظم الأخوة وترفع من شأنها .

كل هذا كان وراء هذا الكم الكبير من رثاء الإخوة في العصر العباسي الأول حيث راح الشعراء يرثون إخوتهم ويكفونهم بكاءً حاراً ويزرفون عليهم الدمع أنهاراً وكلهم مشاعر ملتبهة وأحاسيس متوهجة ونيراناً موقدة تخرج من أفئدتهم وأحشائهم لموت إخوتهم وقدمهم، راحوا يبكونهم ويرثونهم عن طبع وعن سجية، والمرأى إنما تقال على السجية إذا فجع الشاعر ببعض أهله. والأخوة من أعز الأهل وأعظمهم مكانة لدى إخوتهم لذا جاءت أشعار الرثاء في الإخوة أشعاراً كلها دموع وزفرات، وآلام وآهت، وأحزان، وحسرات، أشعاراً تابعة من أعماق المشاعر وصميم القلوب بكل الصدق والوفاء والولاء الذي لا يعرف الزيف أو التصنع .

ومن شعر الرثاء في الإخوة قول أبي تمام يرثي أخاه: (١)

إنسى أظن البلسى لو كان يفهمه صد البلى عن بقايا وجهه الحسن
ياموته لم تدع طرفاً ولا أدباً إلا حكمت به للحد والكفن

(١) ص ١٤٦ ج ٤ ديوان أبي تمام .

لله الحماظة والموت يكسرهما كأن أجفانه سكرى من الوسن
يسرد أنفاسه كرهاً وتعطفها يد المنية عطف الريح للغصن
ياهول ما أبصرت عيني وما سمعت أذنى ، فلا تقيت عيني ولا أذنى
لم يبق من بدنى جزء علمت به إلا وقد حله جزء من الحزن
كان اللحاق به أولى وأحسن بسى من أن أعيش سقيم الروح والبدن

يبكى الشاعر أخاه وقد حضر ساعة احتضاره ويصور ببراعة ودقة كيفية الاحتضار وصراع الموت لأخيه أمام عينيه، إنه رأى أخاه فريسة للموت، حينما هجم عليه ورأى أخاه والموت يكسر الحماظة وينتزع أنفاسه كرهاً وغضباً، إنها مصيبة ما بعدها مصيبة ومنظر يفزع الإنسان ويقطع قلبه ألماً وحسرة وهماً وكمداً حتى يتمنى الشاعر أن يلحق بأخيه ويموت مثله أولى وأحسن من أن يعيش وتعاوده هذه الذكرى الحزينة وهذا المنظر البشع الذي رآه من احتضار أخيه .

الشاعر مصور بارع استطاع أن يصور المصيبة تصويراً دقيقاً وينقل إلينا الصورة نقلاً حياً بكل ما فيها من جزع وآلام وأحزان واستطاع أن يؤثر فينا تأثيراً عظيماً حيث جعلنا نحزن لحزنه ونأسى لأساه ونتوجع لوجعه بل نبكى بكاءً حاراً ونزرف الدمع أنهاراً من هذه المأساة التي لن يفلت منها كائن حي .

فأبو تمام حينما رثا أخاه رثاه وكله مشاعر ملتتهبة ونيران متوهجة رثاه بكل الصدق والوفاء ويكاه بكاءً ينزف معه دمعاً ودمعاً، فالحزن يخيم على الأبيات والحزن يقطع فؤاده ويذيبه ويفتته .

وأبو تمام في أبياته يبكى حقاً ولا يتباكى ويذرف الدموع أنهاراً على أخيه بعاطفة صادقة جياشة واستطاع بمقدرته الفائقة أن يصور هذه المأساة التي تصيب الإنسان تصويراً دقيقاً، تصويراً يترك الأثر العميق في النفس والفكر والقلب معاً .

ويقول محمد بن أبي عينية بن المهلب بن أبي صفرة يرثى أخاه
"داود" وقد مات في طريقه إليه : (١)

على داود رهنا في ضريح	أناتحة الحمام قفى فنوحى
به الأيام للسوت المريح	لدى الأجيال من همذان راحت
فتبكيه بمنهل سفوح	ولم يشهد جنازته البواكى
جواداً بالقبوق وبالصبوح	وكونى مثله إذ كان حياً
عليه فليس بالرجل الشحيح	أناتحة الحمام فلانشحى
ولاقيها بمغمار طروح	ولايمعمر مالا لدينا
ثمين من عواقبه ربيع	يبيع كثير ماقيها بياق
لباب الخالص المحض الصريح	ومن آل المهلب فى لباب
وأهداف المرائى والمديح	هو أبناء آخرة ودينا

نرى الشاعر يبكى أخاه وينوح عليه ويطلب البكاء من
الناتحات على أخيه، ويصور موت أخيه الذى لم تشهد جنازته
البواكى حتى يبكونه ويزرقون عليه الدموع، ثم أخذ يعدد فضائل
أخيه ومناقبه ويصف المصيبة وصفاً يمتزج بالأسى والشجن، فأخوه
كان كريماً جواداً لم يعاب بالدنيا ولم يعمل لها بل كان كل همه
الآخرة، حيث باع الدنيا واشترى الآخرة لأنها هى الباقية وهو هنا
متأثر بتعاليم الإسلام ومبادئه حيث رغب الدين الإسلامى فى العمل
الصالح وتفضيل الآخرة الباقية على الدنيا الفانية .

وإذا وازنا بين هذه الأبيات والأبيات السابقة لوجدنا
فرقاً كبيراً بينهما، فأبو تمام كان يبكى ولايتبأكى ولايطلب البكاء
لأخيه من أحد بخلاف ابن أبي عينية الذى طلب البكاء لأخيه من
البواكى، وأبو تمام يصور المصيبة ويصف الفجاعة تصويراً ووصفاً
ينم عن شاعرية فنان أصيل قد خبر سبل الرثاء وطرقه، واستطاع أن

(١) ص ١٠٢ الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني .

يؤثر فينا تأثيراً عظيماً حيث جعل من المصيبة الخاصة مصيبة عامة لكل البشر بخلاف ابن أبي عينية، إلا أننا نلاحظ صدق العاطفة تسود النموذجين وتسيطر عليهما وإن كنا نرى عظم الحرارة وتوجهها تبدو أوضح في أبيات أبي تمام .

ويقول أشجع السلمى يرثى أخاه ويبكيه ويصور عظم مصيبتة

فيه فيقول : (١)

فغير بعيد كل ماكان أتيا	خيلسى لا تستيمدا ما انتظرنا
وضوء النهار كيف يطوى الليالي	ألا تريان الليل يطوى نهاره
شبيبة يوم عاد آخر ناشيا (٢)	هما الفتيان المرديان إذا انتضت
أراه إذا فارقت لهوا برانبا	ويعتنى من لذة العيش أنسى
أخى وشقيقسى فارقتها شماليا	كان يينسى يوم فارقت أحمداً

الشاعر يرثى أخاه ويعلن عن حزنه وألمه إلا أنه راض بقضاء الله تعالى وقدره، فكل إنسان مصيره إلى زوال وهذه طبيعة الكون الذى خلقه الله تعالى عليها، ثم يصور عظم مصيبتة فى أخيه وهول فجيعة فيه فيقول : إنه ماذا طعماً للعيش منذ فارقه أخوه وشقيقه أحمد وأحس منذ فقد أنه فقد إحدى يديه وساعديه، فالشاعر حزين متألم لفقد أخيه مصور لعظم المصيبة فيه إلا أنه صابر على المصيبة راض بقضاء الله تعالى وقدره، فكل مافى الكون مصيره إلى فناء .

وقد رثى أشجع السلمى أخاه "أحمد" بأكثر من قصيدة رثاءً حاراً باكياً يصور عظم المصيبة التى أحلت بالشاعر بسبب فقد أخيه

(١) ص ٢٥٣ طبقات الشعراء لابن المعتز ، تحقيق / عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الرابعة، دار المعارف .

(٢) ناشياً : تخفيف : ناشئاً .

معلناً شدة حزنه وألمه وأسفه لفقدته، باكياً عليه بدموع غزار لا ينغذ
دمعها مصوراً مكانة أخيه لديه وما كان يمثله بالنسبة له في حياته
أخذاً العهد على نفسه بأنه سيظل يبكيه حتى آخر الحياة^(١) .
وقال "أبو محمد القاسم بن يوسف" يرثى أخاه "أحمد بن

يوسف" ويبكيه فيقول : (٢)

رماك الدهر بالخطيب الجليل فعز النفس بالصبر الجميل
فإن الدهر بالحدثان رهين وكل سالك قصد السبيل
وإن الدهر لا يبقى عزيزاً ولا تنسى داء من الذليل
عزاءك قد حدا بأخيك حاداً ونسأداً لمنسأدي والرحيل
ومالك بعد أحمد من عزاء ومالك بعد أحمد من ذهول
فكيف عزاء ذي قلب قريح من الفجعات والحزن الطويل
أترجس سلوة وأخوك ثاو ببطن الأرض تحت ثرى مهيل
تبوا منزلاً فى دار قفسر بدرجة السواقى والسيول
رأيت السفر غابوا ثم أبوا وغبت فلا إياب لذي القبول
وبات الركب أو قالوا فراحوا وكسم لك من مبيت أو مقيل
ألا ابك أخاك بالدمع الهمول لعسل الدمع يبرد من غليل
يسروح عنك من كمد ووجد كشكلى تستريح إلى العويل
ومثل أخيك فلتبكى البواكى لمهمة تلبس بالعقول
إلى أن قال :

فتى سهل الخليقة والمحبيا يعان ويحتوى خلق البخيل
إذا استمطرت راحته فدفق سواكها بقيت حيا هطول
على الخالين من يسر وعسر إذا صن الخليل عن الخليل
ثمك للأرامل واليتامى وللجبار الجاور والدخيل
حفى بالأقارب والأراني كفعل الوالد البر الوصول

(١) ينظر على سبيل المثال الأوراق للصولى : ص ١٣٢ و ص ١٣٣ .

(٢) ص ١٨٥ وما بعدها الأوراق للصولى .

يضمهم إلى كنف رحيب ويؤويهم إلى ظل ظليل
ويقبل منهم الحسنى ويعفو عن السوء أى لدى جهل الجهول
هذه الأبيات الكثيرة من مرثية طويلة للشاعر أخذ يبكي فيها
أخاه بكاءً حاراً ويندبه ويتفجع عليه مظهراً حزنه ولوعته وحسرتة
على أخيه الفقيد الذى اختطفه الدهر الذى لا يبقى عزيزاً ولا ذليلاً،
والشاعر يندب أخاه كأنه ثكلى فقدت عزيزاً لديها حيث أخذ ينوح
ويعدد كما تنوح الشكالى وتعدد، يبكي أخاه ويندبه وكله هم وحزن
بل هموم وأحزان صبت عليه صباً من حيث لا يدري ولا يرى، يبكيه
ويندبه معدداً فضائله ومميزاته ومناقبه. وكلها فضائل إسلامية دنا
إليها الإسلام وحض عليها : فهو سهل الطبيعة والمحبيا كريم جواد
فى حالتى اليسر والعسر على السواء، عطف على الأامل
واليتامى والجيران، يحب أهله ويحتفل بهم احتفالاً عظيماً كما يفر
بعطفه الأبعد من الناس، يقبل الحسنى ويعفو عن السيئات، ويحمل
كلهم والثقل عنهم غير ملول ولا سؤوم .

فالرثاء هنا بكاءً وتأبين، وندب وعويل ولوعة وحسرة ووصف
لعظم المصيبة وهول الفجعة وصفاً يمتزج بالشكوى والأجزاء والرضا
بنضاء الله تعالى وقدره وهو متأثر فى أبياته بروح الإسلام وتعاليمه
وقيمه السامية .

ومن شعر رثاء الإخوة فى العصر العباسى الأول مارثى به عبد
الملك بن عبد الرحيم الحارثى أخاه "سعيد بن عبد الرحيم" حيث قال
فيه يندبه ويبكيه : (١)
فما أم خشف أودعته قرارة من الأرض وانساحت لترعى وتهجعا
خليس كلون الأيهقان ابن ليلة أمر قواه أن ينوء فيركعا (٢)

(١) ص ٢٧٧ طبقات الشعراء، لابن المعتز .

(٢) الخليس : الأحمر . الأيهقان : عشب ، وأمر قواه : أقوى قواه .

ويهتز في المشى القريب كأنه قضيب من البان التوى فترعرعا
فظلت بمسنىء الصبا من أمامه تنغم في المرعى إليه ليسمعا (١)
إذا أغفلت نادت وإن ناب نبأة على سمعها تذكره طلاها فترعا (٢)
فخالفها عارى النواحق شاسب أخو قفرة أضحي وأمسى مجوعا (٣)
فأنهل منه بعد عمل ولم يدع للتمسى إلا شريحا مذععا (٤)
فجاء برياء نسيم من الصبا صباحاً ودر حسر ثكلا فأوجعا
هذه الأبيات من تراثية طويلة للشاعر يرثى فيها أخاه رثاءً
حاراً باكياً وواضح أن الأبيات تفيض بالمشاعر الصادقة واللوعة
المتقدمة في قلب الشاعر لفقدته أخاه وتزخر بالحرقه والألم وتفرد في
التحبيب والنواح، وهي بحق مرثاة رائعة يعجز عن مثلها كثير من
الشعراء ولا تصدر إلا من قلب مكلوم موجع وفؤاد مهموم ملتاع، إلا
أننا نرى الشاعر قد جلب لأبياته كثيراً من الألفاظ الغامضة التي
تحتاج إلى معاجم اللغة لينشرها القارىء بين يديه فيعرف معانيها،
وهي مع ذلك تعد من عيون قصائد الرثاء في العصر العباسي
الأول، لروعة صورها ومعانيها وبراعة تصويرها وإحكام صنعتها
وأسلوبها فضلاً عن غذه العاطفة الجياشة الموهلة في الصدق والمعبرة
عن المشاعر والأحاسيس الدفينة .
هذا والأمثلة كثيرة ومتنوعة في شعر العصر العباسي الأول
في رثاء الإخوة من جانب إخوتهم الشعراء الذين رزئوا بهم وأصيبوا
فيهم بموتهم .

- (١) مسنىء الريح : موضع جريها .
(٢) ناب : من نبا بمعنى : صوت صوتاً خفيفاً . النبأة : الصوت ليس
بالشديد . والظلى : ولد الظبي وتربع : تتوقف .
(٣) النواحق : العظام الشاخصة بجوار العين . الشاسب : الضامر اليابس
ويريد : الذئب .
(٤) المزعزع : المبدد المفرق .

وإذا كان كثير من شعراء العصر قد رثوا إخوتهم وبكوا عليهم فإن هناك بعض شاعرات العصر قد رثين إخوتهن وبكين عليهن بكاءً حاراً مصورين عظيم المصيبة وهول الفجعة التي حدثت لهن بموت إخوتهن والأخت أكبر رزاً وأعظم مصيبة في فقدتها لأخيها نظراً لعاطفتها الرقيقة المرفهة ونظراً لما يمثله الأخ من مكانة كبيرة عند أخته، فهو ساعدها الأيمن ومعينها وحاميهما فضلاً عن رباط الدم الذي يجمع بينهما والألفة والعشرة الطويلة التي ألفت بينهما منذ النشأة مع والديهما، والمرأة أكثر إذرافاً للدمع وأعظم حرقة وأشجى تحبباً وعويلاً من الرجل نظراً لفطرتها وطبيعة تكوينها .

ولعل أزوع أبيات قبيلت من أخت في رثاء أخيها في العصر العباسي الأول مارثت به "ليلي بنت طريف" أختها "الوليد بن طريف" (وهو رأس الخوارج وأشدهم بأساً وصولاً أيام "هارون الرشيد" الذي أهمه أمره فوجه إليه يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني" وقاتله حتى ظفر بالخوارج وأخذ رأس "الوليد بن طريف" (١) .

وتقول ليلي في رثاء أخيها : (٢)

بتسل نباتي رسم قبر كأنه	على علم فوق الجبال منيف
تضمن جسوداً حاميهاً ونائلاً	وسورة مقدماً وقلت حصيف
ألا قاتل الله الجشا كيف أضمرت	فتى كان بالمعروف غير عفيف (٣)
فإن يك أدهاء يزيد بن مزيد	فيارب خيل فضها وصفوف
ألا بالقوم للنوائب والسردى	ودهر ملسع بالكروام عتيف
وللبدر من بين الكواكب قد هوى	وللشمس همت بعده بكسوف
فيأشجر الجابور مالك مودقاً	كأنك لم تحزن على ابن طريف

(١) ينظر مجريد الأغاني ص ١٣٧٢ وما بعدها .

(٢) ص ١٣٧٤ - ١٣٧٥ مجريد الأغاني .

(٣) الجشا : جمع جشوة وهي ما يتجمع من حجارة أو تراب .

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المسال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء شطية وكل حصان باليدى عزوف^(١)
فلا تجزعنا يا ابني طريف فإننى أرى الموت وقاعاً بكل شريف
فقدناك فقدان الربيع وليتنا قد بناك من دهانتنا بالسوف

هذه مرثية رائعة من مرثى الشاعرة - ليلى بنت طريق المسماة بالفارعة .. الفارعية المذهب مثل أخيها - لأخيها الوليد بن طريف الذى قتلته جيوش "هارون الرشيد" بقيادة "يزيد بن يزيد" حيث أخذت ترثى أباها وتبكيه بكاءً حاراً وتذرف الدمع عليه أنهاراً مثلماً فعلت الخنساء مع أخويها صخر ومعاية .
تبكى الفارعة أباها وكلها أحزان وأوجاع إلا أنها تبكيه فى شموخ وعزة وأنفة، وهى وإن كانت تبكيه وتندبه فإنها كذلك أظهرت شموخ أخيها وعظمته وعزته وشجاعته، فهو وإن قتل بيد "يزيد بن يزيد" فإنه كثيراً ما قتل الشجعان ويدد الصقوف .
والشاعرة فى رثائها لأخيها تصور عظم الفجعة وهول المصيبة وتعدد صفات المرثى وتذكر فضائله ومناقبه، فهو الجواد المقدم صاحب المعروف والبر والتقوى، والشاعرة من شدة حزنها على أخيها ترى الحزن قد سيطر على الكون وخيم على الوجود، فهى تجزع عندما ترى شجر الخابور مورقاً نضراً فلم لم يحزن على أخيها ؟ ولماذا لم يتساقط أوراقه حزناً وألماً عليه ؟
إنها عاطفة ما بعدها عاطفة، عاطفة الحزن وعاطفة الحب العنيفة معاً عاطفة الحزن على أخيها وعاطفة الحب الشديد لأخيها الذى أحبته بكل ما تملك .

(١) الجرداء: القصيرة الشعر وهو وصف مستحب. الشطية : السبطة اللحم، وقيل : الطويلة . والغروف : التى تغرف الجرى غرقاً فتتهب الأرض نهياً فى سرعتها .

وهناك بعض شاعرات العصر الأخرى ممن يكنى على إختهن^(١) ورثتهم إلا أن الفارعة كانت أروع وأبرع شاعرة في عصرها رثت أخاها حيث رثته بكل مشاعرها وأحاسيسها، مصورة حزنها وعظم مصيبتها تصويراً رائعاً بأسلوب محكم النسيج متين العبارة واضح الألفاظ والعبارة .

وإذا كان شعر العصر العباسي الأول قد عرف رثاء الإخوة وأجاد فيه وأكثر وبرع فإنه قد عرف رثاء غير الأخوة من الأهل كرثاء ابن العم الذي هو بمنزلة الأخ^(٢)، ورثاء إخوة الغير^(٣) ، ورثاء غيرهم من الأهل والأقارب .^(٤)

وهكذا كان رثاء الإخوة من أكثر موضوعات الرثاء في العصر العباسي الأول وأروعها ندباً وبكاءً وأصدقها عاطفةً ولوعة، بل إن رثاء الأبناء والإخوة يستوفى أكثر الصفحات المخزونة من نذب الأهل والأقارب^(٥) .

-
- (١) ينظر على سبيل المثال : تجميد الأغاني ص ٩٦١ . وتزعة الجلساء ص ٣٦ .
(٢) ص ١٣١ ج ٢ . الأغاني . و ص ٢٠٨٩ تجميد الأغاني . و ص ٧٢ ج ٣ المنتخب .
(٣) ينظر ص ٢٥٧ ج ٣ ديوان أبي تمام . و ص ١٢٢٦ ج ٣ ديوان ابن الرومي .
(٤) ينظر ديوان اليعتري ص ١٠٢٩ ج ٢ على سبيل المثال .
(٥) ج ٢٤٤ الرثاء .

رثاء الأزواج والزوجات :

رثاء الأزواج والزوجات موضوع من موضوعات الرثاء القديمة التي عرفها الشعر العربي إلا أنها قليلة لا تبلغ رثاء الأبناء والإخوة ويقتصر كذلك في العصر العباسي الأول وإن أخذ حيناً أكبر مما كان قبل ذلك وربما يرجع السبب في قلة رثاء الأزواج في العصر العباسي الأول حياة النساء الشاعرات من رثاء أزواجهن بعد مماتهن فضلاً عن قلة النساء الشاعرات عن الرجال في العصر.

ويرجع السبب في قلة رثاء الأزواج لأزواجهن في العصر أن رثاء الزوجة لا يصدر إلا عن زوج صادق في حبه لزوجته وفي لها حتى بعد مماتها كما كان وفياً مخلصاً لها وهي معه في الحياة وعصر كالعصر العباسي الأول يقل فيه أمثال هؤلاء الشعراء لطغيان حياة اللهو والمجون والفحش والتهاك والمخالعة خاصة بين الشعراء، ويرجع ذلك إلى أن بعض الشعراء لم يتزوج وقضى حياته ماجناً عابثاً مثل: أبي نواس، وكثير من شعراء العصر العباسي لم يرثوا زوجاتهم لأنهم عاشوا حياة لاهية عابثة متخذين الصواحيب والعشيقات مثل "بشار بن برد" و"البيهقي" ومطيع بن إياس" ومن سلك مسلكهم من شعراء اللهو والمجون فهؤلاء الشعراء الذين ملأوا الدنيا تهتكاً بمجونهم وأشعارهم الفاحشة في الغزل والخمر والعبث لم يتعرضوا لرثاء زوجاتهم ولو بالقليل من الشعر .

ومع ذلك نجد بعض شعراء العصر يرثون زوجاتهم رثاءً حاراً باكيةً : أمثال : "ديك الجن" وابن الزيات "وأبي تمام" وابن الرومي وغيرهم من شعراء العصر العباسي الأول وعلى الجملة فإن الزوجة كانت أكثر النساء رثاءً وبكاءً من جانب الرجال فكان رثاؤها أكثر من رثاء الأمهات والبنات لأن الشاعر كان يرثي فيها حبيبته وصاحبته وأم ولده .

ورثاء الأزواج أقل من رثاء الزوجات في العصر فلم تكن المرأة أكثر وفاءً للرجل منه إليها. ومن رثاء الأزواج قول لباية بنت علي المهدي " ترثي زوجها "الأمين بن الرشيد" حينما قتل قبل أن يدخل بها فقالت ترثيه :

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والرمح والفرس
أبكي على فارس فجعت به أرملتي قبل ليلة العرس
يا فارساً بالعرا مطرحاً خاتته سواده مع الحرس
من لليتامي إذا هم سغبوا وكل عان وكل محتبس؟
أمن لبسراً أمن لفائسدة أمن لذكر الإله والغلس؟ (١)

المراثية بكاء حار وتدب وتحسر على الزوج من زوجته، فهي تزرف الدمع عليه وتتحسر وتتوجع لفقدها زوجها، وتعدد لفقدها حبيبها هذا الحبيب الذي تكيه للمعالي لا للنعيم والأنس، إنها تبكي فارساً فجعت به وأرملها قبل أن يدخل بها، ثم أخذت تعدد فضائل زوجها الفقيد : فقد كان فارساً ويكرم اليتيم ويعين كل محتاج وكان صاحب الأعمال الصالحة دائم ذكر الله .

إن الأبيات تفوح منها نيران الحزن الموجه والحسرة الكبيرة وتخرج منها الأهات والألام التي تعبر عن حزن عميق أصاب الزوجة لفقدها زوجها، إنها عاطفة الحزن الصادقة التي عبرت عن مشاعر الزوجة وأحاسيسها بكل الصدق والوفاء والولاء لزوجها بعد أن واره التراب .

وهذه "بوران بنت الحسن بن سهل" زوجة "المأمون" ترثيه بقولها (٢) :

(١) ص ٧٦ نزهة النساء في أشعار النساء، للسيوطي، محقق / عبد اللطيف عاشور، طبع : مكتبة القرآن بالقاهرة .
(٢) ص ٣٣ نزهة النساء في أشعار النساء .

أسعدانى على البكاء معلنتنا صرت بعد الإمام اللهم قينا
كنت أسطو على الزمان قلما مات صار الزمان يسطو علينا
صرخة بكاء ولظمة حزن تبعثها الزوجة على زوجها بعد أن
فقدته فأورثها الهم والحزن طيلة حياتها .
وهذه فتاة رأت زوجها ميتاً فشبهت ثم أخذت ترثيه وتقول :

ياحسن لو بطل لكنه أجل على الأثاية ماأردى به البطل (١)
ياحسن جمع أحشائي وقلقلها وذاك ياحسن لولا غيره جلل
أضحت فتاة بنسى نهد علائق وبعلمها فوق أيدى القوم يحتمل
ترثى الزوجة زوجها وكلها حزن وحسرة وتعبر عن عظم حزنها
بأن موت زوجها قد هزها وصدمة وأنها لاتستطيع أن تراه وهو
محمول على أيدى الرجال لشواه. إنها عاطفة الحزن الصادقة من
الزوجة لزوجها .

أما رثاء الأزواج لزوجاتهم فهناك نماذج جيدة بكى فيها
الشعراء زوجاتهم بكاءً حاراً مصورين شدة جزعهم وحسرتهم
نحوهن، ومن ذلك رثاء مسلم بن الوليد لزوجته التى جزع عليها
جزعاً شديداً حين ماتت وتنسك بعد موتها مدة طويلة وعزم على
ملازمة ذلك، فأقسم عليه بعض إخوانه ذات يوم أن يزوره ففعل
فأكلوا وقدموا الشراب فامتنع عنه مسلم وأباه وأنشأ يقول : (٢)

بكاء وكأس كيف يتفقان سبيلهما فى القلب مختلفان
دعائى وإفراط البكاء فائنسى أرى اليوم فيه غير ماتريان
دت والشرى أولى بها من وليها إلى منزل نساء لعندك دان
فلاحزن حتى تذرف العين ماها وتعتسف الأحشاء للخفقسان
وكيف بدفع البأس للوجد بعدها وسهماها فى القلب يعتلجان

(١) الأثاية : موضع فى طريق الجحفة بين الروثية والعرج، ص ٢١-٢٠ مجريد
الأغانى. القسم الأول .

(٢) ص ٦٠ - ٦١ ج ١٩ الأغانى طبعة : دار الكتب .

يرثى مسلم بن الوليد زوجته ويعبر عن عظم حزنه وأسائه في هذا الموقف الذي دعى إليه مع صديقه. رثاها ولم يشعر بالخرج أمام صديقه وأعلن حزنه وأسائه صراحة بل أذرف الدمع ولم يترفع مما يدل على صدق الشاعر في رثائه لزوجته وعظم وفائه لها. فالمرثية تعبير عن الحزن والأسى واعتراف صريح بحب الشاعر ووفائه لزوجته حتى بعد وفاتها، إلا أنه لم يذكر فضائلها أو يعدد مناقبها ومثلها واكتفى بالتعبير عن حزنه وحسرتة على زوجته، وهذه الأبيات هي كل ما قاله مسلم في رثاء زوجته، فلم يعثر له على رثاء غيره نظمه في الزوجة. ومن أروع ما رثى به الزوجات وأشجاء وأشدّه تأثيراً في القلب

وإثارة للحزن مرثية "ابن الزيات" في زوجته حيث يقول فيها: (١)
ألا من رأى الطفل المفارق أمه
رأى كل أم وابنها غير أمه
وبت وحيداً في الفراش تحته
ألا إن سجلاً واحداً قد أرقته
فلا تلحياتى إن بكيت فأفنا
وإن مكاناً في الثرى خط لحده
أحق مكاناً بالزيارة والهوى
فهينى عزمت الصبر عنها لأنسى
ضعيف القرى لا يعرف الأجر حسبة
ألا من أمتيه المتسى فأعده
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلس
فلم أر كالأقدار كيف تصيبنى
إلى أن قال :
ألا أن ميتاً لم أزره لشدة ما
ألا أن ميتاً لم أزره لغرما
بعسيد الكرى عيناه يتبدران
بيبتان تحت الليل ينتجيان
بلاسل قلب دائم الخفقان
من الدمع أو سجلين قد شقياني
أداوى بهذا الدمع ماتريان
لمن كان قسى قلبى بكل مكان
فهل أنتما إن عجت منتظران؟
جليد، فمن بالصبر لآين ثمان؟
ولا يأتسى بالناس في الحديشان
لعشرة أيامى وصرف زمانى
وإن غبت عنه حاطنى ورعانى
ولامثل هذا الدهر كيف رمانى
تليس من قلبى به وعنانى
تضمن منه قسى الثرى الكفنان

(١) ص ١٥٦ - ١٥٧ ج ٢ العمدة لابن رشيق الطبعة الرابعة ١٩٧٢
محقق/ محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الجبل بيروت .

فالمرثية بكاء حار وعمويل من الشاعر على زوجته، وهي مرثية تذيب القلب وتفتت الكبد ألماً وحسرة على موت هذه الزوجة التي رحلت وخلفت وراءها طفلاً صغيراً يبحث عنها فلا يجدها فيبكي ليله. والمرثية فيها اللوعة والولع، لوعة الزوج الذي أوشك على الموت حزناً وحسرة على زوجته، ولعه بزوجه التي كان يحبها حباً جماً بل مازال حبها يسكن سويدا قلبه بعد رحيلها عنه .
والشاعر مخلص وفي لزوجته أعلن حزنه وأساء عن طبع وسجية وترك نفسه على طبيعتها معلنة عن عظم مصيبتها وكبر رزئها وفجيعتها حتى انه لم يعد يحتمل أن يزور قبرها، ويرى أنها في قلبه دائماً لن ينساها طيلة حياته فهي مدفونة في القلب لافى القبر .

ونرى الشاعر مجدداً في مرثيته نائياً بها عن التقليد وتكرار مايقوله الشعراء فلم يعد صفاتها أو يذكر شمائلها أو دعى إلى الصبر والتأسي أودعا بالسقيا لقبرها بل ترك العنان لنفسه تقول ماتشاه وتفصح عما يداخلها من آحزان دفينة حسبما تريد .
كذلك يلاحظ على الأبيات تركيز الشاعر على طفله الذي تركته أمه باحشاً عنها باكياً عليها، بينما يرى الأطفال من حوله وقد حضنتهم أمهاتهم .

فالمرثية رائعة في صورها وأفكارها ومعانيها واستطاع الشاعر أن يهز لها الوجدان ويحرك بها المشاعر والقلوب ويسيل بها الدمع أنهاراً، إنها مأساة مابعدا مأساة ولوعة حقيقية بل هي مأساة منصوب لاينقضى .

ومن رثوا زوجاتهم في هذا العصر أيضاً "ابن الرومي" حيث رثاها بأكثر من قصيدة ويعد من أبرز شعراء العصر رثاء لزوجاتهم، ومما رثى به زوجته قوله :

عينى جسودا على حبيكما بالسجل فالسجل من حبيكما
فاستغزرا درة الشؤون على بدركما بل على قبضكما
هذا فؤادى والرزء ورؤكما بيكى له غير مستثيبكما
فاستنكفا أن يكون غير كما أبكى لما فات من نصيبكما
يبكى ابن الرومى زوجته ويدعو عينيه أن تجود بالدمع كعادة
الشعراء القدامى .

ويعلن عن حزنه وألمه لفراق زوجته، وشتان بين هذه المريئة
ومريئة ابن الزيات فى زوجته فمريئة ابن الزيات أبرج وأروع تصويراً
وصوراً وأفكاراً ومعانٍ وصدق عاطفة من مريئة ابن الرومى .
وللشاعر نماذج أخرى فى رثاء زوجته على هذا النمط (١) .

رثاء الجوارى :

كثر الرقيق فى العصر العباسى الأول وازداد عددهم ازدياداً
واضحاً وامتلات القصور العباسية والأديرة والحانات بهذا الجنس من
الرقيق من عبيد وإماء، إلا أن رقيق النساء كان أكثر عدداً وأعظم
كثرة من رقيق الرجال وامتلات بهن قصور الخلفاء والوزراء وكبار
رجال الدولة وفضلهن كثير من الرجال على الحرائر من النساء لأنهن
كن من أجناس مختلفة، وتنافس الخلفاء وغيرهم من رجال الدولة
على امتلاك أكبر عدد منهن وأكبوا عليهن إكباباً يسابقهم الخلفاء
والوزراء حتى يروى أن الخليفة المتوكل كان يمتلك منهن أربعة آلاف
جارية (٢) بل كانت الزوجة تهدى إلى زوجها معرضاً من الجوارى
مثلما فعلت زبيدة مع الرشيد .

(١) ينظر ديوانه ج١ ص ٧٩ و ج٢ ص ١١٢٨ و ج٥ ص ٢١٣ .

(٢) ص ٤٠ ج٤ مروج الذهب للمسعودى .

وكان لهذه الكثرة من الجوارى فى العصر العباسى الأول أثر كبير فى الحياة الاجتماعية، حيث كثر نسل الجوارى واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم كانوا فى هذا العصر من نسل الجوارى، وقال ابن حزم فى نقط العروس "لم يل الخلافة من بنى العباسى من أمة حرة حاشأ السفاح والمهدى والأمين" (١) .

وكانت كثير من هؤلاء الجوارى على ثقافة عالية وعلم كبير مما قربها من قلوب الشعراء وأستأثرت بقلوبهم ونظموا فيهن أشعاراً كثيرة تعبر عن عظم جبهم لهن فى حياتهن وأشعاراً تيكى عليهن وترثيهن بعد وفاتهن، وكان للجارية نصيب كبير من شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول ربما يفوق رثاء الزوجات والبنات والأخوات وقد يرجع هذا إلى الكثرة الغالبة لهذا النوع من النساء وإلى تعلق قلب الشاعر بأكثر من جارية منهن وإلى عدم تخرج الشاعر من رثاء الجارية وإلى تشجيع الخلفاء العباسين وطلبهم من الشعراء أن ينظموا شعراً فى رثاء جواريتهم .

فكان للجارية نصيب كبير من وفاء أصحابهن ومحبيهن حتى كثر شعر شعراء العصر فيهن رثاءً ويكاءً وندباً وتعبيراً واضحاً عن حزنهم البالغ تجاه هؤلاء الجوارى، اللاتى أصبحن عنصراً من أهم عناصر المجتمع الرفيع وأسطعه .

يختلف شعر الرثاء فى الجوارى عن شعر التنزل بهن حيث يخلو من الفحش والاسفاف والابتذال فكان يلتزم الشاعر بالمعانى الجادة البعيدة عن الهزل والاسفاف، إلا أن الشعراء قد تعرضوا لوصفهن وتصويرهن بالشمس والقمر وما إليها التصويرات التسي

(١) ص ١٢٤ ظهر الإسلام لأحمد أمين، الجزء الأول، الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨م .

عرفت في شعر الغزل وذلك مثل قول أبي نواس يرثى جارية: (١)
أقسول لقبس زرتسه متلثماً سقى الله برد العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى وشمس الضحى بين الصفائح والقفر
عجبت لعين بعدها ملت البكا وقلب عليها يرجمى راحة الصبر

فهذا أبو نواس الذي لم نعثر له على رثاء لابن أو ابنة أو زوجة أو أخت يرثى جارية من الجوارى ويعبر عن حزنه وألمه لفقدائها بل تراه باكياً مكثرأً لبيكاتها ولا يعرف الصبر قلبه لفراقها. وأبو نواس يدعو الله لجاريته بأن يعفو عنها ويغفر لها وهو في ذلك متأثر بالروح الإسلامية والمبادئ الإسلامية إلا أنه قد شبهها بقمر الدجى وشمس الضحى حسناً وجمالاً .

ويقول أبو تمام يرثى جارية له توفيت : (١)
ألم ترني خلّيت نفسي وشانها ولم أحفل الدنيا ولا حدثاً فيها؟
لقد خوفتني التائبات صروفها وكيف على نار الليالي معرس
وأصبت بخود سوف أغير بعدها حليف أسي أبكى زماناً زمانها
عنان من اللذات قد كان في يسدي فلما مضى الإلف استردت عنانها
منحت الدمى هجرى فلا محسناتها أود ولا يهوى فسؤدى حسانها
يقولون : هل يبكى الفتى لفريدة متى ما أراد اعتاض عشراً مكانها؟
وهل يستعيب المرء من خمس كفه ولو صاغ من حر اللجين نبانها؟

أبو تمام حزين متألم لفقد جاريته فهو لم يعبأ بالدنيا ولم يعد لها طعم عنده بعد فراق جاريته التي تركته، إنه يبكى جاريته ويتأسف لموتها ويعلن أنه سيظل حزيناً عليها باكياً على أيامها

(١) ص ٢٨٠ ج٣ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلس .

(٢) ص ١٤٢ ج٤ ديوان أبي تمام . و ص ٢٢ ج٥ نهاية الأرب للنويري .

الماضية طيلة زمانه، ويرى أنها أثيرة عنده ولم يقدر أن ينساها ولا يستطيع قلبه أن يهوى غيرها من هؤلاء الحسان الناعمات، إنها قد أصبحت جزءاً من جسده ولا يستطيع أن يحل محلها سواها حتى ولو كانوا عشرة من الحسان الناعمات وكما أن المرء لا يستطيع أن يستعوض عن إصبع من أصابعه فكذلك هو لا يستطيع أن يستعوض عنها .

إنه الوفاء الحق الذي مابعد وفاء والحب الصادق المخلص فهو لم يستطيع أن يفرط في حبه لجارتيه حتى بعد وفاتها، بل إنه أسف وحزن حزناً شديداً وبكى عليها بكل الصدق والحب والوفاء . والشاعر يمزج عاطفته بفلسفة الطبيعة، فالشئ الذي فقد لا يمكن أن يعوضه شئ آخر مهما كانت قيمة هذا الشئ .

ومن الشعراء الذين رثوا جواربهم الشاعر "عبد السلام بن رغبان" ديك الجن" الذي رثى جارية له اسمها "دنيا" وكان يهواها فاتمها بغلامه^(١) وصيف وقيل إنه اتهمها بأخيه^(٢) فقتلها ثم ندم على ذلك وقال يرثيها :^(٣)

يامهجة جسم الحماس عليها	وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها التراب ورثها	روى الهوى شفتى من شفتيها
حكمت سيفي في مجال خناقها	ومدامعى تجرى على خديها
فوحق نعلها لما وطئ الحصى	شئ أعز على من نعلها
ما كان قتلها لأنى لم أكن	أخشى إذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على الأنام بحسنها	وأنفت من نظر العيون إليها

(١) ص ١٨٦ ج ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) ص ١٤٩ ج ٢ العمدة لابن رشيقي .

(٣) ص ١٨٦ ج ٣ وفيات الأعيان وص ١٤٩ ج ٢ العمدة .

يرثى الشاعر جاريته وكله حزن وأسى لفراقها وتندم وألم لقتله إياها، ثم يصور كيفية قتله لها وسبب هذا القتل، فقد أحكم سيفه فى مجال خناقها ودموعه تجرى على خديها. قتلها بسبب حبه الشديد لها فقد كان يغار عليها غيرة شديدة حتى من هذا الغبار لو سقط عليها ومن نظر عيون الآخرين إليها، إنه الحب العنيف الذى يؤدى بصاحبه إلى الشر الذى لا يدفع وإلى الخطأ الذى لا يمنع .

ولم يقتصر رثاء الجوارى على رثاء شعراء العصر لجواريتهم بل كثيراً ما كان يرثى الشعراء هؤلاء الجوارى على لسان الخلفاء العباسيين حينما كانوا يطلبون منهم ذلك، وهذا يؤكد الدور العظيم ومكانة الجارية عند الخلفاء العباسيين وتعلقهم العظيم بهؤلاء الجوارى .

ومن هذا القبيل ماجا . فى ديوان العباس بن الأحنف فى رثاء ثلاث جوارى فقدهن الخليفة الرشيد. إحداهن "هيلانة" حيث رثاها بأربعة أبيات والثانية "ضياء" حيث رثاها بثلاثة أبيات والثالثة لم يذكر اسمها رثاها بأربعة أبيات .

فمن قوله فى رثاء "هيلانة" على لسان الرشيد : (١)

أأبى حياً من بعد هيلانة إذا أرانى ملقى من وفاء الحبايب
سأوحش قلبى بعدها من سروره وأونس عيني بالدموع السواكب
إذا ذرفت عيني لحر مصيبة تمثلت قول المتلى بالمصائب
أجهدك ماتعفو كل يوم مصيبة على صاحب إلا فجعت بصاحب
يرثى العباسى بن الأحنف جارية الرشيد "هيلانة" رثاء رسمياً
ليس نابهاً من أحاسيسه ومصائبه فهو لم يعبر عن حزنه هو بل يعبر
عن حزن الخليفة وأسفه لفراق جاريته مما لم يجعل للأبيات حرارة
وحرقة فى عاطفتها.

(١) ص ٧٩ ديوان العباسى الأصف . طبعة : دار صادر بيروت

وقال العباسي بن الأحنف يرثى "ضياء" جارية الرشيد: (١)
ألا إن صفو العيش بعدك أكدر وكل نعيم سوف يقلى ويهجر
لعمري لنعم المستغاث به البكاء إذا فنى الصبر الذي كان يذخر
سأبكي ضياءً مستقلاً لها البكا ويسعدنى يحى وفضل وجعفر

فالشاعر فى رثائه للجارية يذكر أثر فقدها فىرى أن الحياة من بعدها كدرة لا تصفو صفاء وجودها، وأن كل نعيم زال وانتهى بانتهائها، ويذكر تأثر حياة المتعة عن الخليفة الرشيد لغياب جاريته ضياء، وبما لاشك فيه أن الأبيات تفقد صدق العاطفة وحرارة المشاعر وتوهج الأحاسيس فقد نظمت تعبيراً لشعور شخص آخر ولم تنظم للتعبير عن شعور الشاعر وأحاسيسه ومشاعره الذاتية . وللشاعر مرثية أخرى على لسان "الرشيد" فى جارية له ذكر فيها الشاعر الأثر الذى تركه فراق الجارية على الخليفة وأن الخليفة لم يعد يرى هذا الأتيس الذى كان يؤنسه وأن الخليفة حزين لفراقها ولو استطاع أن يقتديها من الموت بكل ما يملك لافتداها . (٢)

ومن هذا القبيل قول الشاعر "أبان اللاحق" يرثى "هيلانة" جارية "الرشيد" على لسانه: (٣)
أعيتنى لقد جار الزمان فجودى ولا تطلبى لى راحة بجمود
لقد بت يا هيلان منى فقيدة ورب قريب بسان غير فقيد
سقى الله دهرأ كان يجمع بيننا ويرغم فيه أنف كل حسود
تمر لنا طير الزمان سوانحاً وأنجمه تجرى لها بسعود
ففقدك يا هيلان كدر عيشتى وأخلق من دنياى كل جديد

(١) ص ١٧٨ ديوان العباسي بن الأحنف .

(٢) ينظر ديوان العباسي بن الأحنف ص ٢٣٤ .

(٣) ص ١٨ الأوراق للصولى .

فالشاعر يرثى الجارية على لسان سيدها الخليفة ويوضح أثر فقدها وما تركته من حزن وألم لسيدها، مقلداً الشعراء السابقين في بدئه بمخاطبة عينيه، داعياً الله عز وجل بالسقيا لهذه الأيام الذي قضاها معها الخليفة .

وللشاعر غناج أخرى يرثى فيها "هيلانة" جارية الرشيد على لسانه (١) كما أنه عزى الرشيد فيها فقال: (٢) .

يا أميسر المؤمنين المرتضى احمد الله على ما قد قضى
إن تكن هيلان وافقت قدراً فاسأل يعقبك به الله الرضا
إنما يحزن من ليس له خلف يسليه عما قد مضى
بل أنا الباكي لشيب راعنى وشباب يسان منى فانقضى
يعزى الشاعر الخليفة "الرشيد" فى وفاة جاريته "هيلانة" ويدعوه أن يصبر ويرضى بقضاء الله تعالى وأن يترك الأحران لينال الرضا من الله تعالى، ثم يذكر الشاعر أنه - أى الشاعر - هو الذى حق له أن يبكى للشيب الذى هجم عليه ويبكى على شبابه الذى انتقضى وفات .

هذا وقد أخذت جارية الخليفة "الرشيد" "هيلانة" مالم تأخذه غيرها من الجوارى من اهتمام الشعراء برثائها والبكاء عليها نظراً للاهتمام الشديد والمكانة العظيمة التى كانت تحظى بها عند الخليفة حيث وجد بها وجداً شديداً ولما رثاها الشعراء واصلمهم بمنحة وعطاياها (٣) .

وإذا كان الشعراء قد بكوا الجوارى على لسان الخلفاء فإننا نرى الخلفاء أنفسهم يبكون على جوايهم ويرثونهن رثاءً حاراً معبرين

(١) ينظر الأوراق للصولى ص ١٩ .

(٢) ص ١٨ الأوراق .

(٣) ينظر الأوراق ص ١٨ .

عن عظم حبههم لهن وعن عظم المصيبة التي لحقت بهم في فقدهن،
ومن ذلك قول الخليفة الرشيد يرثى جاريته "هبلانة" معبراً عن حزنه
وألمه: (١)

قاسيت أوجاعاً وأحزاناً لما استخض الموت هيلاناً
فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيف ما كانا
كانت هي الدنيا فلما ثوت فسي قبرها فارقت دنياناً
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بعدك إنساناً
والله لا أنساك ما حررت ربح بأعلى نجد أغصاناً

يبكى الخليفة جاريته ويعلن عن حزنه الشديد لفقدائها وحب
العظيم لها ووفائه وإخلاصه لها حتى بعد وفاتها، يبكيها وهو
الخليفة الذي هو من هو في ملكه - ويتوجع ويتفجع وينعى حظه
العائر في فقدائها، ويصور عظم المصيبة التي لحقت به وهول الفجيرة
التي داهمته فهو في حزن دائم. قد فارق حياة التعميم عند فراقها،
فقد كانت هي الدنيا كلها بالنسبة له على الرغم مما في الدنيا من
كثرة الناس، فهو لا يرى سواها ويحلف بالله أنه لن ينساها مدى
الحياة.

فالخليفة يرثى جاريته وكله حزن وألم لفقدائها ويبكيها بعاطفة
صادقة معبراً عن عظم شعوره الصادق نحوها بكل الوفاء والإخلاص
وعظم المشاعر.

ومن الخلفاء الذين رثوا جواريتهم الخليفة "المأمون" حيث قال
يرثى جارية له وقد حضر موتها وسلم عليها ولم تستطع رد السلام
إلا بأصابعها إيماء فقال: (٢)

سلام على من لم يُطق عند بينه سلاماً فأرسي بالبنان المخضب
فما أسطعت توديعاً سوى سرعة البكا وذلك جهد المستهام المعتدب

(١) ص ٥٩٥ تاريخ الخلفاء . للسيوطي .

(٢) ص ١٩٨١ مجريد الأغاني . القسم الثاني .

فالخليفة يرثى جاريته ويبكى لفراقها دون خشية أحد من الناس ، بل إنه أمر "مخارقاً" أن يغنى له هذين البيتين ويعيد فيهما ويكرر، وكان يبكى حينما يسمع هذا الغناء كما يروى صاحب كتاب الأغاني .

ومن الخلفاء الذين رثوا جواربهم وبكوا عليهن وعبروا عن عظم حزنهم وألمهم لفقدن، الخليفة "المعتد" الذي رثى جاريته "دريرة"^(١) ، والشاعر الخليفة عبد الله بن المعتز الذي رثى جارية له فى أكثر من موضوع فى ديوانه، وما قاله يرثى جارية له أصيب بفقدها :

يادهر كيف شقت نفساً فخلست منها النصف خلماً
وتركت نصفاً للأسى جعل البقاء عليه تحسماً
سقباً لوجه حبيبة أودعته كفناً ورمساً
عهدى به وكأنها ذر الحمام عليه ورسماً
ثم انطلقنا مسرعين إلى القبور نـزف شمساً

الشاعر يرثى جاريته معاتباً الدهر فى نزاعها منه وتركه وحيداً للحزن والأسى، حيث أخذ نصفه وترك النصف الآخر للأسى والأحزان ثم يطلب السقيا لوجه محبوبته وجاريته الذى لف بالكفن والتراب . ويصور الشاعر جنازة جاريته بزفاف العروس ويشبها بالشمس فى الحسن والجمال .

وهكذا رثى الخلفاء العباسيون جواربهم معبرين عن حزنهم وأسفهم لفراقهن موضحين الدور الذى كانت تقوم به الجارية فى القصر، ولم يرث الخليفة كل جواربه بل كان الرثاء من حظ المقربة من

(١) ص ٥٧٠ تاريخ الخلفاء، للسيوطى / تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة عام ١٩٦٩م، المكتبة التجارية بمصر .

قلبه والتي أثرت تأثيراً عظيماً في حياته وتركت بصمة واضحة في حياة الخليفة.

ورثى الشعراء الجوارى معبرين عن حزنهم وألمهم لفقدان بارزين الدور الذي كانت تمثله الجارية في حياتهم، موضحين عظم المصيبة وهول الفجعة التي لحقت بهم بعد فراقهم متعرضين لهم أحياناً بالوصف وتصوير بعض أعضائهم خاصة الوجه، وقد اتسمت معاني الرثاء في الجوارى بالبساطة والوضوح والبعد عن الغرابة والعمق والصلابة. ومما لاشك فيه أن العاطفة الصادقة لم تغلب على هذا الشعر في رثاء الجوارى، خاصة في رثاء الجوارى على لسان الآخرين، حيث خرجت الأبيات معبرة عن حزن الآخرين ولم تنبع من أحاسيس الشاعر معبرة عن حزنه وألمه هو شخصياً .

رثاء الأصدقاء :

يعد رثاء الأصدقاء من الموضوعات القديمة التي طرقها الشعراء القدامى قبل العصر العباسي الأول فقد عرفه الشعراء الجاهليون والإسلاميون والأمويون إلا أنه نال حظوة عظمى ومكانة واسعة بين موضوعات شعر الرثاء في العصر العباسي الأول وربما يرجع ذلك إلى اتساع العلاقة الخاصة وامتداد أواصر الصداقة والصحية بين شعراء العصر وطبقات المجتمع العباسي المتعددة والكبيرة في ربوع الدولة العباسية المترامية الأطراف والتي أصبحت دولة عظمى بفضل انتشار الإسلام ودخول كثير من البلاد غير العربية تحت أملاك الدولة العباسية واعتناق أهلها الدين الإسلامي الحنيف .

فوجود شعر الرثاء للأصدقاء بكثرة في الشعر العباسي فإن دل على شيء فإنما يدل على عظم العلاقات وامتداد أواصر الصداقة بين طبقات المجتمع العباسي بوجه عام وبين الشعراء وبقيّة طبقات المجتمع بوجه خاص .

وقد تناول الشعراء العباسيون في رثائهم لأصدقائهم هذه الصفات والفضائل المتعددة التي كان يتمتع بها صديقه قبل موته وفنائه كما أوضحوا في رثائهم لأصدقائهم عظم المصيبة التي لحقت بهم بعد فقدهم ووصفوا المصيبة وصفاً يمتزج بروح الشكوى والأثين والتعبير عن المشاعر القوية الصادقة تجاه هذا الصديق المرثى فضلاً عن إعلان حزنهم وأسفهم عليهم بل والبكاء والعويل عليهم أحياناً. فضلاً عن اختلاف الشعراء في رثائهم لأصدقائهم من حيث قوة المشاعر وصدق العاطفة فبينما نجد شاعراً يمتلكه الأسى والحزن والمشاعر القوية الصادقة في رثاء صديقه نجد شاعراً آخر يقل عن سابقه في قوة المشاعر وصدق العاطفة بل أحياناً تأتي القصيدة في رثاء الصديق فاترة كأن الشاعر قد تكلفها تكلفاً بل أحياناً نرى للشاعر الواحد هذا المثال وتلك النموذج وربما يرجع ذلك إلى مدى العلاقة التي تربط بين هذا الشاعر وصديقه الميت الذي رثاه .

ومن شعر الرثاء للأصدقاء في العصر العباسي الأول ما قاله:

"بشار" في رثاء أصدقاء له من الزنادقة ويقول في ذلك : (١)
يا بن موسى فقد الحبيب على العبد من قذاة وفسى القواد سقام
كيف يصفون لي المقام وحيداً والأخلاء في المقابر هام (٢)
نفسهم على أم لمنايا فأنامتهم بعنف فناموا (٣)
لا يقيض انسجام عيني عليهم إنما غاية الحزين السجام (٤)

(١) ص ٢٣٦ ج ٣ الأغانى .

(٢) هام : جمع هامة وهي طائر من طير الليل وهو الصدى .

(٣) نفسهم : نفس عليه الشيء - نفاسة : لم يره أهلاله .

(٤) يقيض : يجف . السجام : سيلان الدمع من العين .

يرثى بشار في هذه الأبيات خمسة أصدقاء له ماتوا كلهم على الزندقة رثاءً حاراً ويبكى لفقدهم ويذرف عليهم الدمع أنهاراً. رثاهم وكله مشاعر فياضة وأحاسيس جياشة وعاطفة صادقة معبراً عن مشاعره وأحاسيسه بكل الصدق والوفاء والولاء لأصدقائه. فالأبيات تفيض حزناً وتقطر ألماً وحسرة وأسى على هؤلاء الأصدقاء الخمسة الذين فرق الموت بينهم وبينه .

إلا أنه يلاحظ على الأبيات أن الشاعر قد قدم لراثته بالغزل في فتاته وأعلن عن حبه لها وهيام قلبه بها وذلك على غير عادة الشعراء العرب الذين لا يؤثرون تقديم الرثاء بالنسب كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء وغيرهما من الأغراض الشعرية التي مهدوا لها بالنسب والحب والغزل .

ويقول "أبو العتاهية" يرثى صديقه علي بن ثابت وقد حضره وهو وجود بنفسه ولم يزل يلتزمه ويبكى حتى فاضت روحه وبعد أن تم دفنه وقف على قبره يبكي بأحر بكاء ويرثيه بهذه الأبيات: (١)

ألا من لى بأنسك يا أخيا	ومن لى أن أبشك مالديسا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر	كذاك خطوبه نشرأ وطبسا
كفى حزناً بفقدك ثم إنسى	نفضت تراب قبرك من يديسا
بكيثك يا على بدمع عينسى	فما أغنسى البكاء عليك شيئا
وكانت فى حياتك لى عظمات	فأنت اليوم أوعظ منك حيا

المراثية بكاء حار من الشاعر على صديقه وفيها اللوعة والتهيران التي تفتت الأكباد حزناً وحسرة على المرثى، فأهات البكاء تنتشر منها ولهب الأخران تتفجر من بين ثناياها ودموع العين تسيل على الحدود سيلاناً ، فالشاعر حزين مهموم لفراق صديقه يبكى

(١) ص ٤٧٨ - ٤٧٩ تجريد الأغاني .

عليه ويرثيه بكل مشاعره وأحاسيسه الجياشة الصادقة وينديه ويتفجع عليه كأنه يتدب ولدأ له اخطفته الموت وفارق بينهما، وقد استطاع أبو العتاهية أن ينقل إلينا عظم المصيبة التي أصابته يفقد صديقه كما استطاع أن ينقل إلينا مشاعره الجياشه وعاطفته الحزينة الصادقة في رثائه لصديقه .

وأبو العتاهية - كما هو معروف عنه - يأخذ من المصائب التي يراها عبرة وعظة، حيث يرى في موت صديقه عظة يتعظ بها وعبرة يعتبر بها فالموت مصير مشترك بين العباد . ويرى صاحب كتاب تجريد الأغاني أن هذه الكلمات قد أخذها أبو العتاهية من الحكماء الذين حضروا تابوت الاسكندر ذي القرنين ابن قليس لما مات. فقال أحدهم : كان الملك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس. وقال آخر : سكنت حركة الملك في لذاته وقد حركنا اليوم بسكوته جزعاً لفقده^(١) .

ونحن لانتسبед ذلك فرميا قرأ أبو العتاهية هذا القول وتأثر به في شعره خاصة وأنه الشاعر الوحيد من بين شعراء عصره الذي أعطى قضية الموت والفناء كل همه ونظم بشأنها ديواناً ضخماً لا يتحدث إلا عن الموت والفناء ومصير الإنسان المحتوم في هذا الوجود الذي لا يد وأن ينتهى بالفناء والموت .

ويقول "أبو نواس" يرثى صديقه "والبه" بن الحباب الشاعر: (٢)
فاضت دموعك ساكية جزعاً لمصرع والبه
قامت بموت أبى أسامة في الزقاق النادبة

(١) ص ٤٧٩ تجريد الأغاني .

(٢) ص ٩٨ ديوان أبى نواس، طبع : دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٢ هـ

قامت تيث من الكفا	رم غير قيل الكاذبة
فجعت بنو أسد به	وينو نزار قاطبة
بلسانها وزعيمها	عند الأمور الحازية ^(١)
لاتبعدن أباً أنا	مة، فالنتية واجية
كل امرئ تغتاله	منها سهام صائبة
كتب الغناء على العبا	د ، فكل نفس ذاهبة
كم من أثر لك قد ترك	ت همومه بك ناصبه
قد كان يعظم قبل مو	تك أن تنوب النائبة

فأبو نواس يرثي صديقه "والبة بن الحباب" ويذكر أنه حزن لموته ويكى لفقده، بل قامت النوادب يندبته ويكين عليه، وأن بنى أسد وبنى نزار قد فجعتا لموته، ثم يتأسى ويطلب الصبر لفقد صديقه فكل إنسان مصيره الموت والغناء. وأن الموت قد أخذ الكثير من الإخوان والعباد، وأبو نواس متأثر بذلك يقول الله تعالى : "كل نفس ذائقة الموت" وكل من عليها فان" وأبو نواس فى أبياته فاطر العاطفة لاجباشها ليس بالصادق ولا الرائع فى رثائه لصديقه، بل فى معظم رثائه، ولم يصدق أبو نواس فى رثائه كله إلا فى القصيدة التى رثى فيها الخليفة الأمين بقوله :

طوى الموت ما بينى وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر

أما فى بقية رثائه - ومنه هذه الأبيات التى رثى فيها صديقه- فكان ضعيف العاطفة متكلفاً فى رثائه لم يرجع فيه كبراعته فى شعر الحمر والمجون والمدح والزهد وغيرها من الأغراض التى برع فيها وتفوق ورعاً يرجع ضعف أبى نواس فى شعر الرثاء أنه قضى حياته كلها إلا قليلاً ماجناً عابثاً لاهياً لاهم له إلا المجنون

(١) الحازية : من حزه الشيء : أى اشتد عليه وصعب .

واللهو فضلاً عن أنه لم يكن ميالاً بطبعه إلى الحزن والبكاء وإنما عاش حياته ساخراً لاهياً متفانلاً بالحياة لا يرى إلا جانب البهجة فيها، فأبو نواس لم يكن مجيداً في شعر الرثاء بوجه عام وعرف ذلك معظم الباحثين والنقاد وعدوه عليه، لدرجة أن الدكتور طه حسن قد ذهب إلى أن شعر أبي نواس في الرثاء ليس له قيمة وكان فيه سخيفاً (١).

ورثي أشجع صديقه أحمد بن يزيد فيقول: (٢)

على قبر يرحمان السلام	وإن تصد الملام فلا سلام
على قبره أشلاء بدر	أصيب به من الشرف السنام
أقول لصاحبي وخرانسي	بميت القهر والملك اللهم
صلاة الله ربكنا وربي	على قبره تلك العظام
بصرع أسد عز الأعداء	وذل الرصح والسيف الحسام
فلم أر مثل أسد يوم ولسي	حسام تكال مهجته الخمام
عليك ولا على جرحان مني	سلام الله ما بقى السلام

فهذه أبيات من مرثية رثي فيها الشاعر صديقه وأبنته وعدد فضائله ومناقبه ووصف المصيبة وصفاً يمتزج بالأسى والحزن ووضع أثر فقدته على أهله وقومه وعلى أعاديه الذين فرحوا بفقدته والشاعر - كما هو معروف عنه - مجيد في شعر الرثاء بارح في تصوير المصيبة وتجسيماً، ويعلن عن حزنه وألمه بكل مشاعره الجياشه وعاطفته الصادقة بالفاظ وعبارات تتلام مع مقام الحزن وشعر الرثاء وبأسلوب محكم رصين يتلاءم وشعر المرثي .

(١) ينظر حديث الأريعاء ، ص ١٣٤ ج ٢ .

(٢) ص ١٣٤ - ١٣٥ الأوراق .

هذا وقد أكثر شعراء العصر العباسي الأول من رثاء أصدقائهم^(١) ويكوا عليهم بكاءً حاراً يصدق شعور وحرارة يث وعمق تأثير، والشاعر العباسي في رثائه لصديقه يغمرنا بأمواج مشاعره المتدفقة ويلهب وجداننا بلهب الحزن الذي أحسه وإحساسه الأثر الذي خالج قلبه وعقله ونفسه، ونراه يتجاوز الأشياء إلى ماوراءها، ثم نراه يعبر عن عظم وفاته لصديقه وشدة تعلقه به وهيامه فيه، فهو يرثيه عن صدق ووفاء وينغم ألحان أشجانته على أوتار شعره الذي يفيض حزناً وألماً كأنه يرثى ولده أو أباه، اللهم إلا القليل من الشعر الذي جاء باهتاً ضعيف العاطفة كرثاء أبي نواس لأصدقائه، كما نراه يعدد فضائل صديقه المرثى ويذكر مناقبه وآثاره وهي في معظمها فضائل ومناقب دعا إليها الإسلام وأشاد بها .

رثاء العلماء والأدباء

يعد العصر العباسي الأول من أغزر العصور العربية ثقافة وعلماً في مختلف مناحي الثقافة سواء كانت دينية أو لغوية أو أدبية أو علمية حديثة، ووجد كثير من علماء الدين واللغة والأدب في هذا العصر أمثال : الإمام أبي حنيفة النعمان والإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل، والمبرد وثلعلب والأصمعي

(١) ينظر على سبيل المثال للحصر رثاء الأصدقاء في العصر العباسي الأول: طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٢٢ و ص ١٢٣ و ص ١٢٤ .
وتجريد الأغاني : ص ١٥٥٦ و ص ١٦٠٠ و ص ١٩٤١ والأغاني ج ١٨ ص ١٨٠ و ص ١١١ و ص ٢٣٨ . وديوان أبي تمام ج ٤ ص ٤٠ و ص ٤٦ و ص ١٢١ و ص ١٤٤ و ص ١٣٨ . وديوان البحتري : ج ٣ ص ١٥٤٨ و ص ١٩٤٥ و ج ٤ ص ٢١٨١ . وديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٤٩ و ص ٣٥١ و ج ٣ ص ٣٦٦ و ص ٣٦٩ ج ٣ ص ٣٧١ وديوان ابن الرومي : ج ٢ ص ٦٦١ و ج ٥ ص ١٨٣٥ ص ١٨٨٨ . وديوان يشار ج ١ ص ٢٧٧ . وديوان د عبل : ص ٣١٠ و ص ٣٢٠ ص ٣٣٩ .

والجاحظ وأبى عمرو بن العلاء. وخلف الأحمر وابن دريد وغيرهم الكثير والكثير من علماء الدين وعلماء اللغة والأدب فضلاً عن هذا الكم الهائل من الشعراء الكبار الذين وجدوا في هذا العصر والذي يعد بحق أغزر العصور العلمية والأدبية بين العصور العربية القديمة. وقد كان لهؤلاء العلماء والأدباء منزلة كبيرة ومكانة عظيمة بين جموع الشعب العباسي على اختلاف أجناسه وعناصره خاصة عند هؤلاء الشعراء الذين تتلمذوا على أيدي هؤلاء العلماء والأدباء واستفادوا من علمهم وآرائهم وتقدهم إفادة عظيمة في مختلف العلوم الدينية والعربية والثقافية، فكان من الطبيعي ومن باب العرفان بالجميل ومن باب تعظيم هؤلاء العلماء والأدباء أن يأخذوا نصيباً غير قليل في مراثي شعراء العصر العباسي الأول وتأبين شعراء العصر لهم وتعييم وتدبهم والبكاء عليهم .

فحينما يفقد عالم فقيه أو عالم لغة أو أديب يتعاه الشعراء ويبكونه ويرثونه متحدثين عن علمه ومبادئه وآرائه وقضله مظهرين مكانته العظيمة في تخصصه والخسارة العظمى التي لحقت العلم والأدب يفقده موضحين قيمة ما تركه من علم أو أدب في حياته، يبرزون كثيراً من شمائله ومميزاته الأخلاقية والعلمية والذاتية. ولا غرابة في ذلك فقد كان هؤلاء العلماء على اختلاف تخصصاتهم والأدباء وعلماء اللغة ورواة الشعر كانوا أساتذة المجتمع ومعلميه وناشري الثقافة بين ربوعه ومعلمي الشعراء وغيرهم من أبناء المجتمع العباسي .
فمن ذلك قول ابن دريد يرثي الإمام الشافعي رضى الله عنه
يقول في رثائه : (١)

(١) ص ٢٣ ديوان الشافعي، بتحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة الثانية عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

ألم تر آثار ابن إدريس بعده
معالم يقنى الدهر وهي خوالد
متاهج فيها للهدى متصرف
ظواهرها حكم ومستوطناتها
لرأى ابن إدريس ابن عم محمد
إذا المظلمات المشكلات تشابهت
أبسى الله إلا رقعته وعلسه
توخى الهدى واستغذفه يد العسى
ولاذ بأثار الرسول فحكمه
وصول نسي أحكامه وقضائه
تسريل بالتقوى وليداً وناقداً
وهذب حتى لم تشر بالمضيلة
فمن بك علم الشافع إمامه
سلام على قبر تضمن جسمه
لئن جمعنا الحاديات بشخصه
فأحكامه فينا بدور زواهر

محمد ابن دريد يرثي الإمام الشافعي ويؤننه تأبيناً حاراً حيث
تناول في رثائه صفات وفضائل تنفق ومكانة المرثى وعمله ومجال
تخصصه .

وقد أشاد الشاعر بمكانة الإمام الشافعي ومنزلته العلمية
ذاكراً آثاره منها مشيداً بها أيما إشادة، فهي خالدة باقية حتى لو
فنى الدهر وشامخة عالية، فيها الهدى والرشاد، ثم يعدد الشاعر
صفات المرثى فيصفه بالعلم الغزير وشدة التقوى والورع والذكا.
الخارق منذ نعومة أظافره .

فالشاعر في رثائه للمرثى العالم الفقيه يختار من الفضائل
ما يتلام وعمله ومن الصفات ما يتناسب مع عالم جليل فقيه مثل
"الإمام الشافعي" .

كما تراه يعلن عن حزنه وأسفه لفقد العالم الجليل الذى ترك العلم النافع الغزير والأحكام الشرعية والآثار الفقية التى تشبه البدر الزواهر والنجوم السواطع، فإن كان الإمام المرنى قد فارق هذه الحياة فإنه فارقها وقد ترك آثاره الباقية الخالدة التى تضئ الطريق وتبهر الظلمات .

ويقول "أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج" يرثى الإمام "مالكا" : (١)

سقى حدثاً ضم البقيع لمالك من المزن مرعاه السحاب مبراق
إمام موطأه الذى طبقت به أفاليم فى الدنيا فساح وأفاق
أمام به شرع النبى محمد له حذر من أن يضام وإشفاق
له سند عالٍ صحيح وهيبته فللكل منه حين يرويه إطران
وأصحاب صدق كلهم علم فسل بهم إنهم إن أنت ساءلت حذاق
ولو لم يكن إلا ابن إدريس وحده كفاه ألا إن السعادة أرقاق
فالمرثية تأبين للإمام مالك وإشادة بعلمه وكتابه "الموطأ" الذى
جمع فيه كثيراً من الأحاديث النبوية الصحيحة العالية السند.

والشاعر يدعو لقبير الإمام بالسقيا على عادة الشعراء العرب
القدامى إلا أنه قد أنه تأبيناً يتلأم ومكانة الإمام الدينية
والعلمية، حيث يشيد بعلمه وكتابه "الموطأ" إشادة عظيمة .

هذا والأمثلة كثيرة فى رثاء العلماء الفقهاء، حيث راح
الشعراء يرثونهم مؤنين إياهم معددين مناقبهم ذاكين مآثرهم
مشيدين بهم ويعلمهم وبما خلفوه من آثار عظيمة فى علوم الدين .
كذلك رثى الشعراء علماء اللغة والأدب وأبنوهم ذاكين
فضائلهم معددين مناقبهم مظهرين مكانتهم العظيمة ومنزلتهم
الكبيرة فى مجال العلم والثقافة، ولاغروهم فى ذلك فعلماء اللغة
كانوا على صلة وثيقة بالشعر والشعراء فهم معلومهم وعلى أيديهم
حذق الشعراء شعرهم .

(١) ص ١٢٨ ج٤ وفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن ذلك قول عبد الله بن المقفع يرثى أبا عمرو بن العلاء : (١)
رزئتنا أبا عمرو ولاحى مثله فله ريب الحادثات بمن فجع
فبان تك قد فارقتنا وتركتنا ذوى خلة ما نسى انسداد لها طمع
فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

يرثى "عبد الله بن المقفع" أبا عمرو بن العلاء" ويعلن عن حزنه وألمه لفقدته ويرى أن موته كان المصيبة العظمى التي ما بعدها مصيبة، فكل مصيبة بعد موته تهون ويأمن الإنسان عليها من شدة الجزع .

ويقول "ابن العلاء" يرثى "المبرد" وينصح المتعلمين أن يتذودوا من علم ثعلب وأدبه فيقول : (٢)
ذهب المبرد وانقضت أيامه وليذهبن إسر المبرد ثعلب
بيت من الآداب أصبح تصفه خرباً وياقسي بيتها فسيخرب
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا للدهر أنفسكم على ما يسلب
وتزودوا من ثعلب فيكأس ما شرب المبرد عن قريب يشرب
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب

فالمرثية تأبين للمبرد وإشادة بعلمه وأدبه ويتعرض من خلالها بالدعوة للانتفاع من علم ثعلب قبل أن يلحق بزميله المبرد .
ويلاحظ على المرثية أنها خالية من تعداد فضائل المرثى ومناقبه الأخلاقية والصفات التي كان يتحلى بها في حياته، فضلاً عن ضعف العاطفة حيث نجد التكلف واضحاً في الأبيات .
ويقول "أبو نواس" يرثى "خلفاً الأحمر" وهو حى برزق، لأن خلفاً أحب أن يسمع مرثى أصحابه له قبل موته فقال يرثيه بعد مقدمة

(١) ص ٤٦٩ ج ٣ وفيات الأعيان .

(٢) ص ٣١٩ ج ٤ وفيات الأعيان .

طويلة تعرض فيها لوصف مظاهر الطبيعة : (١)

ماتسرك الموت بعده شبحاً	باد يتسل القلال والشعف
لما رأيت المنون أخذة	كسل شديد وكل ذي ضعف
يست أعزى الفؤاد عن خلف	ويات دمعى إن لا يفض يكف
أنسى الرزايا ميت فجعت به	أمس رهين التراب فى جدف
كان يسنسى برفقة علقماً	فسى غير عسى منه ولا عنف
لا بهسم الحساء فى القسرة بال	حاه ، ولا لامها مع الألف
ولا يعمسى معنى الكلام ولا	يكسون إنشاده عن الصحف
وكان بمن مضى لنا خلفاً	فليس منه إذ بان من خلف

فالمرثية - وإن أعلن فيها الشاعر عن حزنه وسفك الدمع على خلف الأحمر - شديدة التكلف واضحة السخف، لانهسى وهجاً لعاطفة أو مشاعر صادقة، فالشاعر لم يعيش التجربة ولم يحدث من القواجم ما يجعله يرثى رثاءً حاراً صادقاً نابعاً من أعماق قلبه .
وإذا كان الشعراء قد رثوا علماء الدين وعلماء اللغة والأدب فإنهم كذلك رثوا الشعراء الذين سبقوهم إلى الدار الآخرة بل إنهم قد استأثروا بالجزء الأكبر من رثاء العلماء والأدباء، حيث راح الشعراء يؤننون زملاءهم الشعراء ويبكونهم بكاءً حاراً وهناك الكثير من أشعار العصر العباسى الأول التى نظمت فى رثاء الشعراء وتفيض كتب الأدب والتاريخ بكم هائل من هذا اللون من الرثاء ولاغراية فى ذلك فالشاعر يرثى زميله ورفيق صنعته وأخاه فى الأخوة الأدبية .

ومن هذا القبيل رثاء "البحترى" لأستاذه "أبى تمام" ودعبل

الجزاعى : (٢)

(١) ص ٤٣١ - ٤٣٢ ديوان أبى نواس .

(٢) ص ١٧٨٦ ج ٣ ديوان البحترى .

قد زاد في كمدى وأضرم لوعتى
ويقاء ضرب الخشمى وصنفته
أهل المعانى المستحيلة إن هم
أخسوى ! لا تزل السماء مخيلة
حدث على الأهواز يبعد دونه
مشوى "حبيب" يوم بان و "دعبل"
من كل مكدر القريحة مجبل
طلبوا البراعة والكلام المقل
تفشاكما بسماء مزن مسبل
مسرى النعى ورمه بالموصل

نرى الباحثرى يرثى الشاعرين العظمين معاً فى مقطوعة واحدة
(أبا تمام ودعبل الخزاعى) ويعلن عن حزنه ولوعته لفراقهما
ويتعرض لفضائلهما ميرزاً تفوقهما فى المعانى المستحيلة البارعة
والشعر العبرى الرائع، ثم يدعو بالسقيا لتبريهما على عادة الشعراء
القدامى ويوضح المكان الذى دفن فيه كل منهما، حيث دفن دعبل
بالطيب قرب الأهواز ودفن أبو تمام بالموصل .

ويعد أبو تمام من أكثر الشعراء رثاءً أو تأبيناً من جانب
إخوانه الشعراء حيث رثاه معظم الشعراء الذين عاصروه أمثال :
"على بن الجهم" والحسن بن وهب وغيرهما من شعراء عصره .
ومن رثاء الشعراء قول "أبى يحيى محمد بن كناسة" يرثى

حمادا الراوية" : (١)

لو كان ينجى من الردى حذر
برحمك الله من أخى ثقة
فهكذا يفسد الزمان ويف
نسى العلم فيه ويدرس الأثر
فالمرثية دعوة إلى التصبر والتأس على فقد هذا الشاعر
الفقيد، ودعوة إلى الله بالرحمة والغفران له، وتوضيح لصفات المرثى
وتبيان لفضله .

ومن ذلك أيضاً قول "أشجع" يرثى "سليماً الخاسر" : (٢)

(١) ص ٢١٠ ج ٢ وفيات الأعيان .

(٢) ص ٢٨٧ ج ١٩ الأغاني .

ياسلم إن أصبحت في حفرة موسداً تريباً وأحجاراً
فكرب بيت حسن قلته خلفته في الناس سياراً
قلته ريباً وسيرته فكان فخراً منك أو عاراً
لو نطق الشعر بكى بعده عليه إعلاتاً وإسراراً

فالمرثية تأبين للميت وإشادة بشعره وشاعريته .

وهكذا رثى الشعراء زملاءهم الشعراء وتفيض كتب الأدب^(١) بذلك، فضلاً عن رثائهم لعلماء الدين وعلماء اللغة والأدب كما أوضحنا ذلك من قبل، إلا أنه يلاحظ في رثاء العلماء والأدباء أن الشعراء يتعرضون للمناقب والفضائل والمآثر أكثر من الهكاه والندب والعيول والتفجع .

رثاء النفس :

بعد رثاء الشاعر لنفسه من موضوعات الرثاء القديمة التي عرفت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، فقد كان من الشعراء الجاهليين من رثى نفسه مثل الشاعر : يزيد بن حذاق ، كما عرف العصر الإسلامي رثاء النفس ورثى بعض شعراء العصر أنفسهم مثل : الشاعر : مالك بن الريب الذي رثى نفسه بقصيدة طويلة رائعة تعد بحق من عيون القصائد التي قبلت في رثاء النفس^(٢) كما عرف الشعر الأموي كذلك رثاء النفس^(٣)، وفي العصر العباسي شاع هذا اللون من الرثاء على ألسنة شعراء العصر وكثر

- (١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر . تجريد الأغاني ص ٤١٠ و ص ٧١٤ ،
ووفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٧ و ص ٣٥٤ .
(٢) ينظر ص ٨٩ - ٩٣ ج ٤ المنتخب من أدب العرب على سبيل المثال
لا الحصر .
(٣) ينظر ص ١٨٦١ و ص ٢٣٢٨ تجريد الأغاني، على سبيل المثال لا الحصر .

كثرة مفرطة، ولاغرابة في ذلك فإذا كان الشعراء قد رثوا غيرهم من الأهل والأصدقاء ويكوا عليهم فمن الأولى والأجدر أن يبكي الشعراء على أنفسهم خاصة حينما يحسون يقرب الأجل ونهاية الحياة وحينما يهجم عليهم الموت فلا يجدون من ينقذهم أو يخلصهم منه فلا يجدون أمامهم سوى البكاء على أنفسهم والتوجه إلى الله تعالى كي يغفر لهم خطاياهم. وعصر كالعصر العباسي الأول (الذي شاع فيه اللهو والمجون خاصة بين الشعراء) - أولى بشعرائه أن يرثوا أنفسهم ويبكونها حينما يحسون بدنو الأجل ومصير الموت المحتوم الذي اقترب منهم، هذا الموت الذي لامناص منه ولامهرب، لذا وجدنا كثيراً من شعراء العصر العباسي الأول يبكون أنفسهم ويرثونها ويتدبونتها تدباً حاراً راجين من الله تعالى أن يغفر لهم خطاياهم ويصفح عن ذلاتهم وذنوبهم حتى هؤلاء الشعراء الذين بلغوا المدى في مجونهم وقسوتهم وفحشهم في حياتهم .

فمن رثاء النفس في العصر العباسي الأول ما قاله أبو العتاهية - الشاعر الذي قضى نحو خمسين عاماً في اللهو والمجون ثم عاد إلى ربه وتاب وتزهد في حياته نحو ثلاثين عاماً ونظم ديواناً ضخماً كله في شعر الزهد والحكمة وذكر الفناء والموت ومصير الإنسان في هذا الكون الذي لا يد أن ينتهي لامحالة بالموت - حيث يقول راثياً نفسه : (١)

نعمى نفسه إلى من اللبالي	تصرفهن حسالاً بعد حال
فمالي لست مشغولاً بنفس	ومالي لأخاف الموت مالي
لقد أيقنت أنسى غير باقر	ولكنسى أرانسى لأبالي
أمالي عبسة في ذكر قوم	تفانسوا ربما خطرنا بيالي

(١) ص ٢٣٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

كأن مرمى قد قام يسمى بنمش بين أربعة عجال
وخلفى نسوة يبكين شجواً كأن قلوبهن على المقالى
فالشاعر يبكي على نفسه ويتعاهها ويؤنب نفسه التى لاترعى
وتعتبر بما تشاهده أمامها من افتراس الموت لكثير من القوم، ثم
يتصور الشاعر جنازته وما يحدث له أثناءها، حيث يحمله على
أعناقهم أربعة من الرجال وخلفه النسوة اللاتي يبكين عليه ويندبنه
ندباً حاراً حتى محترق قلوبهم عليه حزناً وكمداً.

ومما قاله أبو العتاهية راثياً نفسه متضرعاً إلى ربه أن يغفر له

ذنوبه قوله المشهور فى مرضه الذى مات فيه : (١)

إلهى لاتعذبنى فإنى	مقربالذى قد كان منى
فمالى حيلة إلا رجائى	لعفوك فاحطط الأوزار عنى
وكم من زلة لى فى الخطايا	وأنت على ذو فضل ومنى
إذا فكرت فى ندمى عليها	عضضت أنا ملئى وقرعت سنى
أجن بزهرة الدنيا جتونساً	وأقطع طول عمرى فى التمنى
ولو أنى صدقت الزهد عنها	قلبت لأهلها ظهر المجن
يظن الناس بى خيراً وإنى	لشر الخلق إن لم تعف عنى

فالمرثية صرخة من الشاعر إلى ربه أن يغفر له ذنوبه وصراخ
وعويل منه على نفسه التى ستفارق الحياة، وتفكر وتدبر فى ذنوبه
التى كانت منه ويطلب من الله غفرانها، وندم منه على فعلها
ورجائه فى ربه أن يغفرها له وإلا فإنه لشر الناس كلهم .

فأبو العتاهية يبكى على نفسه وقد اقترب الموت منه وجلس
على فراشه ويندب نفسه ندباً حاراً بكل مشاعره الجياشة وأحاسيسه
الصادقة فليس هناك تجرمة شعورية صادقة أصدق من هذه التجربة

(١) ص ٥٠٣ مجريد الأغاني القسم الأول .

التي يعيشها الشاعر ويحس بها إحساساً نابغاً من أعماق قلبه،
إنها تجزية الموت الذي سيهدمه ويغنى عمره ويفرق بينه وبين أهله
وأحبابه . وقد رثى أبو العتاهية نفسه ببنتين رائعتين وقال لابنته رقية
أن تربيته وتنديبه بهما وذلك في علقته التي مات فيها وهما : (١)
لعب البلى بمعالي ورسومي وقبرت حياً تحت ردم همومي
لزم البلى جسماً فأوهن قوتي إن البلى لموكل بلزومي

وأمر أن يكتب على قبره هذه الأبيات الرائعة التي رثى فيها
نفسه وفيها العظة والعبرة الكاملة لمن أراد أن يتعظ ويعتبر ويقول
فيها : (٢)

أذن حى سمعنى اسمعنى ثم عسى عسى
أنا رهين بمضجعمى فاحذروا مثل مصرعوى
عشت تسعين حجة اسلمتنى لمضجعمى
كم ترى الحق ثابتاً فى ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقى فخذنى منه أو دعى

فأبو العتاهية يذكر أن الكل مصيره إلى زوال وفناء مهما
عاش الإنسان وعمر طويلاً في هذه الحياة، فقد عاش هو نحو تسعين
سنة أسلمته للموت والقبر، إذن فيجب على الإنسان أن يعمل لقبره
وليس أمامه سوى التقوى والعمل الصالح .
وقد شاع بين الشعراء في العصر العباسي الأول كما شاع في
ماقبله ومابعده من العصور الأخرى كتابة أبيات من الشعر على
شواهد القبور متضمنة العظة والعبرة وذكر الموت والفناء ومتضمنة
الدعاء بالرحمة والغفران للموتى ساكنى القبور .

(١) ص ٥٠٣ مجريد الأغاني القسم الأول .

(٢) ص ٥٠٤ مجريد الأغاني . القسم الأول .

وشارك أبو نواس زملاء شعراء العصر العباسي الأول في هذا اللون من الرثاء - رثاء النفس - وهو الشاعر الذي قضى حياته في اللهو والمجون والتهتك بل إنه جاوز المدى في ذلك، إلا أنه في آخر عمره أحس بالنهاية المحتومة والمصير الذي لا بد أن يصير إليه، مصير الموت وسكن القبر فأعلن التوبة راجياً من الله العفو والصفح نادماً على ماقررت يدها باكياعلى نفسه نادباً لها، ومن ذلك قوله: (١)

رضيت لنفسك سواته	ولم تأل جهداً لمرضاها
وحسنت أقيح أعمالها	وصغرت أكبر زلاتها
وكم من طريق لأهل الصبا	سلكت سبيل غواياتها
فأى دواعى الهوى عفتها	ولم تجرئى طرق لذاتها
وأى المحارم لم تنتهك	وأى الفضائح لم تأنها
وهذى القيامة قد أشرفت	تريك مخاوف فزعاتها

يرثى أبو نواس نفسه ويبكي على ما فرط في حق الله وحق نفسه ويندم على ما اقررت يدها من الذنوب والآثام، ويعترف أنه قد أجرم في حق نفسه بارتكابه المحرمات واتباعه هوى نفسه في كل إثم وغواية، وقد أشرفت نفسه على الموت واقررت قيامتها حيث يرى جزاءه على ما فعل .
فالمرثية بكاء من الشاعر على نفسه وندم على ما قدم في حياته من ذنوب ومحرمات .

وقال يرثى نفسه في مرضه : (٢)

شعر ميت أتك في لفظ حى	صار بين الحياة والموت وقفا
أنحلت جسمه الحوادث حتى	كاد عن أعين الحوادث يخفى

(١) ص ١٣٢ ديوان أبي نواس .

(٢) ص ٤٣٣ ديوان أبي نواس .

لو تأملتني لتثببت وجهي لم تب من كتاب وجهي حرفاً
ولكسرت طرف عينك فيمن قد براه السقام حتى تعفى (١)
يرثي أبو نواس نفسه ويندبها ندباً حاراً في مرضه ويكي
بكاءاً شديداً لمخالته التي هو عليها حيث أنحل المرض جسمه فأصبح
كأنه ليس هو .

ونراه يرثي نفسه حينما يتذكر ذنوبه الكثيرة فيلجأ إلى ربه
داعياً طالباً منه الصفح والمغفرة فيقول في ذلك : (٢)
يسارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فيمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رباً كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالئى إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أتى مسلم

حيث نرى الشاعر يتدب نفسه ويندم على ما فرط في حقه وحق
ربه ويتضرع إلى الله كي يغفر له ذنوبه فهي وإن عظمت فعفو الله
منها أعظم ، وهو وإن أجرم في حق الله وحق نفسه فيمن يلوذ
ويستجير سوى بالله خالقه ، ثم يدعو ويتضرع إليه ويرجوه أن يعفو
عنه فليس له وسيلة إلا الرجا ، وجميل عفو الله تعالى . ثم نراه
ينظر إلى الدنيا التي خدعته بهريقها وجرته إلى متاعها الزائل فيندم
على ذلك ويرثي نفسه قائلاً : (٣) .

أيسارب وجه في التراب عتيق ويسارب وجه في التراب عتيق
ويسارب حزم في التراب ومجدة ويسارب رأي في التراب وثيق
أرى كل حسر هالكاً وابن هالكٍ وإذا نسبت في الهالكين عريق

- (١) تعفى أمحى .
(٢) ص ٥٨٧ ديوان أبي نواس .
(٣) العتيق : الجميل .
(٤) ص ٤٦٥ ديوان أبي نواس .

فقل لقريب الدار: إنك ظاعن إلى منزل نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عسن عدو في ثياب صديق
فأبو نواس يندب نفسه ويندم على ماضى حينما تأمل في
الحياة وخداعها ووجد كثيراً من الأشراف قد اختطفهم الموت وواراهم
التراب، ويرى أنه سيواريه التراب مثلهم فالموت يهلك الأحياء
جميعاً وإن هؤلاء المقيمين في الدنيا سيرحلون إلى القبور لامحالة
ويسكنونها أبداً .

هذه كثير من الأشعار أخذ يرثي أبو نواس فيها نفه ويبيكي
على ماضى من عمره داعياً الله عز وجل أن يعفو عنه ويغفر له
ذنوبه.

ويكأ النفس وراثؤها لم يقتصر على هؤلاء الذين غمرتهم
الذنوب ولجأوا في أخريات حياتهم إلي ربهم يبكون ويندمون
ويطلبون العفو والصفح منه تعالى، بل وجد من الشعراء من رثي
نفسه ويكي عليها مع أنه قضى حياته صالحاً تقياً، ومن هؤلاء :
"الإمام الشافعي" رضى الله عنه حيث قال في مرضه الذي مات فيه
يرثي نفسه ويبيكي عليها ويطلب عفو الله تعالى : (١)

إليك إله الخلق أرفع رغبتي وإن كنت ياذا المن والجود مجرماً
ولما قسا قلبي وضاق مذاهبي جعلت الرجسا مني لعفوك سلماً
تعظامتني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
إلى أن قال :

قيالبت شعري هل أصير لجنة قالله در العارف النذوب إنه
فقالله در العارف النذوب إنه يقيم إذا ما الليل مد ظلامه
ويذكر أياماً مضت من شبابه ويذكر أياماً مضت من شبابه
فصار قريش الهم طول نهاره يقول حبيبي أنت سؤلى ويغيتسى
أهنأ وأما للسعير فأنما تفيض لفرط الوجد أجفاته دما
على نفسه من شدة الخوف ماتماً وماكسان فيها بالجهالة أجرماً
أخا السهد والتجوى إذا الليل أظلم كفسى بسك للراجين سؤلاً ومغتما

(١) ص ١١٤ ديوان الإمام الشافعي -

إلى أن قال :

ومن يعتصم بالله يسلم من السورى ومن يرجه هيهات أن يتندما
مرثية طويلة أخذ يبكى فيها الإمام الشافعى نفسه ويندب
نفسه ندباً حاراً - وهو من هود ديناً وعلماً وتقى - إلا أنه حينما
تجسرت ساعة الإنسان ويرى الموت أمامه فليس أمامه سوى البكاء
على نفسه والندم على حياته والتضرع والتذلل لله خالقه مهما بلغت
درجة إيمانه وعظمت تقواه وقلت ذنوبه وخطاياها، "فقد حدث المرنى
وهو أبو إبراهيم اسماعيل بن يحيى قال : دخلت على الشافعى فى
مرضته الذى مات فيه فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من
الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً وللكأس المنية شارباً وعلى الله جل
ذكره وارداً، ولا والله ما أدرى روحى تصير إلى الجنة أم إلى النار ؟
ثم بكى وأنشأ يقول رثياً نفسه باكياً بهذه الأبيات"^(١).

ف عند الموت يصدم الإنسان ويرى فيه المصيبة الكبرى التى
لامفر منها حيث : يفارق الإخوان والأهل ويترك الدنيا بمناجىها
ولا يعلم مصيره هل إلى جنة أم إلى نار ؟ .
وكانت تعظم مصيبة الشاعر حينما يجد نفسه بعيداً عن أهله
غريباً عن وطنه وقد أشرف على الموت فلا يجد أحداً معه ويتلفت
حوله فلا ينظر أحداً من أهله وأقربائه وأصدقائه فليس معه من
يبكى عليه من الأهل والأصدقاء وليس معه من يعد له القبر ويواريه
وليس معه من يشيعه إلى مثواه الأخير، إنها لحظة شاقة حقاً مؤثرة
على النفس أيما تأثير صعبة على النفس أليمة عليها تزيد ألم الموت
ألماً وجميعته فجيرة أخرى، ومن هنا القبيل ما قاله العباس بن
الأحنف يرثى به نفسه حينما وافاه أجله بعيداً عن أهله وموطنه وهو
فى طريقه للحج حيث فاجأه المرض واشتد عليه ولم يستطع السير

(١) ص ١١٤ ديوان الشافعى .

فوقع على الأرض ونام تحت شجرة وأخذ يبكي ويرثى نفسه ويقول: (١)
ياغريب السدار عن وطنه مفرداً يبكي على شجنه
كلما حسد الكساء به دبست الأسقام فسى بدننه
ولقد زاد الفسؤاد شجسى طائر يبكى على فننه
شفسه ماشفنى فبكى كلنا يبكى على سكنه
فالشاعر يبكى نفسه وكله حزن وحسرة حيث لم يجد أحداً من
أهله بجواره وهو يغادر حياته ممازاده وجعاً وسقماً، ثم نراه يتفاعل
مع الطبيعة ويشركها همومه وأحزانه وآلامه فهو يبكى على نفسه
والطائر يبكى على نفسه قالهم واحد والمصيبة واحدة والخزن يجمع
بينهما مشترك عندهما .

ويرى المسعودى فى مروج الذهب : "أن الشاعر لما فرغ من
هذه الأبيات تنفس تنفساً فاضت نفسه منه، وغسله جماعة من القوم
شاهدوه وكفونوه وصلوا عليه ودفنوه رحمه الله تعالى".
هذا والأمثلة على ذلك كثيرة فى دواوين شعراء العصر
العباسى الأول وكتب الأدب والتاريخ التى أوردت نماذج من
أشعارهم (٢).

رثاء الشباب :

رثاء الشباب من موضوعات الرثاء القديمة التى عرفها الشعر
العربى فى العصر الجاهلى والإسلامى والأموى، وظل رثاء الشباب
فى العصر العباسى الأول بل حتى العصر الحديث، حيث راح
الشعراء يبكون على شبابهم الذى ولى ومضى ويرثون أيام الشباب

(١) ص ٢٦ ج ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) ينظر على سبيل المثال . ص ٣٥٦ ج ٣ وفيات الأعيان . و ٨٧١ مجريد
الأغاني القسم الأول . و ص ١٧٨٩ و ص ٢٢٥٩ مجريد الأغاني القسم
الثانى .

التي انتهت وقضيت ولعل الباعث الذي دفع الشعراء على بكاء شبابهم وراثته وتدهيم لأيام الصبا والشباب هو ماقتله فترة الشباب بالنسبة للإنسان من أهمية فهي أزهى عصور عمره وهي أيام القوة والفتوة في أزهى صورها وهي مرحلة الجمال البشرى بالنسبة للإنسان فضلاً عن أن جزءاً مهماً من عمر الإنسان قد انقضى ولا يرجى أبداً رجوعه فكل مامضى فقد مات وانتهى وبانتها. مرحلة الشباب يحس الإنسان أنه قارب الشيخوخة التي لا بد وأن تنتهي بالموت مع العلم بأن الموت لا يفرق بين الصغير والكبير ولا بين القوى والضعيف إلا أن الإنسان في مرحلة الشباب غالباً لا يفكر في الموت بل يفكر فيه حينما يأخذ منه العمر مأخذة ويحس بأن العمر قد انتهى أو قارب أن ينتهي .

ومن أبرع من بكى الشباب وراثه في العصر العباسي الأول الشاعر العباسي : دعبل الخزاعي حيث قال : (١)

أين الشباب ؟ وأية سلكا	لا . أين يطلب بل هلكا (٢)
لا تعجبي يا سلم من رجل	ضحك المشيب برأسه فبكي (٣)
قد كان يضحك في شببته	وأنى المشيب فقلما ضحكا
يا سلم ما بالمشيب منقصة	لا سوقة يبقي ولا ملكا (٤)
قصر الفوايسة عن هوى قصر	وجسد السبيل إليه مشتركا
وعسلاً بأخرى عز مطلبها	صلاً يظا من دونها الحسكا (٥)

(١) ص ٢٤٩ ديوان دعبل الخزاعي ، محقق / عبد الصاحب عمران الدخيلي الطبعة الثانية عام ١٩٧٢م ، دار الكتاب اللبناني بيروت .

(٢) آية : أي سبيل .

(٣) ضحك المشيب : أي ظهر .

(٤) السوقة : الرعية . (٥) الحسكا : الحسك : نبات له شوك .

بالبيت شعري كيف نومكما يا صاحبي إذا دمسى سفكا
لاتأخذنا بظلامتى أحداً قلبى وطرفى فى دمسى اشتركا (١)
نرى دعبلا الخزاعى يبكى شبابه ويأسى لانتهاته ويحزن حزناً
شديداً عليه ويرى أن الشباب يمثل للإنسان أهمية كبرى وغاية
عظمى فهو أيام السرور والبهجة بخلاف المشيب الذى ينهى السرور
والبهجة، ثم يتذكر الشاعر الموت حينما حل به المشيب ويرى أن
الموت لا يبقى على أحد فهو يقتال الملك كما يقتال الرعية والسوقة
من الناس .

ويذكر أن دعبلا قد سرق معنى "مسلم بن الوليد" حيث
يقول: (٢)

مستعبرىبكي على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب
سرقه دعبل فقال :

لاتعجيبى ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
إلا أنه أجود من قول مسلم فكان أحق به واشتهر به عن مسلم
ابن الوليد حتى صار له .

وقد غنى هذه الأبيات بعض المغنين أمام الخليفة الرشيد فطرب
لها طرباً شديداً وسأل عن ناظمها فقتل له : دعبل فأمر بإحضاره
وأرسل إليه عشرة آلاف درهم وخلعه من الشياب (٣)

وهذا الشاعر العباسى "منصور النمرى يبكى الشباب ويرثيه
رثاءً رائعاً فى مقدمة قصيدة مدح فيها الخليفة الرشيد حيث يقول
فى ذلك يبكى الشباب : (٤)

(١) الظلمية : ما احتملته من الظلم، والمراد هنا موته عشقاً من أثر النظر
بعينه وأحب بقلبه .

(٢) ص ٢٠٨٩ مجريد الأغاني القسم الثانى .

(٣) ص ٣١٩ العصر العباسى الأول د / شوقى ضيف .

(٤) ص ٢٤٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

ماتنقضى حسرةً متى ولاجزع
أودى الشباب وفاتنسى بشرته
ماكنت أو فسى شبابى كنه غرته
إن كنت لم تطعمى ثكل الشباب ولم
إذا ذكرت شباباً ليس يرجع
صروف دهر وأسام لها خدع
حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع
تشجى بغصته فالعذر لا يقع

نرى الشاعر العباسى يبكى شبابه الذى ولى بل إنه يجزع
جزعاً شديداً ويحزن حزناً كبيراً إذا تذكر أيام الشباب الماضية التى
لا يمكن أن تعود، فقد مضى الشباب وانتهى ومضت وانتهت معه
الدنيا كلها، فالشباب رزء ومصيبة يصاب الإنسان بفقدائها، ويفقده
الشباب يحس إحساس الشكلى التى فقدت أعز مالها من رجال
وأبناء .

ويرى ابن المعتز أن الشاعر قد أقام القيامة بحديثه عن
الشباب هذا (١) وحقاً لقد رثى الشاعر الشباب وبكاه بكاءً رائعاً
واستطاع أن يؤثر تأثيراً قوياً في النفس الإنسانية التى تسمع هذه
الآبيات لدرجة أنها لا تستطيع أن تتمتع بعيش أو تحس أو تهناً
بحياة بعد انقضاء الشباب وفنائه .

ويرثى اسحاق الموصلى الشباب ويبكى عليه بكاءً رائعاً حتى
استطاع أن يهز المشاعر والأحاسيس هذا بقوله : (٢)
تولسى شبابيك إلا قليلاً وحل المشيب فصبوراً جميلاً
كفسى حزناً يفسراغ الصبا وإن أصبح الشيب منه بديلاً
ولسا رأى الغانيات المشيد سب أغضبين دونك طرقاتاً كليلاً
سأندب عهداً مضى للصبا وأبكسى الشباب بكاءً طويلاً

(١) ص ٢٤٤ نفس المصدر .

(٢) ص ٦٨٥ مجريد الأغاني القسم الأول .

المرثية بكاء على الشباب وندب على أيامه التي مضت وحزن
وآلام على هذا الشباب الذي كان، وعهد من الشاعر أنه سيظل
يتندب شبابه ويبكيه بكاءً طويلاً .
ويحكي أن الشاعر قد غنى هذه الأبيات أمام الخليفة الوراق
فبكى وحزن وقال للشاعر : والله لو قدرت على رد شبابه لفعلت
ولو بشرط ملكي^(١) .

ويقول "البحتري" يبكي شبابه وينوح عليه : (٢)
عاديستمرأتى فأذنتها بالهجر، ماكانت وماكانت
كانت ترينى العمر مستقبلاً وهي ترينى الفوت مذ شبت
واعمرراه اتوحساً لفقدانه سيان عندى شبت أم مت
فالبحتري يبكى على شبابه الذي مضى ويتدبه ندباً حاراً مؤثراً
ويرى أن المشيب هو الموت نفسه فلا فرق عنده بين المشيب وبين
الموت .

ويقول "أبو محمد القاسم" يرثى الشباب ويبكى عليه : (٢)
ودع شبابه قد علاك مشيب وكذاك كل معمر سيشيب
جازت سنوك الأربعين فأزعجت بلسة الشباب محارب وخطوب
فايك الشباب وماخلا من عهده أيام أنت إلى الحسان طروب
رحل الشباب وحل شيب بعده فمضت لذاذات وصد حبيب
لهقى على صدر الشباب فإنه يكفيك إذ غصن الشباب رطيب
مابعد شيبك غير لومك فاتخذ زاداً لنفسك فالرحيل قريب
ماهذه الدنيا بسدار إقامة لاتوطنن بها وأنت غريب

(١) ص ٦٦٥ نفس المصدر .

(٢) ص ١٦٨ - ١٦٩ الأوراق للصولي .

نرى الشاعر العباسى يبكى الشباب بكاءً حاراً ويندب عليه ويتوجع لفقده، ويرى فى انتهاء الشباب وقدم المشيب انتهاءً لعمره وانقضاءً لحياته، فبعد انقضاء الشباب وقدم المشيب يجب على الإنسان أن يتجهز للرحيل الأبدى .

إنها صرخة من الشاعر على شبابه الذى انتهى ودعوة إلى النفس لأن تنهياً للموت بعد انتهاء الشباب وإحلال المشيب . وهكذا رثى الشعراء العباسيون شبابهم وكوا عليه وندبوه ندباً حاراً مصورين المشيب بالموت نفسه أحياناً ويصورونه بالندير إلى الموت أحياناً أخرى، فذهاب الشباب يعنى ذهاب العمر وانقضائه، فالشباب يعنى الحياة بكل معانيها .

«الفصل الرابع»

الرتاء السياسي فق الحجر العباسي الأول

«الرتاء السياسي»

أقصد بالرتاء السياسي : هذا اللون من الرتاء الذي يتناول الشخصيات الحاكمة فى الدولة من : خلفاء ووزراء وقواد وولاة وغيرهم من كبار رجال الدولة بالبيكاء عليهم وتأيينهم والعزاء فيهم فضلاً عن رتاء الأئمة من آل البيت النبوى وشيعتهم وتديبهم والتفجع عليهم فى شعر رثائى تفوح منه رائحة السياسة بل والعقيدة السياسية التى آمن بها الشاعر وأهدافه وآراءه السياسية التى اعتقدها .

فالرتاء السياسى هو هذا اللون من الرتاء الذى نظم بدوافع سياسية أو دعى إليه منصب سياسى أو كان المرثى من رجال السياسة والحكم فلولاً وجوده فى هذا المنصب مارثاه الشعراء ويكوا عليه .

ويشمل هذا اللون من الرتاء فى العصر العباسى الأول : رتاء الخلفاء العباسيين ووزاراتهم وولاتهم وقوادهم وكبار رجال دولتهم فضلاً عن هذا الرتاء الذى قيل فى أهل البيت النبوى وأئمتهم وشيعتهم والثانين منهم على الدولة العباسية .

رتاء الخلفاء :

قامت الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ بعد الثورة على الأمويين بقيادة أبى مسلم الخراسانى وعلى أكتاف الفرس ويزعم انتزاع الخلافة من الأمويين الفاصيين وردها لأصحابها الشرعيين من آل البيت النبوى إلا أن العباسيين قاموا بخداعهم واستأثروا بالحكم والخلافة زاعمين أنها حقهم لاحق العلويين، واعتلى أول الخلفاء العباسيين أبى العباس السفاح - كرسى الخلافة العباسية وأصبح خليفة المسلمين الأول فى دولة بنى العباسى إلا أنه لم يستمر فى

الحكم طويلاً فقد توفي عام ١٣٦ هـ وأخذ الشعراء برثونه ويبيكون عليه متفجعين معددين مناقبه وفضائله ذاكرين مثله وصفاته مظهرين ما امتاز به عصره من الأعمال الجليلة واصفين مصيبتهم فيه وصفاً محتزجاً بروح الشكوى والأنين والألم، ومن هذا القبيل قول الشاعر أبي دلامة يرثيه: (١)

أُمسيت بالأبنار يابن محمد	لسم تستطع عن عقرها تحويلاً
ويلى عليك وويل أهلى كلهم	ويلاً وعسولاً فى الحياة طويلاً
فلتبيكين لك النساء بعبرة	ولتبيكين لك الرجال عويلاً
مات الندى إذ مُت يابن محمد	فجعلتسه لك فى التراب عديلاً
إنى سألت الناس بعدك كلهم	فوجدت أسمح من وجدت بخيلاً
ألشقتنى آخرت بعدك للتى	تسدح العزيز من الرجال ذليلاً
فلأحلفن يمين حق يسرة	بالله ما أعطيت بعدك سولاً

نجد "أبا دلامة" يرثى خليفته ويبكى عليه بكاءً حاراً ويندبه تدباً رائعاً وكله مشاعر صادقة وفيه تجاه الخليفة يبكى عليه ويستبكي عليه كذلك، ويصور عظم مصيبتة وهول فجيعة فى الخليفة الذى مات ومات معه الندى والجود فلم يعد هناك بعده من يسأله فيعطيه ولم يعد هناك بعده من هو أجود منه وأسمح، فالشاعر صادق فى رثائه لخليفته معبراً عن مشاعره بكل الصدق والوقار والولاء له حتى أنه كان يتمنى الموت قبله، فهو بعده شقى ذليل .

فالأبيات رائعة فى رثائها بارعة فى إحكام نسجها، توحطها العاطفة الصادقة والمشاعر الحزينة الجياشة مؤثرة تأثيراً عميق الأسى فيمن يسمعها، فقد أبكت هذه الأبيات جميع الحاضرين الذين كانوا يعزون ابنه المنصور فيه حيث أنشدتها أبو دلامة فى هذا المجلس فأبكى الناس قوله (٢) ولاغرابة فى أن يبكى أبو دلامة بشعره الناس

(١) ص ١٢١١ مجريد الأغاني القسم الأول .

(٢) ص ٥٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

فقد كان من الشعراء المجيدين في هذا الفن الشعري، وكثيراً ما بكى السفاح وراثه وأبنته تأبيناً حاراً بكل عواطفه الصادقة ومشاعره الجياشة وشاعريته الأصيلة .

ونرى الشاعر العباسي "حماد عجرد" يرثي "محمد بن أبي العباسي السفاح" بقوله : (١)

ياسمى النبي يابن أبي العبد	ساسى حقت عندى المحذورا
سليتنى الهموم إذ سلبت منى	سك سرورى قلت أرجو سرورا
ليتنى من حين مت ألا بل	ليتنى كنت قبلك المقبورا
أنت ظلتنى الغمام نعماً	ك ووطأت لى وطاً؛ وثيرا
لم تدع إذ مضيت قينا نظيراً	مثل مالم يدع أبوك نظيراً

يرثي الشاعر محمد بن أبي العباس السفاح، مصدراً أبياته بتسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتشريفه وتعظيمه بهذا النسب النبوي، ثم يصور حزنه على هذا الفقيد وهمومه التي جلبها عليه فراقه، ثم نراه يباليغ في حزنه عليه لدرجة أنه تمنى الموت مثله بل إنه كان يتمنى أن يموت قبله، ثم يفصح الشاعر عن سبب حزنه هذا عليه وهو ما كان يلحقه من جود وكرم من المرثي .

ثم خلف "السفاح" أبو جعفر المنصور" الذي يعد المؤسس الفعلي للدولة العباسية، فهو الذي ضبط الدولة ورتب قواعدها وقن القوانين فيها وبلغت الدولة في عهده مبلغاً عظيماً من القوة والاستقرار والتقدم، إلا أنه توفي عام ١٥٨ هـ، فراح الشعراء يرثونه ويكون عليه بكاءً حاراً، مثل : أبي دلامة الذي رثاه بقصيدة جمع فيها بين رثائه وتهنئة المهدي بتوليده الخلافة بقوله : (٢)

(١) ص ١٦٠٣ مجريد الأغاني ، القسم الثاني .

(٢) ص ٦٠ طبقات الشعراء لابن المعتز .

عينان : واحدة ترى مسرورة
تبكي وتضحك مرة، ويسويها
فسويها موت الخليفة محرماً
ما إن رأيت ولا سمعت كما أرى
هلك الخليفة بالامة أحمد
أهدى لهذا الله فضل خلافة
فابكوا لمصرع خيركم ووليكم

بإمامها جذلي وأخرى تذرف
ما أبصرت ويسرها ماتعرف
ويسرها أن قام هذا الأرف
شعراً أرجله وأخر أنيف
فأتاكم من بعده من يخلف
ولذلك جنات النعيم تزخرف
واستشرفوا لمقام ذا وتشرفوا

هذه المرثية تدل على براعة الشاعر ومقدرته الفائقة وقلبه من أدوات التعبير وناصيته الشعر بجميع فنونه وأغراضه، حيث جمع بين الحزن والفرح، والرتاء والتهنئة في قصيدة واحدة وهذا النوع من الشعر لا يقدر عليه إلا مجيد فنان، حيث يعد الجمع بين التعزية والتهنئة من أصعب الرثاء. على الشاعر كما يقول ابن رشيق : "ومن صعب الرثاء أيضاً جمع تعزية وتهنئة في موضع، قالوا لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية حتى أتى عبيد الله بن همام السلولي فدخل وفتح للناس باب القول" (١).

ومن الرائع كذلك أننا لا نرى الشاعر يجعل للرتاء أبياتاً وللتهنئة أبياتاً مستقلة بل نراه يجمع بين التعزية والتهنئة في كل بيت من الأبيات ويذكر المعنيين في بيت واحد، مما زادها روعة وبراعة. وقد أشاد بها ابن المعتز واستحسنها وجعلها من جيد الشعر (٢)، كما أشاد بها كذلك الدكتور شوقي ضيف واستحسنها وجعلها من النوادر (٣).

(١) ص ١٥ ج ٢ العمدة .

(٢) ص ٦٠ طبقات الشعراء .

(٣) ص ٢٩٧ العصر العباسي الأول .

كذلك رثى الشعراء العباسيون الخليفة "المهدى" ويكوا عليه وأبنوه وعزوا خلفه فيه، ومن ذلك قول الشاعر "مروان بن أبي حفصة" يعزى "الهادى" بوفاة المهدي: (١)

لقد أصبحت تختال في كل بلدة	بقير أمير المؤمنين المقابر (٢)
أنته التي ابتزت سليمان ملكه	وألوت بذي القرنين منها الدوائر (٣)
أنته فغالبه المنايا وعدله	ومعروفه في الشرق والغرب ظاهر
ولو كان مجرّد السيوف يردّها	ثنت حدها عنه السيوف البوائر
بأيديها تعطى الصوارم حقها	وتروى لدى الروع الرماح الشواجر (٤)
ولو لم تكن بابنه بعد موته	لما برحت تبكى عليه المنابر

يرثى الشاعر الخليفة رثاءً هو أقرب إلى المدح منه إلى الرثاء. ولولا ما في الأبيات من ذكر للموت والقبر والبكاء لكانت القصيدة مدحة خالصة، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً (٥).

والأبيات خالية من التفجع والحسرة والأسف، بل تراها ذكراً لفضائل الميت وقوراً به حتى بعد موته، بل إن القبور في كل البلاد تفتخر بقبر الخليفة الميت، فالقصيدة أقرب إلى المدح منه إلى الرثاء. وكان الأجلد بالشاعر أن يرثى خليفته ويبكيه بكاء حاراً وينديه ويتفجع عليه ويتحسر فسقد كان شاعره الخاص في حياته ولظالمها

- (١) ص ٤٨ شعر مروان بن أبي حفصة، محقيق / الدكتور حسين عطوان
الطبعة الثالثة دار المعارف .
(٢) تختال : تفاخر .
(٣) ابتزت : سلبت . ألوت به : أهلكته . الدوائر : الدواهي .
(٤) الشواجر : المتداخلة .
(٥) ص ١٤٧ العمدة لابن رشيق .

مدحه بالغرر من القصائد وكثيراً ما نال منه الهبات والعطايا الثمينة فهو البتة مقصر ولا شك في رثاء خليفته .

وهذا "سلم الخاسر" يرثي الخليفة "المهدى" ويؤينه تأبيناً واثعاً حيث يقول في ذلك : (١)

وباكيسة على المهدي عبرى	كأن بها وما جبت جنونا
وقد خمشت محاسنها وأبدت	غداؤها وأظهرت القرونا (٢)
لئن بلى الخليفة بعد عشر	لقد أتى مساعى ما بلينا
سلام الله غدوة كل يوم	على المهدي حين ثوى رهينا
تركنا الدين والدنيا جميعا	بحيث ثوى أمير المؤمنيننا

نجد الشاعر يسيل دموعه على خليفته متفجعاً كله حسرة ولهفة وأسف عليه، معدداً مناقبه الحميدة، داعياً الله عز وجل له مظهرًا عظم المصيبة وهول الفجعة التي حلت بفقد الخليفة، فقد كان رحمه الله هو الدين والدنيا معاً، وصدق الشاعر فقد كان المهدي ورعاً تقياً عادلاً لا يرجو إلا الله ولا يبيحى بعمل سواه تعالى .
فالآبيات تفيض لوعة وحسرة من الشاعر على الخليفة ورثاء بكل الصدق والوفاء والإخلاص وهو في هذا يفصل مروان بن أبي حفصة ويتفوق عليه في رثائه تعبيراً وعاطفة وتصوير حزن وفجعة.

ويلى "الرشيد" الخلافة عام ١٧٠ هـ بعد وفاة "الهادي" ويعد عصره بحق العصر الذهبي طوال حكم العباسيين بما بلغته دولته من تقدم ورقي وازدهار في شتى مناحي الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية فقد عاشت الدولة في أيامه عصر العظمة والأبهة والفخامة والروعة، في كل اتجاهاتها، فضلاً عن شدة ورعه

(١) ص

(٢) الغدائر والقرون : خصال الشعر .

وتقواه وعظمة خشيته لله تعالى فقد روى أنه قضى حياته حاجاً غازياً في سبيل الله تعالى .

ولما توفي رحمه الله عام ١٩٣ هـ رثاه الشعراء ويكوه وتدبوه ندياً حاراً وكان من أكثر الخلفاء العباسيين نصيباً من رثاء الشعراء العباسيين فقد رثاه كثير من شعراء العصر ويكوا عليه وأبنوه تأبيناً رائعاً، منهم الشاعر "عمر بن سلمة" ومن رثائه فيه قوله: (١)

مات الإمام نعم أهد	سل الدين كلهم مصابه
عريسن منه ركابه	فتعطلت منه قبايه
وتفسردت أجناده	وخلا من الحراس بايه
وأقسام فسى ملحوده	لايرحمسى منه إبايه
فى الرمس مقرب المحد	سل لحافسه منه ترايه
ماهابه القدر الذى	أودى به غضاً شبايه
فقد كان كل الناس تر	جسوه وكلهم تهايه
فاعتاقه ريب المنور	ن وحسان من أجل كتابه

فالمرثية طويلة وهذه أبيات منها أخذ فيها الشاعر يرثى الخليفة الرشيد رثاءً حاراً مظهرًا عظم المصيبة التي حلت بموته وموضحاً حول الفجعة التي تمت بعد موته، فأهل الدين كلهم عليه حزين، وأصبح القصر خالياً حتى من الحراس، ثم يصور الشاعر ماكان عليه الخليفة من عظمة وقوة إلا أنه الآن قد وورى فى التراب والتحف التراب وهو الذى كان يخافه كل الناس ويهابونه لعظمتهم ومكانته .

فالشاعر يرثيه بصدق ويؤينه بحق متأثراً بروح الإسلام خاصة فى البيت الأخير الذى يرى أن لكل أجل كتابه، ويرثيه بأسلوب واضح محكم النسيج والعبارة لاتعقيد فيه ولاالتواء أو غرابة فى

(١) ص ١٥١ - ١٥٢ طبقات الشعراء لابن المعتز .

معنى أو لفظ، وقد رثاه رثاءً يتفق ورثاء الملوك والرؤساء الكبار
مظهراً ما كان عليه المرثى من عظمة ومكانة في حياته الأولى .
ومن رثاه أيضاً الشاعر العباسي المشهور "أبو نواس" حيث

يقول يرثيه في بيتين اثنين فقط : (١)

الناس ما بين مسرورٍ محزونٍ وذى سقامٍ يكف الموت مرهونٍ
من ذابَّسَّرُ بدينساءٍ وبهجتها بعد الخليفة ذى التوفيق هارون
نرى الشاعر العباسي أبا نواس وهو الشاعر الذى ملأ الدنيا
فحشاً ومجوناً يشعره فى الخمر والغزل والمجون لم يستطع أن يرثى
الخليفة العظيم "الرشيد" بأكثر من بيتين فقط متكلفاً إياهما ضعيف
العاطفة فيهما لانحسب حزناً له أو حسرة وتفجعاً منه على خليفته،
وتراه يكتفى فى رثائه للخليفة بأن الناس غير مسرورين يفقد الخليفة
الرشيد .

فالشاعر ضعيف العاطفة متكلف فى رثائه وهذا شأن أبى
نواس فى رثائه كله، فهو لم يجد فى هذا الفن ولم يصدق فيه إلا
فى رثائه للخليفة الأمين فى مقطوعة واحدة سوف نذكرها . ومن رثى
الخليفة "الرشيد" الشاعر العباسي "أشجع السلمى" الذى رثاه بأكثر
من قصيدة، ومن قصائده فيه قوله يرثيه : (٢)

اسمع مقالى وأسمع صاحب العيس	باصحاب العيس تخدى فى أزمتهما
تقرأ السلام ولا تسمى على طوس	إقرأ السلام على قبر بطوس ولا
ودونه عسكر جسم الكراديس	إن المنايا أنالته مخالها
والموت يلقى أبا الأشبال فى الحيس	أو قسى عليه الذى أو فى بأشيله
إلى النيس ضياءً غير مقبوس	من كان مقتبساً من نور سابقه
بسامق فى بطاح الملك مغروس	فى منبت نهضت فيه فروعهم
من القواعد قد شدت بتأسيس	والفرع لا يلتقى إلا على ثقة

(١) ص ٦٦٣ ديوان أبى نواس .

(٢) ص ١٢٩ الأوراق ، للصولى .

فى رثائه خليفته يبعث الشاعر السلام إليه فى قبره المقام بمدينة طوس وينعاه ويصف موته حيث أخذته المنايا وافترسته افتراساً بين أهله وعسكره، ثم يعدد الشاعر مناقب الخليفة ويرى أن نوره مقتبس من نور النبي صلى الله عليه وسلم - كقول الشيعة فى أئمتهم - فهو ينتسب إليه وتوره من نوره، وأنه نبت فى بيت الملك. فالشاعر يبكى الخليفة ويؤينه تأبيناً يليق بمنزله ومكانته .

وللشاعر مرثى أخرى فى "الرشيد" بكاه فيها وأبناه تأبيناً حاراً معدداً مناقبه وفضائله وهى مناقب وفضائل تتناسب مع مكانة الرشيد كخليفة عظيم للمسلمين (١) .

كذلك يعد الخليفة "الأمين" من أكثر الخلفاء رثاءً وتأبيناً من جانب شعراء العصر العباسى الأول، فقد راح كثير من شعراء العصر ييكونه بعد موته (عام ١٩٨هـ) ويرثونه رثاءً حاراً، ومن أجود ما قيل فى رثائه قول أبى نواس يرثيه: (٢)

طوى الموت ما بينسى وبين محمدٍ وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عيسرة تستديها أحاديث نعى مالها، الدهر ذاكر
وكننت عليه أحذر الموت وحده فلم ييسق لى شىء على أحاذر
لئن عمرت دور بمن لا أوده فلقد عمرت بمن أحب المقابر

إنها حقاً مرثية رائعة قلباً وقالباً وشكلاً ومضموناً ، فهى تدل على أن الشاعر قد رثى الخليفة وكله حزن وأسى بل آحزان ومأسر رثاء ولهييب الحزن يخرج من بين طيات قلبه وثنائياً فؤاده، رثاء بعاطفة صادقة جياشة تعبر عن مشاعره بكل الصدق وتدل على الوفاء

(١) ينظر على سبيل المثال : الأوراق ص ١٢٨ و ص ١٣٠ و ص ١٤١ ،
ومجريد الأغاني القسم الثانى ص ١٩٦٠ والأغاني ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ص ٣٤٢ ديوان أبى نواس .

والاخلاص والولاء لخليفته الذى وراه التراب. فالشاعر حزين أشد الحزن متألم أقسى الألم لفقد خليفته وطى الموت له، وهو دائم البكاء عليه ودائم التذكار له طوال حياته، وموته لم يعد هناك أحد يخاف عليه الشاعر فقد كان كل همه وشغله وحيه .

وتمتاز الأبيات بفنيتها فى إحكام النسج ومتانة الألفاظ والعبارات ورسانة وجزالة الأسلوب فضلاً عن صدق العاطفة وحرارة المشاعر وتوهج الأحاسيس، فهى قطعة من قلب الشاعر الحزين المللكوم.

لذا رأينا كثيراً من النقاد والأدباء يرفعون شأن هذه المرثية ويشيدون بروعتها وصدقها، فيقول الدكتور طه حسن معقياً على هذه الأبيات : "وأنا أزعج أن أبا نواس لم يصدق فى رثائه إلا مرة واحدة وذلك حين رثى الأمين فى هذه الأبيات فأما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف" (١) .

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن هذه المرثية أجود مرثى الشاعر حيث يقول : "وهو فى مرثيه يمتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة وربما كان أجودها جميعاً مرثيه فى الأمين وهى تفيض باللوعة الحزن العميق من مثل قوله "وذكر الأبيات السابقة" (٢)

كما يشيد بها الدكتور "عمر فروخ" فى قوله : "الرثاء قليل جداً فى ديوان أبى نواس فلم يكن الحزن مذهب أبى نواس ولكن هذا لم يمنع عاطفة أبى نواس من البروز فى هذا الفن، فلقد رثى الأمين فى أبيات قلائل ولكنها مشهورة" (٣) . وأشار إلى الأبيات السابقة التى ذكرناها .

(١) ص ١٣٣ ج ٢ حديث الأربعة .

(٢) ص ٢٣ - العصر العباسى الأول .

(٣) ص ١٠٤ أبو نواس، منشورات دار الشرق الجديد ببيروت، الطبعة الأولى عام

وأنا أتفق مع هؤلاء وغيرهم في روعة هذه الأبيات وصدقها
وبراعتها في مضمونها وأسلوبها، إلا أنني لا أتفق مع قول الدكتور
شوقي ضيف في الجزء الأول من كلامه حيث زعم أن مراثي أبي
نواس ممتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة معصماً القول في مراثيه
كلها، فقد كان أبو نواس سخيلاً أو متكلفاً في رثائه ضعيفاً في
هذا الفن إلا في رثائه للأمين .
ولأبي نواس مرات أخرى في الأمين جيدة فيها الصدق
واللوعة وتوهج المشاعر مثل التي ذكرناها^(١).

ومن بكى الأمين بكاءً شديداً وتفجع وأذرف الدمع أنهاراً عليه
الشاعر "الحسين بن الضحاك" حيث كان كثير المراثي في "محمد
الأمين" شديد الجزع عليه وكان لفرط محبته وجزعه لقتله أنه خولط
في عقله فكان ينكر قتله ويدفعه ويقول : إنه مستتر وإنه قد بث
دعائه في الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره^(٢) .
ومن رثائه فيه قوله :^(٣)

سألوننا أن كيف نحسن فقلنا من هوى نجمه فكيف يكون
نحس قوم أصابنا حدث الدهر سرفظلننا الربيبه نستكيسن
نتمنسى من الأمين إياباً كهسف نفس وأين منا الأمين

فالأبيات بكاء حار من الشاعر على الخليفة القتيل وكلها لوعة
وحسرة عليه وتفويض بمشاعر الحزن الصادقة والألم الممض العميق،
ونجد الشاعر يجزع أشد الجزع على الخليفة ويصدم في عقله صدمة
جعلته يتمنى رجوعه إلى الدنيا من جديد .

(١) ينظر ديوانه : ص ٣٤٣ . وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) ص ٨٥٥ مجريد الأغاني ، القسم الأول .

(٣) ص ٨٥٥ نفس المصدر .

إنه الحزن الذي خيم على قلب الشاعر وعقله، والحب العميق الذي أحب به الشاعر خليفته، حيث أحبه بكل عواطفه ومشاعره مما جعله يتحسر عليه ويتقطع عليه قلبه وتتفطر له الأكباد .
ويبلغ من شدة حزن الشاعر على الخليفة أنه أخذ يهجو الخليفة "المأمون" الذي قتل أخاه "الأمين" ولم يعبأ بذلك مع أنه الخليفة الحاكم.

ومن جيد رثائه أيضاً للأمين قوله فيه : (١)

أعزى يا محمد عنك نفسي معاذ الله والأيسدى الحسام
فهللا مات قوم لم يموتوا ودفع عنك لى يوم الحسام
كأن الموت صادف منك غنما أو استشفى بقربك من سقام
نجد الشاعر يعزى نفسه في موت صديقه الخليفة وكان يتمنى بقاءه حتى ولو مات القوم كلهم أجمعون، فترى إلى أى حد بلغ حزن الشاعر على الخليفة وإلى أى حد بلغ حبه له؟ إنه الحزن الصادق العميق والحب الدائم الذي لا ينتهى ولا ينفذ .
والخليفة العباسى "المعتصم" نال حظاً وافراً من رثاء شعراء العصر له لا يقل حظاً عن "المنصور" والرشيد "الأمين"، فقد راح الشعراء بيبكونه بعد وفاته (٢٢٧هـ) ويرثونه رثاءً حاراً يفيض لوعة وروعة .

ومن رثاء من الشعراء الشاعر الكبير "أبو تمام" بقوله : (٢)

مالدموع تسروم كل مرام والجفن ثاكل هجعة ومنام
يا حضرة المعصوم تريك مودع مسا الحياة وقاتل الإعدام
إن الصفائح منك قد تضدت على ملقى عظام لو علمت عظام
فتسق المدامع أن لحبك حله سكن الزمان وممسك الأيام
ومصرف الملك الجموح كأنه قدزم مصعبه له بزمام

(١) ص ٨٥٥ مجريد الأغاني القسم الأول .

(٢) ص ٢٠٣ ج ٢ ديوان أبي تمام .

هدمت صروف الموت أرفع حائط
دخلت على ملك الملوك رواه
وتشذنت لمقوم القسوم (١)
علقاً ومخلى كل دار مقام
ومعرف الخلفاء أن حظوظها
فسى حيز الإسراج والإجمام
منعت حسى الآباء والأعمام
أخذ الخلافة عن أسته التي

هذه الأبيات من قصيدة طويلة رثى فيها "أبو تمام" الخليفة
"المعتصم" وهنأ "الوائق" بالخلافة ومدحه فيها، فقد جمع الشاعر بين
الرثاء والمدح والتهنئة فى قصيدته مما يدل على براعة الشاعر الفنية
ومقدرته الفائقة فى الشعر وتطوابعه له حسب ما يريد ويرغب فأبو تمام
هو من هو فى عالم الشعر ودنيا القريض بوجه عام وشعر المدح
والرثاء بوجه خاص .

وأبيات الرثاء تفيض لوعة وحزناً وتنبأ على الخليفة العباسي
"المعتصم" وتزخر بالبكاء والعيول من قلب محترق صادق العاطفة
صادق الشاعر والأحاسيس، وكيف لا يكون ذلك كذلك وقد أحب
الشاعر الخليفة حباً عميقاً، وكثيراً ما مدحه وتغنى بانتصاراته على
أهل الكفر والإلحاد فى قصائد رائعة مثل قصيدته التى يقول فى
مطلعها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

والشاعر هنا فى قصيدته التى معنا فضلاً عن أنه بكى
الخليفة ونديه وتفجع عليه فقد أثنى عليه وأبته تأبيناً رائعاً وذكر
مناقبه وعدد فضائله الكثيرة، فقد كان الخليفة: سكن الزمان وممسك
الأيام ومصرف الملك الجموح وأعظم مدافع عن الإسلام وهو ملك
الملوك وهو مفتاح كل باب مبهم وهو الذى علم الخلفاء حظهم فى

(١) تشذنت: تهبأت وتفوضت .

الغزو وبلغ الخلافة بنفسه وبآبائه، ثم يثبث الشاعر الخلافة للعباسيين والخليفة "المعتصم" حيث يرى أنها ميراثهم الذي أورثه الله إياهم وقد جاء القرآن الكريم مبشراً ومؤيداً هذا الحق لهم في سورتي الأنفال والأنعام، حيث قال تعالى في سورة الأنفال: "واعلموا أنما غنمتم من شيء، فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى .. الآية" (١)

وقال في سورة الأنعام: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه .. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلأ فضلنا على العالمين" (٢). حيث جعل لوطاً من ذريته وهو ابن أخيه فأوجب بذلك الميراث والخلافة على هذا الوجه للعباس وأولاده . فالمرثية نذب وتفجع وثناء على الميت ومدح له وإشادة به وعناقبه وإثبات الخلافة له وللعباسيين، ومن أحسن المراثي ما خلط فيه مدح بتفجع على الميت وإذا وقع ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة ونظام غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين (٣) كما في هذه القصيدة .

فالقصيدة رائعة الصياغة بارعة النسيج قد وفق فيها الشاعر وبلغ غاية عظمى في رثائه: فكراً وأسلوباً ومعانٍ وعاطفة ونسجاً. وقد أشاد بها وبروعتها الكثيرون أمثال: أبي إسحاق الحصري القيرواني، حيث عدها من جيد ما قيل في الرثاء الذي جمع بين التعزية والتهنئة بقوله: "ومن جيد ما قيل في ذلك - أي الرثاء - الذي يجمع بين التعزية والتهنئة - قصيدة أبي تمام الطائسي يمدح

(١) سورة الأنفال الآية رقم ٤١ .

(٢) سورة الأنعام من الآية رقم ٨٣ - ٨٦ .

(٣) ص ٩٢٨ ج ٢ زهر الآداب للحصري بتحقيق / على محمد الجماوي .
الطبعة الثانية طبع : الحلبي .

الوائق ويرثى المعتصم^(١) ثم أورد أبياتاً من القصيدة .
ومثل "ابن رشيق القيرواني" الذي جعلها أروع قصيدة في
الرثاء الذي يجمع بين الرثاء والتهنئة مطلقاً، حيث يقول معلقاً على
هذه القصيدة : "صرف الكلام فيها كيف شاء وأظنّب كما أراد
واحتج فيها فأسهب وتقدم فيها على كل من سلك هذه الناحية من
الشعراء"^(٢) أي ناحية الجمع بين الرثاء والتهنئة .
كما أشاد بها الدكتور "شوقي ضيف" وجعلها من بدائع الشعر
الرثائي الذي جمع بين الرثاء والتهنئة^(٣) .

ويقول "ابن الزيات" يرثى الخليفة "المعتصم" ويندبه :^(٤)
قد قلت مذ غيبوك وأصطفقت عليك أيدياً بالترب والطين
إذ هب فنعم المعين كنت على الد نيسا ونعم الظهير للدين
لن يجير الله أمةً فقدت مثلك إلا بمثل هارون
فالأبيات تجمع بين رثاء "المعتصم" وتهنئة "الوائق" وقد أجاد
الشاعر فيها حيث جمع بين التفجع والمدح للمرثى فضلاً عن أنه جمع
بين الرثاء "للمعتصم" والتهنئة "للوائق" في قصيدة واحدة، وإن لم
يبلغ ما بلغه أبو تمام في قصيدته حيث أخذ أبو تمام يرثى الخليفة
ويتفجع عليه ومدحه ويشتم عليه ويهتئ الخليفة الجديد مشيداً به إيماناً
إشادة وذلك من خلال قصيدته الطويلة ذات النفس الطويل في براعة
وروعة في كل عنصر من عناصرها بينما اكتفى ابن الزيات في رثائه
ومدحه على هذه الأبيات الثلاثة وكأنه علم من نفسه التقصير في
ذلك فاكتفى عليها .

- (١) ص ٥٤ ج ١ زهر الآداب، للحمصى . محقق / على محمد الجاوى
الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبي .
(٢) ص ١٥٦ ج ٢ العمدة .
(٣) ينظر العصر العباسي الأول ص ٢٧٤ .
(٤) ص ١٥٦ ج ٢ العمدة .

كما رثى "الحسين بن الضحاك" الخليفة "المنتصر" وهنا
"الواثق" في قصيدة بعينها وكما فعل "البحتري" ذلك في رثائه
للخليفة ومدحه لأحد قواده . (١)

ومن أعظم الخلفاء العباسيين وأكثرهم ندياً ورثاء الخليفة
"المتوكل" الذي تولى الخلافة عام ٢٣٢ هـ وقد ازداد نفوذ الأتراك
وعظم خطرهم في أيامه وقتل الخليفة ولده "المنتصر بالله" بالتأمر مع
الأتراك، ليلة الأربعاء - لثلاث خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ وله إحدى
وأربعون سنة ودفن في القصر الجعفري وهو قصر ابتناه بسر من رأى
ودفن هو "والفتح بن خاقان" وزيره ولم يصل عليهما فكانت خلافته
أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام" (٢).

وقيل إن السبب في قتله أنه قدم ابنه المعتز على المنتصر
"والمنتصر" أسن منه وكان يتوعده ويسبه ويسب أمه ويأمر الذين
يحضرون مجلسه من أهل السخف بسبه فسعى ابنه لقتله" (٣)
حيث تأمر مع الأتراك الذين أحسوا بكره الخليفة لهم ومحاولة
التخلص منهم فقتلوه هو ومن كان معه في القصر الجعفري، وأول
من ضربه "فاغر التركي" حيث ضربه ضربة قطع بها حبل عاتقه
وتلقاه "الفتح" بنفسه فأكب عليه فقتلا جميعاً وبوع "المنتصر" من
ساعته" (٤).

وقد رثاه كثير من الشعراء وبكوا عليه بكاءً حاراً وأذرقوا
الدمع عليه أنهاراً خاصة هؤلاء الشعراء الذين حضروا واقعة مقتله

(١) ينظر مجريد الأغاني ص ٨٥٧ . وديوان البحتري ج ٢ ص ٨٨٢ .

(٢) ص ٣٥٠ ج ١ وفيات الأعيان .

(٣) ص ٣٥٠ ج ١ نفس المصدر .

(٤) ص ٢١٤ ج ١ زهر الآداب .

وشاهدوا ما حدث للخليفة ورأوا ذلك رأى العين مثل : "البحترى"
"ويزيد المهلبى" وغيرهما من شعراء عصره .
ويعد "البحترى" من أشهر الشعراء الذين رثوا "المتوكل"
ويكوا عليه بكاءً حاراً فى شعر سياسى يفوح منه الثورة على القتل
والدعوة لأخذ الثأر منهم والهجاء لهم. ومن أروع قصائده فيه بل
فى فنه الرثائى بوجه عام قصيدته التى يبذرها بقوله : (١)
محل على القا طول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

حيث ابتدأ القصيدة برثاء القصر وتصوير ما حدث له ثم أخذ
يرثى الخليفة ويكيه ويتدبه ندباً حاراً فى قوله :
وأين عميد الناس فى كل نوبة
تخفى له مقاتله محنت غيرة
فما قاتلت عنه المتون جنوده
ولانصر المعتز من كان يرجمي
تعرض ريب الدهر من دون فتحه
ولو عاش ميت أو تقرب نازح
ولو لعبيد الله عون عليهم
حليم أنلتها الأمانى ومدة
ومقتصب للقتل لم يخشى رهظه
صریح تقاضاه السيوف حشاشه
أدافع عنه باليدى ولم يكن
ولو كان سيفى ساعة القتل فى يدي

تنوب وتاهى الدهر فيهم وأمره؟
وأولى لمن يفتاله لو يجاهره
ولادافعت أملاكه وذخائره
له، وعزيز القوم من عز ناصره
وغيب عنه فى خراسان طاهره (٢)
لدارت من المكروه ثم دوائر (٣)
لضاق على وواد أمر مصادره
تناهت، وحرف أو شكته مقادره
ولم يحتشم أسبابه وأواصره
بجود بها والموت حمر أظافره
ليثنى الأعادى أعزل الليل حاسره
درى القاتل العجلان كيف أساوره

- (١) ص ١٠٤٥ ج ٢ ديوان البحترى .
(٢) فتحه : يقصد الفتح بن خاقان . وطاهره : طاهر بن عبد الله بن طاهر
بن الحسين .
(٣) المائر : الجارى .

حرامٌ على السراح بعدك أو أرى دماً بدم يجرى على الأرض مائره (١)
وهل أرحمى أن يطلب الدم واتر يد الدهر والموتور بالدم واتسره؟ (٢)
أكان ولى العهد أضمر غدرة؟ فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلاملى الباقي تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولأول المشكوك فيه ولا نجسا من السيف ناضى السيف غدراً وشاهره (٣)
لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر هرقتم، وجنح الليل سوداً دياحره
كأنكم لم تعلموا من وليه وناعبه تحت المرهفات وثائره (٤)
واتسى لأرجو أن تسرد أموركم إلسى خلف من شخصه لا يغادره
مقلب آراء تخاف أناته إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره (٥)

المرثية بكاء حار من الشاعر على الخليفة القتيل الذى شاهد قتله وما فعله الأعداء بالقصر فى تلك الليلة، فبعد أن رثى الشاعر القصر ووضع ما طراً عليه بعد قتل خليفته وما أصبح عليه من خراب بعد عمران ومن وحشة بعد أنس وبهجة ومن حزن وكآبة بعد فرح وسرور أخذ الشاعر يبكى خليفته وينعاه وبأسى لمصرعه ويتفجع ويتوجع لمقتله، ثم أخذ يصور كيفية مقتله ويصف الجريمة وصفاً مفصلاً مزوجاً بالأسى والحسرة والحزن الدفين الذى أصاب الشاعر فى خليفته .

والشاعر فى رثائه للخليفة إنما يرثيه بكل الصدق والوفاء والمشاعر الحزينة الجياشة معبراً عن سخطه وغضبه لمصرعه داعياً على القتل بالهلاك والحسران .

(١) المائر : الجارى .

(٢) الوائر : الظالم . الموتور : من قتل له قتيلاً فلم يدرك يدمه .

(٣) وآل : طلب .

(٤) المرهفات : السيوف المرققة الحد .

(٥) الأناة : التمهل والتفرق والحلم . والبوادر : جمع : البادرة وهى الحدة . الأخرق : الأحمق .

والمرثية ليست رثاءً ولا تأبيناً فقط بل هي ثورة عارمة من الشاعر على القتلة ودعوة للثأر والانتقام والقصاص منهم، فما هي إلا قطع من النيران الملتهبة تخرج من أحشاء الشاعر وضلوعه، وما هي إلا قذائف جهنمية تخرج من قلب الشاعر وفؤاده حزناً على الخليفة وألماً لمقتله .

والمرثية سياسية خالصة بكل ما محتويه هذه الكلمة، حيث نرى الشاعر يرثي الخليفة معلناً موقفه السياسي، فهو من أنصاره وأتباعه معارضاً لمعارضيه بل داعياً إلى أخذ الثأر منهم طالباً دماً بدم، وإنه يرجو أن يبقى الحكم في خلفه لا يخرج عنه .

فهذه المرثية من أقوى قصائد الرثاء السياسي التي نظمت في العصر العباسي الأول ومن أروع قصائد الرثاء عند الشاعر بل هي أروعها جميعاً فقد برع في رثاء الخليفة وتديه ندباً حاراً مصوراً المصيبة تصويراً يمتزج بالحزن العميق والأسى العظيم، وموضحاً عظم المصيبة وهول الفجيعة، ومعلناً عن حبه للخليفة ووفائه العظيم له لدرجة أنه استعدى الخليفة الجديد "المنتصر" وهجاه ودعى عليه بل دعا لأخذ الثأر منه هو ومن معه من الأتراك على الرغم من أن الملك في أيديهم وهم أصحابه .

وقد استطاع "البحترى" بمقدرته الفائقة أن يصور المصيبة التي أحلت بقتل الخليفة تصويراً رائعاً كما استطاع أن ينقل إلينا مشاعره الجياشة وعاطفته الصادقة ووفائه العظيم لخليفته وبكائه الغزير عليه في قصيدة رائعة في صورها وأفكارها ومعانيها وألفاظها بل في وزنها أيضاً حيث اختار لها بحر "الطويل" الذي يتلأم وشعر الرثاء ففي طوله مجال واسع لإخراج الآهات والزفرات ومتسع رحب للتعبير عن كل ما يختلج في نفس الشاعر من أحزان وآلام، وإذا كان الشاعر لم يستطع أن يسجل في قصيدته صفات الخليفة وفضائله ومناقبه فما ذلك إلا لأن الحزن والألم الشديدين اللذين أصاباه قد

شغلاه عن ذكر هذه الصفات والمناقب. فالشاعر متألم أشد الألم حزين أشد الحزن لمصرع الخليفة على هذه الشاكلة التي مثل فيها ابنه أحد أطراف الغدر والإجرام. والشاعر قد أصابته الدهشة والصدمة من هول هذا المنظر الذي شاهده ورآه بعينى رأسه، فليس فى تفكيره وشغله إلا البكاء على الخليفة وندبه وتصوير مقتله والثورة العنيفة على هؤلاء الذين أجرموا فى حق خليفته هذا الجرم الشنيع أمامه .

فالقصيد رائعة شكلاً ومضموناً ، قلباً وقالباً، وقد أشاد بروعتها كثير من النقاد أمثال : "الحصرى القيروانى" الذى عدها من أجود ما قيل فى شعر الرثاء "وأبى العباس ثعلب" الذى يقول فيها :
ما قبلت هاشمية أحسن منها وقد صرح فيها تصريح من أذهلت المصائب عن تخوف العواقب" (١) ، كما أشاد بها "أحمد أمين" (٢) والدكتور "شوقى ضيف" (٣) وغيرهم من النقاد والباحثين .
ومن رثى "المتوكل" ويكى عليه الشاعر "أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى" حيث قال يرثيه: (٤)

ولا كمن فقدت عينى مفتقد	لا وجد إلا أراه دون ما أجد
كما هو من عض الزبية الأسد (٥)	لا يمدن هالك كانت منيته
هلا أنته المنايا والقنا قصد	جاءت منيته والعين هادية
لم يحمه ملكه لما انتضى الأمد	فخر فوق سرير الملك منجدلا
إذ لا بهزم إلى الجاني عليك يد	لا يدفع الناس ضيماً بعد ليلتهم
وليس فرقك إلا الواحد الصمد	علتك أسياك من لادونه أحد

(١) ينظر ص ٢١٥ - ٢١٦ ج١ زهر الآداب .

(٢) ص ١٢ ج١ ظهر الإسلام .

(٣) ج٢١٤ العصر العباسى الثانى .

(٤) ص ٢١٧ - ٢١٨ ج١ زهر الآداب .

(٥) المعضاة : أعظم الشجر . والزبية : الرابية لا يعلوها ماء .

إذا بكيت فإن الدمع منهسل
إنا فقدناك حتى لا اصطبار لنا
وإن رثيت فإن الشعر مطرد
ومات قبلك أقوامٌ فما فقدوا
قد كنت أسرف في مالي فتخلقه
فعلمتسى الليالي كيف أقتصد
يبكى الشاعر على الخليفة المتوكل (وكان قد حضر قتله مع
"البحتري" فاختمى أحدهما في طي الباب والآخر في قناة الشاذروان)
ويندبه ندباً حاراً ويصور مقتله ويصف المصيبة وصفاً يمتزج بالأسى
والحزن مثنياً على الخليفة مادحاً له معدداً فضائله ومناقبه، فهو
لا يعلوه أحد إلا الله تعالى، وأنه العظيم الذي أحس بفقده ولم
يشغل أحد مكانه، وأنه الكريم الذي أظل الشاعر بعطايه.

فهو يبكى ويتفجع على الميت ويذكر محاسنه ويشنى عليه
ويعده بخلاف المتوكل الذي لم يتعرض للخليفة بالثناء والمدح، إلا
أن "البحتري" كان أشد حزناً وألماً وحسرة من "المهلبى" واستطاع أن
يصور مقتل الخليفة تصويراً دقيقاً رانعاً فضلاً عن تصوير الحزن
والكآبة التي خيمت على القصر مكان الجريمة فضلاً عن هذه الثورة
العارمة والغضب الشائر والهجم العنيف الذي صبه "البحتري" على
أعداء الخليفة سواء كان ابنه "المنتصر" أم مساعديه من الأتراك .

ومن رثى "المتوكل" وبكاه الشاعر العباسى "إبراهيم بن أحمد
الأسدى" حيث قال يرثيه : (١)

هكذا فلتكن منايها الكرام
بيسن كأسين أروتاه جميعاً
بيسن نساى ومزهر ومسام (٢)
كأس لذاته وكأس الحماس
قدر الله، حتفه فى المنام
سن وبالمراهقات موت الكرام
يقسط فى السرور حتى أتاه
والمنايا مراتب يتفاضل

(١) ص ٢١٥ ج ١ زهر الآداب للحصرى .

(٢) الزهر : العود الذى يضرب به .

لم يزر نفسه رسول المنايا بصنوف الأوجاع والأسقام
هابه معلناً قسداً إليه فسى ستور الدجى بحد الحسام
تختلف هذه المرثية عن مرثيتي "البحتري" و"المهلبى" فلم يتدب
الشاعر الخليفة ويبكى ويذرف الدمع عليه ويصور الفجيعة والمصيبة
تصويراً حزيناً بل نراه يفتخر للخليفة بهذه الميتة التي مات عليها بين
أصدقائه وتدمائه فليس ينال هذه الميتة كل إنسان فلكل ميتته على
قدره وعظمته والمنايا نفسها مراتب تختص كل منها بالذى هو من
حقها ومرتبها، كما يفتخر الشاعر ويشنى على الميت بأنه لم يميت
على فراشه موت الجبناء وإنما مات موت الشجعان حيث قتل
بالسيوف ولم يميت بسبب الأمراض والأوجاع وإن الموت قد هابه
وخشى منه أن يأتيه فى العلاتية بل تخفى فى ستور الليل بحد
السيوف .

فالمرثية ثناء ومدح وتعظيم للخليفة الميت وإظهار لعظمته
وفخر بمكانته وشجاعته حتى إن الموت - وهو الذى لا يهرب أحداً -
قد هاب الخليفة وتنكر إليه بحد السيوف .
إنها روعة ما بعدها روعة وبراعة ما بعدها براعة، فقد صور
الشاعر مصرع الخليفة المتوكل على النحو الذى صرع عليه بهذه
الصورة الجديدة الرائعة .

وقد صور الشاعر هذه المصيبة بأسلوب عذب سهل لاوحشية
فيه ولاغرابة ولاتعقيد أو التواء ويمعان واضحة جديدة فى شعر
الثناء حيث بعد عن الحزن وتصوير الألم وجعل من المأتم منتدى
للثناء على الميت وإظهار مكانته وعظمته .
هذا وقد رثى "المتوكل" كثير من شعراء عصره وأبنوه تأبيناً
حاراً معلنين عن غضبهم لمقتله ومعبرين عن اتجاههم السياسى
وموقفهم الواضح فى الصراع على السلطة" (١)

(١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : ديوان ابن المعتز : ص ٢٢٧ و ص ٢٢١ ص ٢٢٤ .
ص ٣٥٣ ص ٣٥٤ ج ٢ .

ويعد أن اعتلى "المنتصر" - قاتل أبيه المتوكل - عرش الخلافة بأيدي الترك قتلة أبيه لم يمض فيها أكثر من ستة أشهر حيث توفي عام ٢٤٨ هـ وورثه بعض الشعراء - إلا أنه لم ينل من رثاء الشعراء - ماناله أبوه "المتوكل" من رثائهم مما يدل دلالة قاطعة على عدم تعاطف الشعراء معه وميلهم نحوه بل ربما يدل على بغضهم له خاصة بعد مؤامرتة لقتل أبيه، وما قيل في رثائه قول ، فضل ، ترثيه وتبكيه صبيحة قتله: (١)

إن الزمان بذحل كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأسهاناً (٢)
مالي وللدهر قد أصبحت همته مالي وللدهر مال الدهر لا كانا

حيث تبكى "فضل" الخليفة "المنتصر" وترثيه وتتفجع لقتله وتتوجع لفقدته وأخذت تنوح نوحاً باكياً عليه بهذين البيتين معلنة غضبها على الدهر الذي اغتال الخليفة "المنتصر" وكان هناك ثأراً بينهما .

ومن رثاء الخلفاء العباسيين مقالته "البحترى" يرثى الخليفة "الموفق" في قصيدة جمع فيها بين الرثاء "للموفق" ومدح الخليفة "المعتضد" حيث قال يرثى : (٣)
نسعى وأيسر هذا السعى يكفيننا لولا تكلفنا ما ليس يقيننا
نروض أنفسنا أقصى رياضتها على مواتاة دهر لا يواتينا (٤)
فليت مسلفنا الأعمار أنظرتنا مجاملاً فتأني في تقاضينا (٥)

(١) ص ٣١٠ ج ١٩ الأغاني .

(٢) الذحل : الثار .

(٣) ص ٢١٨٧ ج ٤ ديوان البحترى .

(٤) روض أنفسنا : نذلها وتطوعها . المواتاة : الموافقة .

(٥) مسلفنا : مقرضنا . أنظرتنا : أمهلتنا .

إن أنت أحببت أن تلقى ذوى أسفٍ على فقدهم فاحلل بوادينا
رزية من رزايا الدهر شاغلة لناصر الدين عن أن ينصر الدين^(١)
لا عيسن إلا وقد باتت مؤرقة له، ولا قلب إلا بات محزوناً
كأن الذى منه الإخوان إن ستلوا ترك الملام على الإغرام ماعوناً^(٢)

هذه أبيات الرثاء من القصيدة حيث أخذ "البحترى" يرثى فيها الخليفة "الموفق" ويصور عظم المصيبة التى أحلت بفقده تصويراً يمتزج بالأسى والحزن العميق الذى عم الجميع لموت خليفتهم، ثم صور شدة الحزن والألم الذى أصابه وتقنى من الدهر أن يكون قد أمهل موت الخليفة وأن لا يصيبه برزته التى أوقفت نصر الدين بفقد الخليفة، هذا الخليفة الذى حزن عليه الجميع حزناً شديداً. ثم أخذ الشاعر بعد ذلك فى مدح الخليفة المعتضد، وترجع براعة الشاعر فى قصيدته فى جمعه بين الرثاء والمدح والثناء فى قصيدة يعينها لأن ذلك من صعب الرثاء الذى لا يقدر عليه إلا شاعر قنن موهوب أعطى مقدرة فائقة على التنظيم فى شتى فنونه .

ومن رثى "الموفق" عبد الله بن المعتز العباسى حيث قال يرثيه:^(٣)
ألست ترى موت العلاء والمحامد وكيف دفنا الخلق فى قبر واحد
وللدهر أيام تسمى عوامداً ويحسن أن أحس غير عوامد
يرى ابن المعتز أن موت الخليفة الموفق هو موت العلاء والمحامد وأن الخليفة الميت يعدل جميع الخلق فى شخصه، فهم حينما دفنوا الخليفة فى قبره فقد دفنوا فيه الخلق أجمعين، إنها روعة وبلاغة قول

(١) ناصر الدين : هو لقب الموفق .
(٢) الإغرام : التفريم - الماعون : المعروف .
(٣) ص ٣٣١ ج ٢ ديوان عبد الله بن المعتز .

مالها نظير من شاعر البلاغة في عصره عبد الله بن المعتز. ثم يرى أن الدهر لا يدوم على حالة واحدة فقد يسيء إلى البشر متعمداً وقد يحسن إليهم دون أن يفتنوا أو يأخذوا حذرهم .

وابن المعتز تأثر في رثائه للموفق بقول جرير : (١)

إذا غضبت عليك بنو قميم رأيت الناس كلهم غضابا
وقول أبي نواس : (٢)

ليس على الله مستكبر أن يجمع العالم في واحد

كذلك رثى الشعراء الخليفة "المعتضد" وكوا عليه أمثال

الشاعر "أبي العباس الناشيء" حيث يقول يرثيه : (٣)

قالت شريعة ما لجفئك ساهراً
ماقد رأيت من الزمان أجل بي
يانفسي صبراً للزمان وربيه
إن السذى حاز الفضائل كلها
أما السيوف فمن صنائع بأسه
وكان أحداث الزمان عبيده
يقظسان من سنة المضيق قلبه
برعى الضغائن قبل ساعة فرصة
كم فرصة تركت فصارت غصة
ولرب كيد ظل يسجد بعدها
وهى المنايا إن رمين بنبلها
لله درك أى ليست كتيبة
ولقد عمرت ولا حريم معاند

قلقاً وقد هدأت عيون النوم
هذا وتحت الصدر ما لم تعلمي
فهو الملىء بما كرهت فسلمى
هو ذاك فى قعر الضريح المظلم
لسولاه لم يروين من سفك الدم
فمتسى يؤخرهن لا تستقدم
ومعسول للمعسول المتظلم
فإذا رآها أمكنت لم يجحم
تشجسى بطسول تلهف وتندم
فى بشر وجه مطلق متجهم
يرمى فى نفس الأجل الأعظم
والخيل تعثر بالقنا المتحطم
حرم ولا الإسلام بالمستسلم

(١) ص ديوان جرير .

(٢) ص ديوان أبي نواس .

(٣) ص ٧٧٢ ج ٢ زهر الآداب للحصرى .

يبدأ الشاعر قصيدته في رثاء الخليفة "المعتضد" بذكر أمر محبوبته "شريه" وهذا يخالف المألوف عند العرب حيث كانوا لا يقدمون نسبياً قبل الرثاء كما يصنعون ذلك في المدح والفخر والهجاء وغيرها من الأغراض التي غالباً ما كانوا يستهلونها بالنسب وذكر الأحياء ، وذلك لأن الأخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة^(١).

ثم يخاطب نفسه بأن تلتزم الصبر على مصائب الأيام ورزايا الدهر الكثيرة وعليها أن تسلم وترضى بالقضاء والقدر، ثم يأخذ في تأييد الخليفة "المعتضد" ورثائه معدداً مناقبه مشيداً بفضائله ومآثره فهو صاحب الفضائل العظيمة وصاحب الشجاعة النادرة - حيث أبلى المعتضد مع أبيه في حروب الزنج وغيرها بلاءً حسناً وأذاقهم الويل والعذاب في ساحات المعارك التي خاضها حتى خافة الترك وقوادهم وظلوا في رهبة وفزع منه طوال حياته وهم الذين كانوا يملكون ويحكمون من وراء ستار الخليفة منذ عصر المتوكل الذي قتل على أيديهم - وأخذ الشاعر يشيد بالشجاعة التي كانت للخليفة ويظهر ما كان يتمتع به من قوة وبأس زاد بهما عن حياض الإسلام الذي عمل جاهداً على رفع رايته .

فالمرثية تأييد وثناء على الخليفة وإشادة بفضائله ومناقبه وتعداد لصفاته وما كان يتمتع به من سمات عظيمة، وقد تأثر الشاعر في مرثيته بروح الإسلام وتعاليمه : فهو يأمر نفسه أن ترضى بقضاء الله وقدره ويصف المرثى بصفات حميدة حضى عليها الإسلام، بل إنه أثنى على الخليفة وأشاد به لدفاعه عن الإسلام ونصره له .

إلا أنه يلاحظ خلو الأبيات من التفجع والندب والبكاء على الخليفة ولو أنه جمع الندب والتفجع مع التأييد والثناء لكان ذلك أروع وأحسن .

وقال "ابن المعتز" يرثى "المعتضد" ويبكي عليه ويؤينه تأبيناً

حاراً: (١)

يادهر ويحك ما أبقيت لى أحداً
أستغفر الله بلى ذا كله قدر
بساكن القبر فى غيرا مظلمة
أين الجيوش التى قد كنت تسحبها
أين السرير الذى قد كنت تملؤه
أين الأعداى الأولى ذلت صعبهم
إلى أن قال :

ثم انقضيت فلاعيسن ولا أئسر
لاشئى ببقى سوى خير تقدمه
قامهد لنفسك والأقلام جارية
لاتفرحن بدنيسا أنت تاركها
هذه المرثية طويلة اخترت منها هذه الأبيات وهى مرثية رائعة
تجمع بين التحسر والتفجع والتعدد على الميت وإظهار المصيبة وهول
الفجعة وبين التأبين والثناء للميت وذكر فضائله وصفاته الحميدة
وخلاله العظيمة .

وقد بدأ الشاعر مرثيته بمعاتبه الدهر الذى افترس كثيراً من
أهله ثم التفت ثانية واستغفر ربه وجعل ذلك قدراً من الله الذى
رضى به ثم أخذ ينعى الخليفة وينوح عليه نواحاً باكياً معدداً عليه
كالثكالى معدداً فضائله ومناقبه وصفاته ومآثره : فقد كان صاحب
الجيوش العظيمة والكتوز الكثيرة وصاحب سرير الملك الذى كان
يملؤه بهجة ومهابة وصاحب الرجاء والأمانى وصاحب القصور والجنان
والوصائف، وصاحب الجياد والرماح والسيوف والمجانيق فى
ساحات المعارك، صاحب كل هذا ولكن أين هذا الكسل ؟ ذهبت
وانقضت مع صاحبها الخليفة حتى كأنها لم تكن موجودة من قبل .

(١) ص ٣٣٠ - ٣٣١ ج ٢ ديوان ابن المعتز .

ثم يأخذ الشاعر في تعزية نفسه طالباً منها أن ترضى بقضاء الله فكل شيء مصيره إلى فناء وزوال ولا شيء يبقى إلا ما يقدمه الإنسان من الخير وأن على الإنسان ألا يعياً بالدنيا فإنه عما قليل سيتركها ويسكن القبر واللحد .

فالمرثية رائعة بارعة في قالبها وقلبيها ويظهر فيها التأثر بالإسلام ومبادئه في أفكارها ومعانيها، ويظهر فيها بوضوح أثر النكبات والآلام التي أحلت بالشاعر في فقدته للخليفة ويزج مانيها من آلام وأحزان بحكم الحياة ومواعظها وبروح الشكوى والأنين وبعاطفة الحب العظيم والوفاء الحميم والولاء البعيد الذي يظهر بوضوح في نفس الشاعر وقلبه وروحه وفكره .

هذا وقد أكثر ابن المعتز من رثاء الخليفة "المعتضد" وبكاء بكاءً حاراً يدل على حب الشاعر العميق له وحزنه الشديد عليه بعد فقدته (١) .

وكيف لا يرثيه ابن المعتز وببكيه ويزرف الدمع عليه بعاطفة جياشة وقد كان محباً له صديقاً وفاقاً طوال حياته، فكان من الطبيعي ومن باب الوفاء أن يحزن الشاعر لموت الخليفة ويجزع عليه جزعاً شديداً ويرثيه بكثير من المراثي الحارة التي تذيب القلوب وتفتت الأكباد فقد ألف وجمع بينهما الدم والقريب فضلاً عن هذه الصداقة الحميمة التي جمعت بينهما أيضاً .

هذا وقد رثى كثير من شعراء العصر الخليفة "المعتضد" رثاءً سياسياً حاراً تظهر فيه السياسة وتبعاتها وخصائصها في الصفات والسماط (٢) .

(١) ينظر ديوانه ج٢ ص ٣٦٢ .

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : ص ١٠٣٥ ج٢ ديوان ابن الرومي و ص ٧٧٣ ج٢ زهر الآداب للحصري . و ص ١٥٠ ج٢ العملة لابن رشيق .

وكما رثى "المعتضد" رثى من بعده من الخلفاء حتى آخر
العصر العباسى الأول الذى ينتهى عام ٣٣٤ هـ .

وهكذا رثى الشعراء العباسيون الخلفاء وأبتوهم تأبيناً حاراً فى
شعر تفوح منه رائحة السياسة قلباً وقالباً ، فالمرثى رجل سياسة بل
أكبر رجل فى سياسة الدولة وصفات الرثاء صفات سياسية تتلامح
مع منزلة المرثى فى موقعه السياسى، فضلاً عن ظهور الرأى
السياسى للشاعر وما يعتقده من مذهب سياسى معين فى رثائه
للخليفة وبيان موقفه السياسى من الخليفة ومعارضيه .

رثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة :

عرفت كلمة "وزير" في اللغة العربية قبل العصر العباسي الأول حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم في قول الله تعالى على لسان موسى في سورة طه : "واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري وأشركه في أمري"^(١) إلا أنها كانت تطلق على المؤاذر والتصير والمساعد، فلما جاء العصر العباسي الأول أطلقوا هذا الإسم على المستشار الأول للخليفة وسموه : وزيراً فالوزير باعتباره منصباً سياسياً وكونه بهذا المسمى على المستشار الأول للخليفة لم يعرف إلا في دولة العباسيين، فلم يعرفه الأمويون ومن سبقهم، فلما ملك بنو العباس تفرقت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً^(٢)، فلم تكن كلمة وزير بدعاً في العصر العباسي إنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية وتلقيه بهذا الإسم^(٣)، وقد اتخذ الخلفاء العباسيون معظم وزراءهم من الفرس فقلما نجد وزيراً غير فارسي وهذا أمر طبيعي فالدولة العباسية نفسها قامت بسواعد الفرس وبتصرتهم مما جعل الخلفاء العباسيين يقرّبونهم ويقدمونهم لهذا المنصب الخطير في دولتهم، وكان "أبو سلمة الخلال" الفارسي الأصل هو أول وزير في تاريخ الدولة العباسية حيث اتخذته أبو العباس السفاح وزيراً له ثم استوزر من بعده خالد البرمكي وتتابع الخلفاء العباسيون في تقليد الموالى من الفرس هذا المنصب الكبير ومن هؤلاء الوزراء : "أبو أيوب المورياتي" وزير المنصور "ويعقوب بن داود" وزير المهدي و"يحيى بن خالد البرمكي" وزير الرشيد والفضل بن سهل "والحسن ابن سهل" و"أحمد بن يوسف"

(١) الآيات : من ٢٩ - ٣٢ .

(٢) ص ١١٠ ابن الطقطقي .

(٣) ص ١٦٥ ج١ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

وزراء المأمون ، "والفتح بن خاقان" وزير المتوكل وغيرهم حيث كان أكثر الوزراء في هذا العصر من الفرس وظلوا على هذه الحالة إلى أن أخذ المعتصم يفكر في عنصر جديد يعتمد عليه فاتجه نحو العنصر التركي الذي أخذ يقبض على صنائع الأمر خاصة منذ عهد الخليفة "المتوكل" الذي قتل على أيديهم وأصبح لهم السلطان والغلبة منذ عهد ابنه المنتصر حتى أنهم كانوا هم الذين يجبرون الخليفة على تعيين ولي عهده حسب رغبتهم وهواهم .

وبجوار الوزراء جمع كبير من القواد والولاة وكبار رجال الدولة العباسية أمثال : "خازم بن خزيمة" قائد السفاح والمنتصور من بعده ، والفضل البرمكي وجعفر بن يحيى البرمكي قائد المنتصور ؛ و "يزيد المهدي" قائد المنتصور و "معن" و "يزيد بن يزيد الشيباني" قائد المهدي وسعيد بن حرب وإبراهيم بن الأغلب وطاهر بن الحسين وعبيد الله بن طاهر بن الحسين "وعمير بن الوليد" "وعيسى بن يزيد الجلودي" "ومحمد بن حميد الطوسي" "وخالد بن يزيد الشيباني" وابن الزيات "والأفشين" وأبو دلف العجلي" ومحمد بن يوسف "ومحمد بن عبد الله بن طاهر" وأبو أحمد طلحة" وأبو الساج" وغيرهم الكثير والكثير من هؤلاء القواد العظام الذين ظهروا أيام حكم العباسيين .

ومن الطبيعي أن يبكي شعراء العصر هؤلاء الوزراء والقواد ويرثونهم حينما يفارقون الحياة إلا أنه كان من بينهم من رثاه الشعراء وأبنوه وبكوا عليه بكاءً حاراً واستحوذ على قسم كبير من شعر الرثاء يفوق مثله أمثال : "جعفر البرمكي" ومعن بن زائدة الشيباني" ويزيد بن يزيد الشيباني "وحميد الطوسي" ومحمد بن حميد الطوسي؛ وابن الزيات "وعبد الله بن طاهر" وغيرهم من وزراء العصر وولاته وقادته الذين بكاهم الشعراء وأبنوهم تأبيناً حاراً . وقد راح شعراء العصر يرثون هؤلاء الوزراء والقواد والولاة رثاءً حاراً معددين فضائلهم ومناقبهم مشيدين بأعمالهم السابقة

وأمجادهم السالفة مصورين عظم الفجيرة وهول المصيبة التي أحلت
يفقد هذا وفناء ذلك واصفين المصيبة وصفاً يمتزج بالأتين والأسى
مكثرين من صفات المرثى وسماته إلا أن هذه الصفات كانت تتغير
وفقاً لتغير منصب المرثى ووظيفته ومكانته ولكنها كانت في أغلبها
نفس الصفات التي كانت تستخدم في شعر المدح. فرثاء الوزراء
والقواد وكبار رجال الدولة يلتقي مع مدحهم في كثير من الخصائص
والسمات بل إننا لانبالغ إذا قلنا إن مدار شعر الرثاء للوزراء وكبار
رجال الدولة على المعاني التي تبرز في قصيدة المدح لهم .

ولكن ليس معنى هذا أن كل رثاء الوزراء والقواد والولاة ذكر
لفضائل أو تعداد لمناقب أو ثناء ومدح بل كان ذلك هو الأعم
الأغلب في رثائهم بجوار هذا الرثاء الباكي الحزين الذي يصور
الفجيرة ويظهر الأسى والحسرة ويدعو إلى سيل الدموع لفقد وزير
أو قائد أو والٍ .

ومن جيد الرثاء الذي رثى به الوزراء والقواد والولاة ما نظمه
"مروان بن أبي حفصة" يرثى به "معنأ بن زائدة الشيباني" قائد
المنصور المغوار وواليه على اليمن ثم سجستان) حيث يقول مروان
يرثيه رثاء حاراً بقصيدة تعد بحق من عيون الرثاء في عصره :

مضى لسبيله معنٌ وأبقى مكارم لن تبيد ولن تُنالا (١)
كأن الشمس يوم أصيب معنٌ من الإظلام مليسة جلالاً (٢)
هو الجبل السذي كانت نزار تهتد من العدو به الجبالا
وعطلت الثغور لفقد معنٍ وقد يروى بها الأسل النهالا (٣)

(١) تبيد : تفتى .

(٢) الجلال : جمع الجبل وهو الفطاء الذي تلبسه الدابة لتعان به .

(٣) الأسل النهال : الرماح المتعششة إلى الدماء .

وأظلمت العراق وأورثتها مصيبتيه المجللة اختلالاً^(١)
وظل الشام برجف جانباه لركن العز حين وهي فما لا
وكادت من تهامه كل أرض ومن لمجد تسزل غداة زالا
فإن يعمل البلاد له خشوع فقد كانت تطول به اختيالاً
أصاب الموت يوم أصاب معنا من الأحياء أكرمهم فعلاً^(٢)
وكان الناس كلهم لمعن إلسى أن زار حفرتسه عبالا
ولم يك طالب للعرف ينسوي إلسى غير ابن زائدة ارتحالاً

والمرثية طويلة تبلغ أربعة وخمسين بيتاً أخذ الشاعر فيها من أول بيت يرثى القائد المغوار ويؤنه تأبيناً حاراً ويذرف الدمع عليه حتى آخر بيت فيها .

وقد ابتدأ المرثية بنأ بين المرثى وتعداد مناقبه وذكر فضائله وصفاته وكلها مناقب وصفات تتلامم ومكانة المرثى ومنصبه الذي كان يشغله، فقد كان قائداً مغواراً وشجاعاً عظيماً في ساحات المعارك كما كان جواداً معطاءً يعم الجميع بكرمه وعطاياه، وهذه الصفات هي التي أبين بها الشاعر المرثى وعددها له تعديداً، فهو الجبل الذي كان يهد الجبال، ويموته عطلت الثغور، وأظلمت بفقده العراق وظل الشام برجف جانباً وهو أكرم الناس فعلاً وأعظمهم رجالاً .

ويمضي مروان بن أبي حفصة في رثائه يؤين معنا تأبيناً حاراً ويعدد فضائله ويصفه بأوصاف تتلامم ومكانته في المجتمع وتتناسب مع منصبه كقائد عظيم من قواد الدولة العباسية، ثم أخذ يصور عظم المصيبة والفجيعة التي أحلت بفقد معن الشيباني ويصور عواطفه الحزينة نحوه قائلاً :

(١) المجلة : العظيمة .

(٢) الفعال : إسم الفعل الحسن من الكرم والجود .

فلست بمالك عيرات عين
وفي الأحشاء منك غليل حزن
كحمر النار يشتعل اشتعالاً
كأن الليل وأصل بعد معن
ليالى قد قرن به قطالاً
لقد أورتنى وبتى هما
وأحزاناً تطيل بها اشتغالاً^(١)

ويعضى على هذه الشاكلة يصور حزنه لموت المرثى وجزعه الشديد عليه معبراً عن عواطفه ومشاعره الذاتية بكل الصدق والوفاء والولاء. لهذا القائد المغوار ومصوراً عظم الفجيرة التي لحقت به لفقده شخصياً والتي لحقت بالدولة كلها بوجه عام لفقد أحد قوادها العظام الأفتاد.

هذا وقد كان الشاعر رائعاً في مرثيته قلباً وقالباً، صوراً وأسلوباً معاني وأفكاراً، عبارات وألفاظاً، وزناً وقافية، ومن روعتها وحسنها أشاد بها الباحثون والدارسون والأدباء والنقاد، مثل: عبد الله بن المعتز في كتابه طبقات الشعراء^(٢) والدكتور شوقي ضيف وغيرهما وقد استحسنتها الوزير العباسي جعفر بن يحيى البرمكي وطلب من مروان أن ينشده إياها وأجزل له العطاء بسببها حينما دخل عليه بمدحه فقال له: "ويحك أنشدنى مرثيتك في معن:

وكان الناس كلهم لمعنى
إلى أن زار حفرتي عيالاً
فأنشده إياها حتى فرغ من القصيدة وجعفر يرسل دموعه فلما سكن قال: أثابك أحد من ولده وأهله على هذه شيئاً؟ قال: لا.
قال جعفر: فلو كان معن حياً ثم سمعها منك كم كان يشيبك عليها؟
قال: أربعمائة دينار: قال جعفر: لكنى أظن أنه كان لا يرضى لك

(١) ص ٧٩ شعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق / د. حسين عطوان، الطبعة الثالثة دار المعارف.

(٢) ينظر ص ٤٥.

بذلك وقد أمرنا لك عن معن بضعف ماقلت وزدنا نحن مثل ذلك
فأقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تتصرف إلى
رحلك" (١).

وقد رثى الشاعر مروان بن أبي حفصة معنأ بن يزيد الشيباني
بأكثر من قصيدة وأبته فيها تأبيناً حاراً معبراً فيها عن حزنه وألمه
وحسرتة لموته ضافياً عليه الكثير من الصفات التي تتلأم ومكانة
"معن" ومنصبه السياسي الذي كان يشغله في الدولة العباسية (٢).
ومن الشعراء الذين أجادوا في رثاء معن وبرعوا براعة عظيمة
في تأبينه وتصوير المصيبة والفجعة فيه "الحسين بن مطير" في قوله
يرثيه: (٣)

ألسا بمعن ثم قسولا لقبيره	سقتك الغواذى مرعباً ثم مرعباً (٤)
فتى عيش في معروغه بعد موته	كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً (٥)
أيا قبر معن كنت أول حفرة	من الأرض خطت للسماحة مضجعاً (٦)
وبأقبر معن كيف وأرست جوده	وقد كان منه البر والبحر منزعاً (٧)
بلى قد وسعت الجود والجود ميت	ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا (٨)
ولما مضى معن مضى الجود والندى	وأصبح عرنيسن المكارم أجدعا

- (١) ص ٤٥ طبقات الشعراء لابن المعتز .
(٢) ينظر على سبيل المثال : ص ٤٠ و ص ١١٤ شعر مروان بن أبي حفصة .
(٣) ص ١٨٠ جده نهاية الأرب للنويرى .
(٤) الغواذى : السحاب . المربع : مطر الربيع .
(٥) المرتبع : مكان الرعى الخصب .
(٦) خطت : حضرت .
(٧) المذع : الملوء .
(٨) تصدع : تشقق .

نجد "الحسين بن مطير" يرثى معنأ بأبيات لم يبلغه فيها شاعر ولم يصل مثل ماوصل إليه في رثائه وتأبينه، حيث مضى الحسين يرثى معنأ بأبيات رائعة بكل معنى الكلمة، فهو رائع في أفكاره رائع في معانيه رائع في صورته رائع في خياله وتصويره، رائع في أسلوبه وألفاظه .

فالشاعر يدعو لقبر معن بالسقيا وليست أى سقيا بل سقيا السحاب بمطر الريح، ويصف معروفه وكرمه ويبالغ في ذلك فلم يكتف بتصوير معروفه في حياته بل يجعل معروفه ممتداً حتى بعد موته، ويرى أن قبره أول حفرة حفرت للسماحة، ثم يتعجب من أن القبر كيف استطاع أن يوارى معنأ بجوده وهو حفرة ضيقة مع أن البر والبحر على اتساعهما كانا يقيضان بجوده؟ ثم يقول : إذا كان القبر قد استطاع على ضيقه أن يسع جود معن فلائه ميت ولو كان حياً مااستطاع القبر أن يسمعه وإلا لتصدع وانتشرت أحجاره، ويرى أنه يموت معن مات الجود والندى فلا جود بعده ولاندى بعد فقده.

فأى روعة هذه التي ضمتها الأبيات في معانيها وأفكارها وأى بلاغة تلك التي احتوت عليها في تصويرها وخيالها؟ بل أى براعة تلك التي نسجت بها في عباراتها وأسلوبها؟ إنها البراعة المدومة النظر والفصاحة السلسة التي تجرى كما يجرى الماء في النهر .

ولروعة هذه الأبيات جعلها أبو هلال العسكري أرثى ما قبل في الجاهلية والإسلام^(١)، وجعلها صاحب كتاب الأغاني من جيد الشعر^(٢)، وجعلها ابن رشيق القيرواني من أفضل الرثاء^(٣) وجعلها الدكتور شوقي ضيف أروع ما قبل في شعر الرثاء عامة^(٤).

(١) ص ١٨٠ ج ٥ نهاية الأرب . (٢) ص ١٦٨١ مجريد الأغاني .
(٣) ص ١٤٨ ج ٢ العمدة . (٤) ص ٦٤ الرثاء (فنون الأدب العربي)

فهذه الأبيات من أروع ما نظم في شعر الرثاء إن لم تكن أروع بوجه عام، حيث كان الشاعر موفقاً كل التوفيق رائعاً أيما روعة في كل العناصر الأدبية التي يحتوى عليها العمل الأدبي .

ومن رثى معناه أيضاً الشاعر العباسي "سلم الخاسر" حيث رثاه ومالكاً وشهاباً ابني عبد الملك بن مسمع في قصيدة واحدة حيث ماتوا جميعاً في مدة متقاربة فقال يرثيهم مضمناً قصيدته أكثر من مرث: (١)

عين جودي بعيرة تهتان	واتدبى من أصاب ريب الزمان (٢)
وإذا ما بكيت قوماً كراماً	فعلسى مالك أبى غسان
أيسن معن أبو الوليد ومن كا	ن غيائاً للهالك الحيران
طرقتك المنون لا واهى الحيد	سل ولا عاقداً بحلف يمان
وشهاب وأيسن مثل شهاب	عند بئذ الندى وحر الطعان
ذاك معن ثوى بيست رهيناً	وشهاب ثوى بأرض عمان
وهما ما هما لبئذ العظايا	وللف الأقران بالأقران
يسبقان المنون طعنأ وضرباً	ويفكان كل كبل وعان (٣)

الشاعر يجمع في أبياته بين ثلاثة من الموتى يرثيهم واحداً بعد الآخر ثم يصور عظم الفجيعة التي لحقت قبائلهم يفقدهم ويصف المأساة التي أصابت الدولة لفقد بعض أبطالها العظام الذين عرفوا بالقوة والشجاعة في ساحات المعارك والحروب، فتراه يصف المرثى وصفاً يتسم مع مكانته ومنصبه السياسي .

(١) ص ٢٨١ - ٢٨٢ ج ١٩ الأغاني .

(٢) تهتان : منصبة ، وصف بالمصدر .

(٣) الكبل : القيد أو أعظم ما يكون من القيود . العاني : الأسير .

والشاعر متواضع في أبياته فلم يستطع أن يجارى مروان بن أبي حفصة أو الحسين بن مطير في رثائهما لمعن بن يزيد الشيباني بل لم يستطع أن يتعلق بهما في أي عنصر من عناصر العمل الأدبي فقد تفوق عليه الشاعران في الصور والتصوير والأفكار والمعاني والأسلوب .

ومن كبار رجال العصر العباسي الأول وعظماء الدولة العباسية الذين رزئت بهم الدولة وألهبوا بموتهم قلوب الشعراء: "منصور بن زياد" حيث بكاه الشعراء وأبنوه تأبيناً حاراً فمن ذلك قول أشجع السلمى^(١):

أسعدى بالدموع أو بالدماء	ليس هذا ياعين حين إساء
يخسر المسوت في الصخر	سر ويرقى في القلة الملساء
لا استتار منه بأرجاء أرض	لا ولا عصمة بجسوا السماء
يارسولى رب المنون إليه	أى عسر أبحتما للفتساء
ليس تعفو كلوم مصرع منصور	ر كرور الإصباح والإمساء

نرى الشاعر يبكى القائد العباسي ويطلب البكاء من عينه كعادة الشعراء العرب القدماء ثم تتحول المرثية عنده إلى موعظة وحكمة دينية تنفذ من خلالها إلى حقيقة الموت والغناء حيث لا يقدر على الفرار من الموت أحد حتى ولو خرق الأرض ليسكنها أو صعد إلى السماء هرباً من الموت، والشاعر هنا متأثر بروح الإسلام "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة"^(٢).
كذلك رثى أشجع محمداً بن منصور بن زياد ونعاه وأبته تأبيناً حاراً مشيداً بمناقبه وفضائله في قوله يرثيه:^(٣)

(١) ص ١٢٨ الأوراق للصولي .

(٢) سورة : النساء . الآية رقة ٧٨ .

(٣) ص ١٣١ الأوراق للصولي .

أنعى فتى الجود إلى الجود مامثل من أنعى بوجود
أنعى فتى أصبح معروفه منتشراً في البيض والسرود
أنعى ابن منصور إلى مسلم لأسره فتى القصد مصفود
أنعى فتى صن الثرى بعده بقيّة المساء من العود
أنعى فتى كان ومعروفه يملأ مايسن ذرى البيد

وهكذا أخذ الشاعر ينعى المرثى ويبكيه معدداً خصاله ومآثره
مثنياً عليه مبرزاً أهم الخصائص التي تميز بها المرثى في حياته فقد
كان من الشجعان العظماء والقواد الكرماء الذين ملأوا الدنيا
شجاعة وكرماً في عصرهم .

ومن هؤلاء الوجهاء والعظماء الذين برزوا في الدولة العباسية
واحتلوا مكانة رفيعة سامية عند الخلفاء والشعراء على السواء :
القائد العربي "يزيد بن يزيد الشيباني" الذي أخذ حظاً مرموقاً عند
الخلفاء في حياته وعند الشعراء في حياته وبعد مماته فقد كان قائداً
"لمهدى" "والرشيد" من بعده بل كان من أعظم قوادهما .

وقد كان موت يزيد بن يزيد الشيباني فجيحة كبرى ومصيبة
عظيمة عند الشعراء العباسيين الذين غمرهم بجوده وكرمه في حياته
وغمرهم بالحزن والفجيحة فيه بعد مماته، فيزيد بن يزيد قائد عربي
مشهور ووالٍ مرهوب في عهد الرشيد أحبه شعراء العصر بكل
أحاسيسهم وعواطفهم خاصة هؤلاء الشعراء الذين ينتمون في
أصلهم إلى العربية وذلك في عصر كانت الزعامة فيه للعنصر غير
العربي، وبالأخص عند الشاعر "مسلم بن الوليد" الذي كان صديقاً
محبباً إليه وعاش مداخاً له طيلة حياته إلى أن مات قرثاه أحر رثاء
ويكاه أوجع بكاء . ومن ذلك قوله يرثيه : (١)

(١) ص ٥٥ ج ١٩ الأغاني .

أحقاً أنه أودى يزيد
أتدري من نعت وكيف دارت
أحامى المجد والإسلام أودى
تأمل هل ترى الإسلام مالت
وهل شيعت سيوف بنى نزار
وهل تسقى البلاد عشار مزن
أما هدت لمصرعه نزار
وحل ضريحه إذ حل فيه
أما والله ما تنفك عينى
تبين أيها الناعى المشيد
به شفتاك دار بها الصعيد
فعا للأرض ويحك لا تميد
دعائمه وهل شاب الوليد
وهل وضعت عن الخيل اللبود
بدرتها وهل يخضر عود
بلى وتقوض المجد المشيد
طريف المجد والحسب التليد
عليك بد معها أبداً تجود

ويستمر الشاعر فى قصيدته على هذه الشاكلة يرثى بها القائد العربى والصدىق الحميم بكل العواطف والمشاغرة الحزينة والأحاسيس الجياشة المكلمة، يرثيه وقلبه يتقطع عليه حزناً وألماً وببكيه وعينيه تفيض الدمع حسرة ووجعاً لموت القائد العربى المسلم. والشاعر فى أبياته يصور عظم المصيبة وهول الفجعة التى لحقت به ولحقت بالدولة والإسلام بوجه عام فقد كان يزيد قائداً عربياً مسلماً يعمل على رفع راية العروبة والإسلام وظل طوال حياته مجاهداً فى سبيل الله ونصرة الإسلام فيحق للشاعر أن يبكيه بل يحق لقبه الإسلام أن تبكى عليه كما قال الشاعر فى بقية الأبيات.

ونرى الشاعر يصف المرثى بأوصاف تتلام مع منصبه السياسى وموقعه الحربى فهو حامى الإسلام والمجد ووضعت اللبود عن الخيل بعد موته، ويصف المصيبة وصفاً يمزج بالأسى والحزن العميق موضعاً أثر هذه المصيبة على ذاته الشخصية وعلى الدولة العباسية والدين الإسلامى بوجه عام . وللشاعر قصائد أخرى فى رثاء يزيد بن يزيد الشيبانى كلها تنفج وندب وتابين وثناء حار وتعداد لمناقبه وفضائله مظهراً عظم

المصيبة التي أحلت بفقده سواء بالنسبة له شخصياً أو بالنسبة للدولة والدين بوجه عام^(١) .

وينسب صاحب كتاب الأغاني هذه القصيدة للشاعر عبد الله بن أيوب التيمي^(٢) إلا أنه جعلها في رثاء "يزيد بن يزيد الشيباني" أيضاً، وعلى أية وجهة فالشاهد في موضعه والشاعران من شعراء العصر العباسي الأول .

والقصيدة سواء كانت لهذا الشاعر أو ذاك فهي من أجود شعر الرثاء في الشعر العربي كله وقد أعجب بها "الرشيد" وفضلها على قصيدة "مروان بن أبي حفصة" في رثاء معن التي ذكرناها في موضعها، وذلك حينما طلب من رواية أن ينشده مرثية مروان في معن فأنشده إياها ثم قال له : أنشدني قصيدة أبي محمد التيمي في مرثية يزيد بن يزيد فهي والله أحب إلي من هذه فأنشده هذه القصيدة ثم بكى هارون الرشيد بكاء شديداً اتسع فيه حتى لو كانت بين يديه سكرحة للأها من دموعه^(٣) .

ومن بين كبار رجال الدولة العباسية : "يحيى بن خالد البرمكي" والفضل بن يحيى البرمكي وغيرهما من آل برمك الذين ظلوا طوال حكم السنح والمنصور والمهدى والرشيد حتى نكبهم الرشيد نكبه المشهورة فراح الشعراء يبكونهم ويرثونهم رثاء حاراً مؤثراً لهم تأبيناً رائعاً مظهرين مناقبهم وفضائلهم وما كانوا يتمتعون به من عظيم الفضائل وحميد السمائل موضحين دورهم البارز الذي قاموا به

(١) ينظر على سبيل المثال : ص ٤٢ ج ١٩ الأغاني . و ص ١٩٩٥ مجريد الأغاني و ص ٦٦٥ ج ٢ زهر الآداب للحصري .

(٢) ص ٢٠٦٩ مجريد الأغاني القسم الثاني .

(٣) ص ٢٠٦٩ - ٢٠٧٠ مجريد الأغاني القسم الثاني .

والأعمال الجليلة التي شيدها للدولة العباسية أيام حكمهم، ومن
رثاء آل برمك قول الرقاشي يرثي جعفر ابن يحيى البرمكي: (١)
هدأ الخالون من شجوى فناموا وعينى لا يلائمها منام
وماسهرت لأنسى مستهام إذا أرقى المحب المستهام
ولكن الحوادث أرقتنى فلى سهر إذا هجد النيام
أصبحت بسادة كانوا مجوماً بهم نسقى إذا انقطع الغمام
على المعروف والدنيا جميعاً لدولة آل برمك السلام
فلم أر قبل قتلك يا ابن يحيى حساماً فله السيف الحسام
أما والله لولا خوف وأشر وعين للخليفة لاتنصام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

فالمرثية تأبين رائع ليحيى البرمكي وتدب وتفجع عليه وعلى آل
برمك جميعاً، ويعلم الشاعر عن مدى حزنه عليهم وعظم فجيعة
ومصيبة التي أحلت به لفقدهم، فهو حزين لا يهدأ أبداً للنوم بعد
قتلهم وهو دائم السهر والأرق بسبب ما أصابهم من نكبات، ثم يعدد
الشاعر مناقبهم وقضائلهم ويشئ عليهم ثناءً قيماً ويصفهم بأوصاف
تتلاءم مع مكانتهم وعظم قدرهم: فهم السادة وهم النجوم وهم أهل
الكرم والفيض الزاخر الذي عم الجميع بالعطايا والكرم وهم أهل
المعروف والخيرات ويبلغ الشاعر منزلة العظمة والتقديس في وصف
يحيى البرمكي ومدحه حيث يجعله يحتل منزلة ومكانة البيت الحرام
قداسة وتعظيماً ولولا خوفه من الخليفة لطف حول قبره واستلمه كما
يطوف الناس حول البيت الحرام ويستلمون الحجر الأسود.

فأى عاطفة وأى حب ملكاً الشاعر وسيطراً على وجدانه وقلبه
وعقله؟ إنها العاطفة الحزينة الصادقة والحب والوفاء العظيمين حيث

(١) ص ٣٤ - ج ١ وفيات الأعيان لابن خلكان .

يرثى الشاعر يحيى اليرمكى وآله ويتفجع عليه ويصفه بهذه الأوصاف البالغة العظيمة كأنه ملك عظيم بل نبى مرسل له المكانة القدسية العظيمة فى قلوب أمته وأنصاره .
وليس هناك من شك فى أن الشاعر صادق العاطفة جياشها حزين متألم أشد الألم على مرثيه فهو يرثيه بعد غيابه الأبدى عن الدنيا ويرثيه وهو يعلم علم اليقين ما أصابهم على يد الخليفة الذى بيده الأمر وصاحب السلطان المطلق .

وقد وفق الشاعر فى اختيار الألفاظ والعبارات والصور والصفات التى ضمنها أبياته كل التوفيق وجاء التصوير متلاحماً مع التعبير فى وحدة فنية رائعة بكل العاطفة الصادقة والمشاعر الجياشة التى تتجلى فى كل بيت من أبياته .
بل إننا نرى الشاعر يعلن عن مدى حزنه وأساه ويصور ما يختلجه من مشاعر فياضه وأحاسيس جياشة وحزن عميق وقلب مكلوم ويرى المكارم والفضائل قد انتهت والرزايا والمصائب قد صبت صباً فى رثائه "للفضل بن يحيى" ويكائه عليه حيث يقول: (١)
ألا إن سيفاً برمكياً مهنداً أصيب بسيف هاشمى مهند
فقل للعطايا بعد فضل تعطلى وقل للرزايا كل يوم مجددى

فالشاعر يتوح نوح الشكلى ويعدد على "فضل اليرمكى" كما تعدد الحزانى اللاتى فقدن أعز من عندهن .
فالشاعر كان صادقاً فى رثائه ويكائه على "يحيى" والفضل "وآل برمك وكان محباً لهم أعظم حب وكثيراً ما يكاهم ويكى عليهم بكاء مرأى، فقد ذكر أن جعفر بن يحيى لما قتل وصلب اجتاز به الرقاشى وجعفر على الجذع فوقف عليه يبكى أحر بكاء وأنشأ

(١) ص ٣٤٠ ج ١ وفيات الأعيان لابن خلكان .

يرثيه فسى الأبيات الأولى التي ذكرناها^(١) فرثاؤه عن صدق ووفاء وحزنه عن ألم عظيم أصابه في قلبه وعقله وقد هزته المصيبة هزاً وحركته مشاعره وأحاسيسه تحريكاً فذهب يبكي عليهم ويتدبهم مشيداً بهم ويمأثرهم في شعر رثائي رائع .

ويعد "الفضل بن سهل" (وزير الخليفة المأمون وصاحب النهى والأمر في عهده) من أعظم رجال الدولة العباسية وقد حظى بحب عظيم من جانب الشعراء الذين أحبوهم وراحوا يمدحونه بغرر المدائح في حياته كما راحوا يرثونه ويبكون عليه بكاء حاراً بعد مماته وقد رثاه كثير من شعراء عصره رثاء حاراً وأبنوه تأبيناً عظيماً مشيدين بأعماله وأمجادهم ومعددين فضائله ومناقبيه، ومن هؤلاء الشعراء العباسيين الذين رثوه ويكوا عليه "مسلم ابن الوليد" وما قاله في رثائه قوله :^(٢)

ذهلت قلم أتقع غليلاً بعيرة وأكبست أن ألقى بيومك ناعياً
فلما بدالى أنه لاعمج الأسي وأن ليس إلا الدمع للحنن شافياً
أفمت لك الأنواح ترتد بينها ماتم تندبسن الندى والمعاليا
وما كان منى الفضل منعا واحداً ولكن منسى الفضل كان مناعيا
ألبأس أم للجسود أم لمقاوم من الملك يزحم الجبال الرواسيا
عفت بعدك الأيام لا بيل تبدلت وكن كأعساد فعدن مباكياً
فلم أر إلا قبل يومك ضاحكاً ولم أر إلا بعد يومك باكياً
المثية بكاء حار من الشاعر على الوزير الميت وتذبّ وعويل
وولولة وحسرة عليه ونواح وصراخ عالٍ على فقده : فالشاعر فجيعته
شديدة الوقع على نفسه بعد قتل الوزير وأصابته الصدمة فأذهلت له
وحيرت عقله وأحلت به كارثة رهيبة فلا يستطيع إلا البكاء والنواح

(١) ص ١٧٣ مجريد الأغاني في القسم الثاني .

(٢) ص ٥٦ ج ١٩ الأغاني . طبعة دار الكتب .

والعويل والولولة والتأوه المنبىء عن عظيم الحسرة والوجعة التى سكنت أحشاءه، فكأنه لم يفقد صديقاً ووزيراً بل فقد حبيباً غالباً عليه وفجع فى عزيز لديه حيث أخذ ينوح ويولول ويذهب فكره ونفسه فى عاطفة الحزن والهم فلا يصدر عنهما إلا ما كان صدقاً لهذا الحزن والهم الدفين، فالأبيات تزخر بالبكاء وتفيض بالدموع وتتن بالحسرات وترتعد من هول المصيبة وعظم الفجعة، وتنبئ الأبيات عن عظيم الوفاء وخالص الإجلال للوزير المرثى حيث رثاه بعاطفة موهلة فى صدقها وعشاعر عميقة فى حبها وتقديرها للوزير موضوع المصيبة .

ونرى الشاعر فى مرثيته يجمع بين التدب والتفجع والتأبين والثناء على الميت فالوزير المرثى هو صاحب البأس وصاحب الجود وحامى الخلافة والمملك، وأروع الرثاء وأجوده ما جمع فيه الشاعر بين التدب والتأبين .

ومن هؤلاء العظماء الذين برزوا فى مرثى شعراء العصر العباسى الأول وأخذوا نصيباً كبيراً فى بكاء الشعراء عليهم : القائد العربى المسلم : "خالد بن يزيد بن يزيد الشيبانى" (قائد المأمون والمعتصم) الذى كان له باع طويل فى ساحات المعارك ويد طويل فى تاريخ الحروب، فقد أكثر الشعراء من رثاء "خالد بن يزيد الشيبانى" ويكوا عليه بكاء حاراً وأزرقوا الدمع عليه أنهاراً بقدر ما أذرف الدماء من الأعداء فى ساحات الحروب، وكان "أبو تمام" الشاعر العباسى المشهور من أبرز الشعراء الذين رثوه ويكوا عليه حيث رثاه بأكثر من قصيدة بكاء فيها بكاء حاراً وأبته تأبيناً عظيماً يتلاءم مع مكانة الميت ومنصبه كقائد عربى مسلم من قواد الدولة العباسية وأظهر مآثره وأوضح فضائله وما كان يتمتع به من شدة بأس وشجاعة نادرة فى ساحات المعارك وما كان يتميز به من خلال حميدة اتصف بها من مروءة ووفاء وكرم وغيرها من الصفات الحميدة.

ومن رثائه له قوله من قصيدة طويلة يرثيه فيها : (١)

تَعَا - إلى كل حى نعا .	فتى العرب احتل ريع الفناء . (٢)
أصينا جميعاً بسهم النضال	فهلا أصينا بسهم الغلاء . (٣)
ألا أيها الموت فجمعتنا	بماء الحياة وماء الحياء . (٤)
فماذا حضرت به حاضراً	وماذا خبات لأهل الحياء . (٥)
على خالد بن يزيد بن مز	يد امر دموعاً نجيعاً بيا . (٦)
فقد كثر الرزء قدر الدمو	ع وقد عظم الخطب شأن الكبار
فباطنه ملجأ للأسى	وظاهره ميسم للوقاء . (٧)
مضى الملك الوائلى الذى	حكيتاً به العيش وسع الإنا . (٨)
سئل الملك عن خالد والملوك	بقمع العدى وينقى العدا . (٩)
ألم يك أقتلهم للأسود	صبراً وأوهبهم للظبا .

(١) ص ٥ - ٣٦ ج٤ ديوان أبى تمام .

- (٢) النعى : رفع الصوت بالشىء ومعنى نعا : أى انع . والريع : المنزل . واحتل : أى حل بالمكان .
- (٣) سهم الغلاء : من قولهم غاليت الرجل إذا رمى ورميت لتنظر أيكما أبعد موقع سهم فى الأرض .
- (٤) ماء الحياة : ما كان الناس يقيمون حياتهم به . وماء الحياء : ما يعطى بلا سؤال فيصون وجوه الناس عن الطلب .
- (٥) حضرت : صنعت . أهل الحياء : أهل البدو .
- (٦) أمر : اسكب .
- (٧) الميسم : العلامة .
- (٨) الوائلى : نسبة إلى جده وائل بن عمرو .
- (٩) الغدا : الظلم .

ألم يجلب الخيل من بابل شواذب مثل قذاح السراء (١)
فعد على الثغور أعصارها برأى حسام ونفس فضاء

والمرثية طويلة تبلغ أربعة وستين بيتاً أخذ فيها أبو تمام يرثي القائد العربي المسلم "خالد بن يزيد الشيباني" ويجمع فيها بين الندب والتفجع والتأبين والثناء على الميت وإن كان عنصر التأبين والثناء يحتل النصيب الأكبر من أبيات المرثية حيث أخذ يؤين المرثي ويعدد مناقبه وفضائله ومآثره ويصفه وصفاً يتناسب مع مكانته ومنصبه السياسي كقائد عظيم من قواد الدولة العباسية، فهو ينعى فتى العرب وقد كان المرثي جواداً كريماً يعطى بلا سؤال، ثم يبكي عليه ويعلن عن حزنه وأساه ويرى أنه إذا بكى وأظهر الجزع أعلم ذلك قدر وفائه فيقدر الدموع يعلم قدر الرزء والخطب، ثم أخذ الشاعر يبرز ما كان يتمتع به من شجاعة وقوة حيث فتك بالعدو وأنزل الظلم عن المظلومين وكثيراً ما نقل الشجعان من الأعوان وكثيراً ما جيش الجيوش ليحمى الثغور ويؤمن أركان الدولة. ويضئ أبو تمام على هذه الشاكلة في مرثيته في تأبين مرثيه مشيداً به وبأعماله وأمجاده السابقة وفضائله وخلاله التي كان يتميز بها كقائد عربي مسلم وكلها صفات تتلاءم مع مكانة المرثي ومنصبه السياسي في الدولة.

وقد استطاع أبو تمام أن يصور جانب البطولة والشجاعة وغير ذلك مما كان يتمتع به المرثي من صفات تصويراً رائعاً بأسلوب رائع محكم رصين معتمداً على التشخيص والتشبيه وبعض ألوان البديع التي وقعت موقعها الملائم والتي زادت من حسن الأسلوب وروعته وبلاغته .

(١) شواذب : ضواير . السراء : شجر يعمل من القس والقذاح .

وهكذا كان أبو تمام رائعاً بارعاً في رثائه للقائد العربي شأنه في كل مراثيه التي أجادها وبرع فيها براعة معدومة النظير فهو لايجارى في رثائه كما لايجارى في مدحه وقد كان بصيراً بأمور الرثاء عليمًا بخفاياه بما جعله متمكناً أيما تمكن في نظم هذا اللون من الشعر .

وللشاعر نماذج أخرى رثى فيها هذا القائد ويكى عليه وأبنته تأبيناً رائعاً مثنياً عليه مشيداً بأعماله مصوراً لبطولاته التي كانت قبل مجاته (١) .

ومن قواد الدولة العباسية العظماء الذين يكاهم الشعراء وأعولوا عليهم وأكثروا عويلهم "حميد الطوسي" أحد عظماء القواد الذين عرفتهم الدولة العباسية وكانت له يد طولى في الدفاع عن الدولة وتأمينها وسلاح محدود على كل الخارجين عليها والطامعين فيها، ولما مات رثاه الشعراء رثاء حاراً وأبنوه تأبيناً رائعاً أخذين في تعديد فضائله ومناقبه وما قام به من بطولات وأمجاد سواء في ساحات المعارك أم على صعيد الحياة السياسية والاجتماعية للدولة العباسية، ومن أروع مراثي به قصيدة الشاعر "على بن جبلة" الملقب: "بالعكوك" وهي مرثية وحيدة في شعره الذي وصل إلينا حيث يقول فيها راثياً حميداً الطوسي: (٢)

ألدهر تيكى أم على الدهر مجزع وما صاحب الأيسام إلا مفجع
ولو سهلت عنك الأسي كان في الأسي عزاء معسر للبيب ومقنع
أصبنا بيوم قى حميد لو اتسه أصاب عروش الدهر ظلت تضعع

(١) ينظر على سبيل المثال : ص ٦٥ جزء ديوانه .

(٢) ص ٨١ - شعر على بن جبلة ، تحقيق / الدكتور حسين عطوان
الطبعة الثالثة : دار المعارف .

إلى أن قال :
وكان حميداً معقلاً ركعت به قواعذ ماكانت على الضيم تركع

ومضى الشاعر في قصيدته نادياً مؤثراً للقائد العربي حميد الطوسي تأبيناً حاراً معدداً كل فضائله وشماله من شجاعة وفتوة وقدرة فائقة على القتال في ساحات الحروب وشهامة وبسالة وقيادة حكيمة للكثائب وانتزاع النصر والصمود تجاه الشدائد والمحن فضلاً عما يتميز به من صفات: الكرم والمروءة وحماية الأعراس وإغاثة الملهوف والأخذ بيد الضعيف وغير ذلك من الصفات والخلال التي أبرزها الشاعر في رثائه، كما نراه يصف المصيبة ويصور الفجعية تصويراً مزوجاً بالحزن والأسى مبرزاً عظم هذه المصيبة التي أحلت بفقده على الأفراد والدولة مجتمعة وعلى شخصه هو، ثم نراه يهون في آخر الأبيات على العرب والمسلمين من هول هذه المصيبة التي أصابتهم بفقده هذا القائد العربي المسلم وكأنه يعزبهم ويدعوهم إلى الصبر وتحمل هذا الحادث الجلل، مردداً أن الله تعالى قد عوضهم بابنه محمد فهو خير خلف لخير سلف وأن الله تعالى قد عوض الأمة كلها في ولده لأنه لا يقل شأناً عن أبيه شجاعة وفتوة وإحكام قيادة.

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني هذه القصيدة بأكملها في كتابة الأغاني وعلق عليها بقوله : وإنما ذكرت هذه القصيدة على طولها لجودتها وكثرة نادرتها وقد أخذ الباحثون أكثر معانيها فسلخه وجعله في قصيدته اللتين رثى بهما أبا سعيد الثغر :

"أنظر إلى العليا، كيف تضام"

"بأى أسى تشنى الدموع الهوامل"

وقد أخذ الطائي أيضاً بعض معانيها (١)

(١) ص ٢٧ - ٢٩ ج ٢٠ الأغاني .

وقد جعلها ابن واصل الحموي من جيد الشعر ونادره وأوردها أيضاً في مؤلفه (١) .
والحق كل الحق أن القصيدة رائعة في كل عناصرها صوراً وأفكاراً ومعان وأخيلة وبارعة في أسلوبها وعباراتها والشاعر قد وفق فيها أعظم توفيق وتفوق فيها تفوقاً بعيداً .
ومن قواد العصر العباسي الأول البارزين والذين احتلوا مكانة كبيرة في مراثي شعراء هذا العصر وأخذوا نصيباً وافراً في بكائياتهم القائد العربي المسلم المشهور "محمد بن حميد الطوسي" أحد قواد المأمون ومن أشهر أبطال الدولة العباسية الذين أسهموا بتصيب كبير في تأمين الدولة وتأديب الخارجين والمعتدين عليها وكثيراً مادوخ الجيوش وأرهب مضاجع الأعداء . وأذهب النوم من أعينهم والراحة من نفوسهم .

من أجل هذا ومع ما كان يتمتع به من جود وكرم عظيم تعلق به الشعراء في حياته فأشادوا ببطولاته وأمجاده ومناقبه ولما قتل في ساحة الحرب أذرفوا الدمع عليه أنهاراً ونصبوا له المآتم في كل مكان وأقاموا في ساحات الحزن أياماً طويلة حزناً عليه وحسرة لمقتله، وراح الشعراء يبكونه بكاءً حاراً ويرثونه رثاءً كله آهات وزفرات وآلام وحسرات مشيدين بماله من أمجاد ومعددين فضائله ومناقبه ومصورين عظم الفجيعة التي أحلت لمصرعه تصويراً يمتزج بالأسى واللوعة والحسرة، ويعد "أبو تمام" من أشهر الشعراء الذين بكوا عليه ورثوه رثاءً حاراً بكل الصدق والمشاعر الجياشة، معلناً عن عظم حزنه وألمه لفقده في شعر حزين رائع في تصويره بارع محكم في أسلوبه وتعبيره ، ومن رثائه فيه قوله : (٢)

(١) ص ٢٠٥٨ مجريد الأغاني القسم الثاني .

(٢) ص ٧٩ - ٨٥ ج ٤ ديوان أبي تمام .

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر	فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر (١)
توقيست الأمال بعد محمدر	وأصبح في شغل عن السفر السفر (٢)
وماكان إلا مال من قل مال	وذخراً لمن أمسى وليس له ذخرا (٣)
وماكان يدري مجتدى جود كفه	إذا ما استهلكت أنه خلق العسر (٤)
ألا قسى سبيل الله من عطلت له	فججاج سبيل الله وانتشر الثغر (٥)
فتى كلما فاقت عيون قبيلته	دماً ضحكته عنه الأحاديث والذكر
فتى مات بين الضرب والظن مينة	تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
ومامات حتى مات مضرب سيفه	من الضرب واعتلت عليه القنا السر (٦)
وقد كان قوت الموت سهلاً فرده	إليه الحفاظ المر والحلق الوعر (٧)
ونفس تعاف العار حتى كأنه	هو الكفر يوم الروح أو دونه الكفر (٨)
فأثبت في مستنقع الموت رجله	وقال لها من تحت أخمصك الحشر (٩)
غدا غدوة والحمد نسج رداه	فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمراً فما أنسى	لها الليل إلا وهي من سندس خضر (١٠)

- (١) فدح الأمر : صعب . والفوادح : التوازل .
(٢) السفر : المسافرون .
(٣) الذخر : ما يحفظ لوقت الحاجة .
(٤) مجتدى : سائل العطية .
(٥) الفجاج : الطرق . انتشار الثغر : اجتيزت الحدود .
(٦) مضرب السيف : حده .
(٧) الحفاظ : الحمية والغضب عند الحرمة . والوعر : الصعب الشديد الأنتفة .
(٨) الروح : الحرب أو الشدة بوجه عام .
(٩) أخمص القدم : مالا يصيب الأرض من باطنها .
(١٠) تردى الثوب : لبسه . دجا الليل : أظلم .

- كأن ينسى نيهان يسوم وفاتسه
يعزون عن ثمار تمزى به العلى
وأنى لهم صير عليه وقصد مضى
فتى كان عذب الروح لامن غضاضة
فتى سليته الخيل وهو حمى لها
وقد كانت البيض المآثر فى الوغى
أمن بعد طى الحادثات محمداً
إذا شجرات العرف جذت أصولها
لئن أبغضن الدهر الخوون لفقده
لئن غدرت فى الروح أيامه به
لئن ألبست فيه المصيبة طى
كذلك ما تنفك نقتد هالكاً
سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه
وكيف احتمالى للسحاب صنيعه
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة
- لمجوم سما بحر من بينها البدر (١)
ويكى عليه الجود والبأس والشعر (٢)
إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر
ولكن كبيراً أن يقال به كبير (٣)
وبزته نار الحرب وهو لها جمر (٤)
بواتر فهى الآن من بعده بتر (٥)
يكون لأثواب الندى أبداً نشر؟
فتى أى فرع يوجد الورق النضر (٦)
لعهدى به عن يجب له الدهر (٧)
لما زالت الأيام شيمتها الفدر (٨)
لما عريت منها تقسم ولا بكر
يشاركنا فى فقده اليد والحضر
وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
بإسقامها قبراً وفى لحده البحر؟
غداة سوى إلا اشتهدت أنها قبر

- (١) بنونهان : قوم أبى قام وهم بطن من طيس .
(٢) ثمار : مقيم ، والميت ثامر لأنه مقيم بالقبر لا يبرحه .
(٣) الغضاضة هنا بمعنى : الذلة .
(٤) بزته : سليته .
(٥) المآثر : جمع مأثور والسيف المآثور : القديم المتوارث . وبواتر : جمع باثر وهو : القاطع . وبتر : مقطوعة .
(٦) جذت : قطعت . والنقر : هو الحسن والبهاء .
(٧) البغض : الكره .
(٨) الشيمة : الطبيعة والسجية والخلق .

ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر (٩)
عليك سلام الله وفقاً فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عمر

المرثية طويلة رائعة تنبىء عن أن قائلها فنان بارع فى فن الرثاء قد خبر أصوله وعرف عناصره واطلع على خفاياه، فقد بلغ الشاعر ذروة الإحسان والإجادة فى قصيدته قلباً وقالباً ومعنى ومبنى وجاءت أفكاره وصوره وأسلوبه فى انسجام تام وانتلاف رائع فجعلت الأبيات أنشودة بل ملحمة من ملاحم الشعر الجنازى الرائع، فالقصيدة أغنية حزينة تنسجم موسيقاها مع عباراتها فى لحن رائع قد أجاد فى تلحينها وتأليفها الشاعر العملاق الفنان بلا نبو أو شذاذ فى الكلمات أو الموسيقى .

والشاعر يرثى القائد العربى المسلم رثاءً يتناسب مع منزلته ومنصبه كقائد عربى عظيم قضى عمره فى ساحات المعارك متصفاً بأعظم الصفات وأجلها، فبعد أن ابتدأ القصيدة بتصوير عظم المصيبة والفجعة التى أحلت بفقده والتى استحقت أن تفيض من أجلها الدموع بكاءً وحزناً عليه مضى يؤين المرثى تأبيناً حاراً معدداً فضائله ومناقبه ومآثره مبرزاً جانب الشجاعة والفتوة فى مرثية عارضاً لكثير من الصفات والشيم الحميدة التى تمتع بها المرثى فى حياته : قيمته انقطعت الآمال لأن الناس لم يكونوا يؤملون إلا فيه وشغلت الناس المصيبة فيه عن مشاكلهم وقضاء حاجاتهم .

وكان المال لمن لامال له والذخر لمن لاذخر له، وكان يجزل العطاء حتى إن سائله ماكانوا يعرفون أن العسر قد خلق، ويموت عطلت الطرق واجتيزت الحدود، وأنه مامن قبيلة دحرت فى الحرب حتى فاض دمعها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها، وأنه من عظم

(١) الثرى التراب اللين . النائل : العطاء . الغمر : الكثير .

شجاعته وقوته وشدة بأسه لم يقتل إلا بعد أن تثلم سيفه من شدة
ماضرب به وحتى تكسرت الرماح فلم تعد صالحة للضرب والطعان،
وإنه كان يستطيع أن يفلت من الموت بالهرب إلا أنه اختار الموت
أنفة من عار الهروب والفرار لأنه قضى حياته كلها مبتعداً بنفسه
عن كل عار بل كان يعده كفوفاً بل الكفر عنده أهون من أى عار،
وأنه قد ثبت في موقعه للموت فلا تنحول رجله إلى أن يموت حتى
كأن الحشر من تحتها، وأنه قضى حياته محموداً مشكوراً ولقى ربه
مثنوياً مأجوراً، وأن قومه - بنى بنهان - ليحق لهم أن يتبهون به
فخراً ولا يبيكون، وقد يكى عليه البأس والجود والشعر، وكيف لأهله
أن يصبروا عليه وقد مات ومات معه الصبر في قومه، وكان كريماً
لين الجانب لاعتن ذلك بل أنفة من أن يوصف بالتكبر، وكثيراً ماجيش
الجيوش وخاض المعارك الضارية وأنه حين كان يحمل جيشه
السيوف كانت تبلغ من الأعداء كل مبلغ وحينما مات ماتت قوتها
على النضال، ويموته مات معه الجود والندى ويفقده جذت أصول
شجرات العرف وأن الدهر إذا كان يستحق الكره لموته فإنه يستحق
الحب بما سجله من عظامم ومفاخر في حياته، ولموته لم تصب قبيلته
بالمصيبة وحدها فقد عمت معها تيمماً ويكراً لجلاله وعظم قدره، بل
حزن عليه الناس أجمعون بدأ وحضراً، ثم يطلب الشاعر السقيا
لقبره على عادة العرب القدامى ثم ينكر ذلك على نفسه ثانية فكيف
يطلب السقيا من المطر للقبر وهو يضم بين جدرانته بحراً ؟ وأنه مضى
طاهر الأثواب وتناقست الأرض كلها أن تكون له قبراً تضمه، ثم
يبعث الشاعر التحية للمرثى ويرى أنه لم يمث بدخوله القبر فالكريم
الحرم مثله عمره طويل لا ينقطع يموت ولا ينتهي برحيله عن الحياة .

وهكذا أبى الشاعر المرثى بصفات رائعة وجعل من مصيبتة
مصيبة عامة ووصف المصيبة وصفاً رائعاً نافذاً من خلالها إلى إعلاء
قدر المرثى وتبيان فضائله ومآثره ملقياً عليها بظلال خياله وروائع

صوره وتصويره بأسلوب قوى محكم النسيج رائع العبارة بارع التصوير .

ويتضح من الأبيات نظرة الشاعر الفلسفية تجاه الموت فهو لا يرى الموت مرحلة تأتي بعد الحياة لأنه موجود فيها بالفعل يرى أن الموت يمكن أن يكون خلاصاً رائعاً فى مواجهة العار ولهذا لا يرى عيباً من أن يلبس الإنسان ثيابه الحمر ويقف فى ميدان الموت لأجل هدف نبيل .

وهكذا كان الشاعر فناناً فى صورته وتصويره وأفكاره ومعانيه بل فى أسلوبه وألفاظه وحتى مافى القصيدة من ألوان الزخرف لم يفسدها لأنها وقعت فى موقعها الملائم ودعت إليها الحاجة حيث كانت من صميم المبنى الحزين للأبيات ومن متطلبات معانيها .
وتعد هذه القصيدة من عيون قصائد الرثاء التى نظمت فى العصر العباسى الأول بل من عيون الرثاء فى الشعر العربى بوجه عام ولها مكانتها العظيمة فى الأدب العربى كله وقد أشاد بروعتها كثير من النقاد وأهل الأدب قديماً وحديثاً، فقد جعلها ابن رشيق القيروانى من جيد الرثاء ويرى أن الشاعر قد بلغ فيها مبلغاً عظيماً وما قصر فيها^(١)، وقد أشاد بها "أبو دلف العجلي" واستحسنها وطلب من الشاعر أن ينشدها أمامه فأنشدها إياه فقال له : "والله لوددت أنها فى" فقال : بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المتقدم قبله . فقال له : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو مثله^(٢)، وقد جعلها النويرى من أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه^(٣)، وأشاد بها الدكتور شوقى ضيف فى قوله : "ومرائى أبى تمام لا تقل عن

(١) ص ١٤٨ ج ٢ العدد .

(٢) ص ١٧٨٧ مجريد الأغاني القسم الثانى . وص ١٤٤ ج ٢ وفيات الأعيان .

(٣) ص ٢٠٨ ج ٥ نهاية الأرب .

مدائحهم روعة وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان في أناشيد النصر وملاحظه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة في مراثيه لابن حميد الطوسي الطائي ومثل لذلك بقصيدته الرائية الخالدة التي معنا. (١) بل إنه جعل أروع مراثي به محمد بن حميد الطوسي هذه القصيدة (٢).

وأشاد بها الأستاذ "السيد الهاشمي" وجعلها أروع قصائد الشاعر وأشهرها في قوله : "وأجاد أبو تمام في كل فن من فون الشعر أما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر وأشهرها القصيدة التي رثى بها "محمد بن حميد الطائي" وذكر أبياتاً من القصيدة (٣).

وللشاعر مرات أخرى في ابن حميد الطوسي كلها آيات في الروعة ودلائل على البراعة المدومة النظير للشاعر في رثائه له منها العينية التي يبدوها بقوله : (٤)
أصم بك الناعى وإن كان اسمعا وأصيح مفتى الجود بعدك بلتعا

حيث أخذ فيها يرثى محمد ابن حميد الطوسي رثاء حاراً وينديه ويتفجع لمقتله جامعاً فيها بين التفجع والثناء على الميت، مبرزاً فيها جانب الشجاعة والفتوة والكرم والجود التي تمتع بها المرثى وقد أفاض عليه من الصفات والفضائل أعظمها وأجلها وكلها صفات تتلاءم مع مكانة المرثى ومنصبه السياسي كقائد عظيم من قواد الدولة، وقد برع الشاعر فيها وأجاد إجادة بالغة لاتقل عن سابقتها في رثاء الطوسي، وقد أشاد بها أيضاً النقاد والباحثون

(١) ص ٢٨٦ العصر العباسي الأول .

(٢) ص ٦٦ الرثاء (فنون الأدب العربي) .

(٣) ص ١٩٢ ج ٢ جواهر الأدب .

(٤) ص ٩٩ - ١٠٠ ج ٤ ديوانه .

مثل: ابن رشيح القيرواني الذي جعلها من جيد الرثاء وقال : إنه ليس في الهدايا المراثي المولدة مثل قوله :

أصم بك الناعي وإن كان أسعما وأصبح معنى الجود بعدك بقلعا (١)

هذا وللشاعر أمثلة أخرى كثيرة في رثاء الطوسي والبيكاه عليه (٢) ، كما رثاه كثير من شعراء العصر وأبنوه تأبيناً حاراً مبرزين أعماله ومآثره مثنين عليه بصفات حميدة تتلاءم وموقعه في الدولة.

ومن بين قواد الدولة العباسية ووجهائها وكبار رجالها "عبد الله بن طاهر الحسين" وال المأمون على خراسان وعلى مصر أيضاً، وقد رثاه شعراء العصر وأبنوه تأبيناً رائعا مشيدين بأمجاده وأعماله معددين مثاليه وفضائله واصفين إياه بصفات تتناسب وموقعه السياسي ومكانته في الدولة مبرزين خلاله الحميدة وسماته العربية الأصيلة ومميزاته الإسلامية الجليلة. ومن رثائه قول ابن الجهم يرثيه في مجلس حافل بالمعزين وأمام الجالسين في المجلس : (٣)

أي ركن وهسى من الإسلام
جل رزه الأمير عن كل رزه
سليتنا الأيام ظلاً ظليلاً
يا بنى مصعب حللتهم من النسا
وإذا رأيكم من الدهر ريب
انتظروا هل ترون إلا دمرعاً
من يداوى الدنيا ومن يكلاً المدا

أي يوم أختنى على الأيام
أدر كتبه خواطس الأوهام
وأباحست حمسى عزيز المرام
س محل الأرواح فسى الأجسام
عم ما خضكم جميع الأنام
شاهدات على قلوب دوا مى
سك لدى فادح الخطوب العظام

(١) ص ١٤٩ ج ٢ العدد .

(٢) ينظر ديوانه ج ١ ص ١٠١ و ص ١٣٧ ص ١٣٩ .

(٣) ص ١٢٠ مجريد الأغاني القسم الأول .

نحن متنا يموتته وأحبل ال
لم يموت والأمير طاهر حتى
وهو من بعده نظام المعالي

خطب موت السادات والأعلام
دائس الانتقام والإنتقام
وقوام الدنيا وسيف الإمام

نرى الشاعر يرثى "عبد الله بن طاهر" ويعزى ولده فيه ويصف
المصيبة وصفاً ممتازاً بالحزن والأسى مصوراً عظم الفجعة وهول
الخطب الذي حل بفقده، مادحاً المرثى مثنياً عليه بعظيم الصفات
وجليل السمات فهو الذي كان يداوى الدنيا وهو الذي كان يكلاً
الملك، بل هو ركن الإسلام الذي وهى كما قال فى بدء الأبيات .
ثم يعقب الشاعر رثاءه بأبيات يمدح فيها ولده طاهراً وأنه نعم
المخلف لخير سلف بل هو امتداد لوالده ونظام المعالى وقوام الدنيا
وسيف الإمام من بعده .

فالشاعر يجمع بين الرثاء والمدح فى قصيدة واحدة وذلك من
أشد الرثاء صعوبة على الشاعر كما أوضحنا ذلك من قبل ولا يقدر
على الجمع بينهما إلا شاعر أصيل ملك ناصية التعبير وفنون القول
فى أخرج المواقف .

وقد أثرت هذه الأبيات وكما يحكى عبيد الله بن عبد الله بن
طاهر فى نفسه وتأثر بها تأثراً بالغاً وأخذ يبكى بكاء عظيماً حيث
سماعها، فقال : فما أذكر أنى بكيت أو رأيت فى دورنا باكياً أكثر
من يومئذ^(١) كما رثى كثير من الشعراء "عبد الله بن طاهر"
وأبناءه رثاء حاراً مؤننين ومعزين وناديين رثاءً يظهر من ثناياه أنه
رثاء لعظيم من عظماء الدولة تفوح منه رائحة السياسة والحكم^(٢) .

(١) ص ١٢٠٣ مجريد الأغاني ، القسم الأول .

(٢) ينظر على سبيل المثال : ص ٦٣١ ج ٢ و ص ١٥٨٤ ج ٣ ديوان ابن
الرومى و ص ٢٢٣ نهاية الأرب الجزء الخامس . و ص ٢٥٢ الأوراق
للصولى .

ومن بكاهم الشعراء كثيراً ورثوهم رثاءً حاراً الوزير العباسي:
"ابن الزيات" وزير الخليفة المتوكل وفيه يقول الحسن بن وهب: (١)
أمير المؤمنين هدمت ركناً عليه رحاكم كانت تسدور
سبيكي الملك من جزع عليه ويحزن حين تضطرب الأمور
قمهلاً يابني العباس مهلاً فقد كويت بغيظكم الصدور
إلى كم تنكبون الناس ظلماً لكم نسي كل ملحمة عقير
جزيتم ناصراً لكم المنايا وليس كذلكم يجزي النصير
قتلتهم سابق الدنيا إليكم وذلك من فعالكم شهير
وكان صلاحه لو شتموه قريباً لا يحارلنه البصير
كأن الله صيركم ملوكاً لئلا تعدلوا ولأن تجرورا

المرثية سياسية خالصة تفوح منها رائحة السياسة ويعرف من أبياتها أنها لرجل من رجال الدولة العظماء، وهي فوق كونها بكاءً على الوزير المقتول هي ثورة عارمة على الخليفة العباسي القاتل الذي هدم ركناً من أركان دولته وهي تأبين حار للوزير المقتول فقد كان نصيراً للملك سابق الدنيا إلى الملوك كما كان تقياً صالحاً .
فتد جمع الشاعر في أبياته بين الندب والتأبين والثورة العنيفة على القتل .

كما رثى الشعراء كثيراً من الوزراء والولاة والقواد بل لم يموت وزير أو وال أو قائد أو عظيم من كبار رجال الدولة إلا ورثاه شعراء العصر وأبنوه تأبيناً حاراً مشيدين بأمجاده وأعماله متعددين فضائله ومناقبه واصفين المصيبة التي حلت بفقده وصفاً مزوجاً بالحزن والأسى معبرين عن عظم حزنهم وشدة ألهم وصدق وفانهم وعظيم حبههم للميت المرثى محدوهم عواطفهم الصادقة ومشاعرهم الجياشة، بل موضحين الألم العظيم الذي أصاب الأمة كلها في فقيدتها الكبير.

(١) ص ٢٣٦٨ مجريد الأغاني ، القسم الثاني .

إلا أنه يلاحظ أن رثاء القواد الذين كانوا يستشهدون في ساحات المعارك كان أشد مرارة وأعظم ألماً وأصدق عاطفة بل وأعز صوراً وفكراً وخيالاً وتصويراً من رثاء هؤلاء الذين يموتون على سرير الموت في عقر دارهم، وهذا أمر طبيعي فالقائد الذي يخوض المعارك ويموت دفاعاً عن دينه ووطنه يكون جديراً بالحب العميق والمشاعر الجياشة والعواطف المنتهبة والرثاء الحزين الباكي المؤثر الذي يسيل الدموع أنهاراً ويأخذ بالأنفذة ويذيب الأكباد ويفتت القلوب تفتيتاً .

رثاء الشيعة لأئمتهم :

لم يتعرض أهل بيت من بيوتات المسلمين للنكبات والفواجع مثلما تعرض أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث سددت إليهم سهام المصائب ورماح الفواجع بما لم يشهده تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً وكانهم خلقوا للمصائب والمآسى والنكبات فى كل عصر وجدوا فيه وعاشوا فى حينه .

وقد بدأت مآسيهم بحرمانهم من الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وظلوا محرومين منها حتى تقلدها الإمام على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان بن عفان إلا أن الأمر لم يدم له طويلاً فقد قتل الإمام على بن أبى طالب سنة ٤٠ هـ يوم السابع عشر من رمضان دفن بمدينة "النجف" بأرض العراق (١) ثم تتابعت المصائب والنكبات من بعده فى ذريته وفى العلويين جميعاً، فقد مات الإمام الحسن مسموماً بإيحاء من أعدائه الأمويين وقال الحسن بن على بن أبى طالب : "سقيت السم مراراً ما أصابنى مثل ما أصابنى هذه المرة" (٢) .

ثم كانت فاجدة العلويين ومصيبتهم فى مسلم بن عقيل على يد شيطان من شياطين البيت الأموى وهو "عبيد الله بن زياد حيث قتله وصلبه وحمل رأسه إلى دمشق فكان أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم وأول رأس حمل من رؤسهم إلى دمشق" (٣) ، ثم كانت الفجيعة الكبرى والمصيبة العظمى التى أصابت العلويين جميعاً فى "الحسين بن على" بن أبى طالب حيث قتل فى مجزرة كربلاء حيث

(١) ص ٣٥٦ ج ٣ صبح الأعشى للقلقشندي ، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣١هـ - ١٩١٣ م .
(٢) ص ٦٦ ج ٢ وفيات الأعيان لابن خلكان .
(٣) ص ٧١ ج ٢ مروج الذهب للمسعودي .

قتل الأمويون الحسين ومن معه من آل بيته قتلة لا تزال ترتعد منها فراتش الدهر وديس بسنابك الخيل حتى تكسرت أضلاعه وفرك لحمه فى التراب وفصلت رأسه عن جسده وكانت رأسه أول رأس ترفع على خشبة".^(١)

وقد قتل الإمام الحسين ظمأناً حيث منعه الأمويون من ماء الفرات الذى كان يفيض بالماء، ووجد به رضى الله عنه حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة وقتل معه أصحابه كلهم وفيهم بضعة عشر شاباً من أهل بيته ولم يبق من أهل بيت الحسين إلا غلام مريض كان مع النساء فأمر به عبيد الله ابن زيد - شيطان بنى أمية - ليقتل فطرحت زينب نفسها عليه وقالت والله لا يقتل حتى تقتلوني فرق لها فتركه وكف عنه"^(٢). ولم يكف "يزيد بن معاوية" حرمة الشيعة هذه بل كان يعيث بشجر الحسين بعد قتله بقضيب كان فى يده .

وقد كان لمقتل الحسين رضى الله عنه وعلى هذه الكيفية البشعة أثر كبير فى التحام صفوف الشيعة وإذ كاء نار التشيع فى نفوسهم وامتزج التشيع بدمائهم وتغلغل فى أعماق قلوبهم وأصبح عقيدة راسخة فى فكرهم وحملوا أرواحهم على أكفهم مطالبين بالتصاص من قتلة الحسين وآل بيته فى كربلاء، بل أخذ شعورهم يقوى لايبالون بما سوف يصيبهم وما يحدث لهم، من ذلك : أن "عبيد الله بن زياد" لما ارتقى المنبر بعد قتل الحسين وخطب خطبته التى قال فيها : الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته "قام عبد الله بن عفيف قائلاً : يا عدو الله إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه،

(١) ص ٣٩٤ ج٥ تاريخ الطبرى .

(٢) ص ٣٩٠ ج٥ المصدر السابق .

تقتل أولاد النبيين وتقوم على منبر الصديقين^(١) ومن ذلك أيضاً إنكار "العيلي" الشاعر ما كان يحدث في عصر الأمويين من سب على كرم الله وجهه على المنابر وتعرضه للنفي بسبب ذلك^(٢)، وهكذا تأججت قلوب الشيعة ناراً بعد قتل الحسين وأشعلت نيران الحماس في نفوسهم مما مهد لسقوط الدولة الأموية .

ولقد أخذ الأمويون يضطهدون آل البيت وشيعتهم أشد الاضطهاد خاصة أيام الحجاج، حتى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من شيعة علي^(٣) . وأخذ الأمويون يتفتنون في إيذاء الشيعة ويعملون على إبادةهم حتى أبادوا الآلاف منهم وقتلهم وصلبهم في جذوع النخل مثلما فعلوه مع "زيد بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب" حيث قتل ودفن ثم استخرجت جثته من قبره وفصلت رأسه عن جسده وصلب عرباناً وظل مصلوباً خمس سنين عرباناً فلم ير أحد له عورة سترها من الله تعالى وقال بعضهم : إن العنكبوت نسج على عورته^(٤) .

ولم يقف اضطهاد العلويين وشيعتهم بعد زوال الدولة الأموية بل امتد الاضطهاد على أيدي العباسيين أبناء عمومتهم بل كان أشد ظلماً ووقعاً على نفوس آل البيت :
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

(١) ص ٤٠٩ تاريخ الإسلام السياسي والديني / د / حسن إبراهيم حسن
الطبعة التاسعة عام ١٩٧٩ م .
(٢) ص ١٣١١ مجريد الأغاني .
(٣) ص ٢٧٤ فجر الإسلام لأحمد أمين .
(٤) ص ١١١ ج٦ وفيات الأعيان .

ولقد تفنن العباسيون فى طرق إيذاء العلويين وسامونهم سوء العذاب من : قتل وصلب وسجن وحبس وقتك وتشريد حتى لمجرد الشبهة فيهم ويتجلى ذلك فى ما فعله الرشيد "موسى بن جعفر الصادق" : فقد قبض عليه وحبسه وقتله وأدخل عليه جماعة شهدوا أنه مات حتف أنفه^(١)، وأمر المنصور أن يحمل إليه العلويون مقيدين بالسلاسل والأغلال ثم حبسهم وأمر بهدم السجن عليهم، ولم يكتف العباسيون باضطهاد العلويين فى حياتهم بل امتد اضطهادهم لهم بعد وفاتهم، ففي سنة ٢٣٦ هـ أمر الخليفة المتوكل بهدم قبر الحسين بن على وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرق ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه^(٢).

فأى ظلم هذا الذى وقع على آل البيت من أبناء عموماتهم؟ وهكذا لقى آل البيت وشيعتهم أقسى ألوان الظلم والاضطهاد من الأمويين والعباسيين على السواء، ولم يظهر من عدد القتلى مثل الذى ظهر فى آل طالب، وأصبح تاريخ العلويين صفحة دامية تذيب القلوب وتستنزف الدمع وتطلق اللسان وأخذ شعراء الشيعة يبكونهم ويرثونهم رثاءً حاراً مفاجئاً بكل عواطفهم الملتهبة ومشاعرهم الجياشة فى شعر رثائى حزين باك كله آهات حزينة وحسرات دفينية وتفجع وتوجع حتى كانت أشعارهم فى الرثاء مفرقة فى اللوعة والحزن والأسى بل والتحريض على الأخذ بالثأر والقصاص من الجناة.

ومضى شعراء الشيعة فى العصر العباسى الأول يرثون أنعتهم العلويين وشيعتهم رثاء حاراً ملتهباً يفيض بالحزن ويزخر بالألم والأسى ينفسون فيه عن نفوسهم المكلمة واصطبغ شعرهم بالحزن

(١) ص ١٥٣ - ١٥٤ تاريخ الإسلام السياسى والدينى .

(٢) ص ١٨٥ ج ٩ تاريخ الطبرى .

العميق والرثاء النائح والندب الحار مظهرين تفجعهم مبيين
حسراتهم وفيه التلهف والأسف والاستعظام .
ويعد رثاء الشيعة لأئمتهم وشيعتهم من أجود شعر الرثاء
وأروع وأصدق عاطفة وأحره مشاعراً، وكيف لا يكون ذلك كذلك
وقد ملك حب الأئمة قلوب الشعراء من الشيعة وأوجعتهم مصائبهم
ورزاياهم المتلاحقة التي حدثت لهم طوال حياتهم وهم في رثائهم
لا يرون شخصاً عادياً بل يرون أئمة لهم مكانتهم الدينية ومنزلتهم
السياسية وهم في مرثيتهم يناقحون عن عقيدة وأسفة رسخت في
قلوبهم وعلقت في عقولهم واستحوذت على معتقداتهم وفكرهم .

ويعد رثاء الشعراء لأئمتهم شعراً سياسياً خالصاً لأنه في
حقيقته تحريض وتقرير للمذهب السياسي ولا يستهدف غير الدفاع عن
حق الشيعة الضائع في خلافة المسلمين وحكمهم، بل لولا الخلافة
وأحقية الحكم ما كانت هناك سنة ولا شيعة ولا خوارج فالخلافة هي
المدار الرئيسي الذي قامت عليه الأحزاب السياسية وتبلورت بسببها
عقائد كل حزب وكل فرقة من الفرق الإسلامية .
فحينما يرثى شعراء الشيعة أئمتهم يبكونهم ويبكون فيهم
حقهم الضائع في الخلافة مثبتين في شعرهم أحقيتها مفنديين دعاوى
أعدائهم بشأنها داعين إلى استرداد هذا الحق السليب في خلافة
المسلمين .

ووجد في العصر العباسي الأول كثير من الشعراء الذين رثوا
أئمة آل البيت وكوا عليهم في شعر حزين باك فيه التلهف والحسرة
على ما أصابهم وفيه الثورة العارمة على أعدائهم ومعارضيتهم في
الخلافة وفيه شرح المذهب السياسي للشيعة وماتضمنه من أفكار
وأراء حول أحقية الخلافة لآل البيت وتفنيد مزاعم الآخرين من أمويين
وعباسيين في أحقيتهم لها .

ومن هؤلاء الشعراء "السيد الحميري" و"منتصور النعمري" ودعبل الخزاعي" و"ديك الجن" و"ابن الرومي" و"محمد بن صالح العلوي" و"الحماني العلوي" و"المنجج البصري" وغيرهم من شعراء الشيعة الذين ظهوروا في ذلك العصر .

ويمتاز شعر الرثاء للشيعة وأتمتهم بأنه شعر مطبوع على الحزن والوعويل والبكاء، حتى ليقال إنه الشعر الباكي تسمعه فكأنك تسمع نواحة تنوح^(١)، وفيه المحبة والحزن الشديد وفيه الدفاع عن عقيدة وفيه العاطفة الملتهبة والمشاعر الحارة الفوارة كأنها بركان يقذف حمماً ملتهبة تشتعل فيها النيران .

وقد ظهر لوتان من شعر الرثاء للأئمة في العصر العباسي الأول : لون دار موضوعه علي إمام شيعي واحد أخذ الشاعر يبكيه ويندبه ويرثيه في قصيدة خاصة به لا يشرك معه إماماً آخر أو جمعاً من الأئمة في القصيدة، ولون آخر أخذ فيه الشاعر الشيعي يرثي أكثر من إمام شيعي في قصيدة واحدة معدداً لهم واصفاً نكباتهم ومصائبهم بل نكبات ومصائب البيت النبوي كله .

فمن الأول قول السيد الحميري يرثي الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما في شعر رثائي حزين باك كأنه نواحة تنوح: (٢)

امرر على جدت الحسين	من وقل لأعظمه الزكيه
يا أعظماً لازلت من	وظفساء ساكية رويه
وإذا مررت بقبره	فأطل به وقف المطيه
وابك المظهر للمطهر	سر والمطهرة التقيه
ككساء معولة أتت	بوماً لواحدھا المنيه

(١) ص ٢٢٥ المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول د /

عزيز فهمي محقيق / محمد قنديل البقلى ، دار المعارف .

(٢) ص ٨٧٥ مجريد الأغاني القسم الأول .

نرى السيد الحميري يرثي الإمام الحسين ويندبه نديباً حاراً متفجعاً عليه نائحاً نوح الشكالي بل الشكلى التي فقدت وحيدها . وكانت مجزرة كربلاء وماحدث فيها للإمام الحسين ملهماً قوياً لكثير من الشعراء . ودافعاً أنطقهم بشعر رثائي كثير تفيض منه اللوعة واللهفة وتسيل منه العبرات وتذيب الأفتدة وتقطع الأكباد ولاغرو في ذلك فهي صدى للواقع المر والحقيقة الحزينة المؤلمة حيث قتل الحسين قتلة لم يشهد التاريخ مثلها قديماً وحديثاً وتناثرت أشلاء الضحايا وأحرقت جثثهم ومزقت أجسامهم من آل البيت النبوي فأخذ الشعراء ينوحون ويولولون على الحسين في شعر رثائي صادر من أعماق القلوب وقرار الأفتدة والعقول .

فهذا منصور النمرى يشدوا في رثاء الحسين بأنشودة حزينة باكية مصوراً ماحدث له فيها من شدائد ومصائب، مصوراً المصيبة تصويراً ممتازاً بالحزن والأسى العميق معبراً عن أثر المصيبة على نفسه متبرئاً من هؤلاء القتلة أصحاب هذه الفعلة الشنيعة في قوله يرثيه وهو واقف على قبره : (١) .

ولا الأقساء آثار النصول	فما وجدت على الأكتاف منهم
وقسوق حجورهم مجرى السيول	ولكسبن الوجوه بسها كلوم
وفسى الأحياء أموات العقول	أرسيق دم الحسين ولم يراعوا
جرى دمه على خد أسيل	فدنت نفسى جبينك من جبين
من الأحزان والألم الطويل	أبخلسو قلب ذى ورج ودين
بسرى مسن دماء بنى الرسول	وقد شرقت رماح بنى زياد
ينام الأهل دراسة الظلول	بترية كربلاء لهم ديار
ملاعب للديور وللقبول	فأوصال الحسين ببطن قاع
على تلك المحلة والحلوك	محييات ومغفرة وروح
أصابك بالأذى والذحول	برئنا يارسول الله ممن

وهذا الشاعر الشيعي الصادق في تشييعه "دعبل الخزاعي" تلهيه حادثة كربلاء وماحدث فيها للإمام الحسين فينتطق بشعره يرثيه ويبكى عليه بكاء حاراً ويصور مصرعه وكله أسى وحسرة على مصرعه وكله عاطفة صادقة حزينة معبراً عن مشاعره الجياشة وعن شعوره الصادق بتشيعه وإخلاصه لإمامه القليل حيث يقول من

قصيدة يبكي الإمام الحسين: (١)

وإست دمع العين بالعبيرات	ويست تقاسي شدة الزفرات؟
وتبكي على آثار آل محمد	وقد ضاق منك الصدر بالحسرات
ألا فابكهم حقاً وأجر عليهم	عيوناً لرب الدهر منسكيات
ولانتسى في يوم الطفوف مصابهم	بداهية من أعظم النكيات (٢)
سقى الله أجداناً على طف كربلاء	مرباع أمطار من المزنات
وصلى على روح الحسين وجسمه	طريحاً لدى النهرين بالفلوات
أنسى وهذا النهر - يطفح - ظمناً	قتيلاً ومظلوماً بغير تراث
فقل لابن سعد - أبعد الله سعده -	ستلقى عذاب النار واللعات
سأقنت طول الدهر ماهيت الصبا	وأقنت بالأصقال والقعدوات
على معشر ضلوا جميعاً وضيعوا	مقال رسول الله بالشبهات

تري دعيلاً في رثائه للإمام الحسين يبكيه ويتفجع عليه ويتوجع لمقتله معبراً عن وقع هذه الجريمة وأثرها على نفسه وموضحاً ما ذكره التاريخ حول معركة كربلاء ومصرع الحسين فيها على أيدي الجيش الأموي - الذي أرسله يزيد بن معاوية وجهزه عبيد الله ابن زياد وقاده عمر بن سعد بن أبي وقاص - وأوضح الصورة المؤلمة في منع الجيش الأموي للحسين من الماء حيث قتل ظمناً ونهر الفرات يفيض بالماء ويطفح به على جانبيه، إلا أنه لم يصور المعركة وماحدث فيها وكيفية مقتل الحسين وتوضيح صموده وتصديه لأهل

(١) ص ١٥٠ ديوان دعبل الخزاعي .

(٢) الطفوف : الأرض التي استشهد بها الإمام الحسين .

الباطل من بنى أمية، فهو يبكيه ويتدبه ويستدر عطف المسلمين عليه ويستبكيهم لمصرعه .

ونراه يدعو للقصاص وأخذ الثأر من قتلته محاولاً إثارة

المسلمين وإلهاب عواطفهم وانتزاع نخوتهم في قوله يرثيه : (١)

بالرجس العلى قنائة يرفع	رأس ابن بنت محمد ووصيه
لاجازع من ذا ولا متخشع	والمسلمون بمنظر ومسمع
وأنت عيناً لم تكن بك تهجع	أيقظت أجبناً وكنت لها كرى
وأصم نعيك كل أذن تسمع	كحللت بمنظرك العيون عمياً
لك مضجع ولخط قبرك موضع	ماروضه لاقتست أنها

فدعبل يرثي الحسين ويصور حمل رأسه على الخشية أمام المسلمين ولا يتحرك منهم أحد ولا يجزع ولا يخشع لهذا المنظر البشع ويرى أنه يموت قد حرم النوم على أحبائه واستراحت نفوس الأعداء . ونامت أعينهم، وتكحلت العيون عمية عندما أبصرت ما حدث للحسين وأصاب الأذان الصمم عند سماعها نبأ مصرعه وأنه لطيبه وشرقه وحسن منيته تتمنى كل بقعة شريفة من الأرض أن تكون مشوى لجسده وموضعاً لقبره .

ونلاحظ أن الشاعر في البيت الأول قد تأثر في أبياته بعقيدة الشيعة في الخلافة حينما وصف الإمام الحسين بأنه : ابن وصى محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يعتقد الشيعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة لعلى من بعده يوم غدير خم وقال له في هذا اليوم : على منى بمنزلة هارون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله" فالشيعة يعدون هذا القول بمثابة مبايعة من الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب بالخلافة من بعده أمام جموع المسلمين .

(١) ص ٢٢٥ ديوان دعبل الخزاعي .

وهناك الكثير من قصائد الرثاء والبكائيات في الإمام الحسين رضى الله عنه ويعد أكثر أئمة الشيعة رثاءً من جانب شعرائهم بل ومن غير شعراء الشيعة. (١) ويصور رثاؤه أكثر الرثائيات الشيعية وأحرها بكاءً وأكثرها عويلًا وتفجعاً وثورة عارمة على المغتصبين للحق العلوى الضائع في خلافة المسلمين .

ومن أئمة الشيعة الذين جاء رثاؤهم مستقلاً في قصائد مستقلة بعينها :

الإمام على بن أبى طالب (٢) والإمام على الرضا (٣) والإمام الحسين ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فضلاً عن كثير من أتباعهم وقواد ثوراتهم والناشرين معهم من شيعتهم "كأبى السرايا" وعمر بن يحيى العلوى وغيرهم من الأئمة والناشرين معهم (٤) .

أما اللون الثانى من رثاء الشيعة لأئمتهم والتي جاءت قصائده مشتملة على أكثر من إمام مرث في موضوعها بل اشتملت على رثاء آل البيت بوجه عام والبكاء عليهم وندبهم وتصوير مصائبهم ونكباتهم فكثيرة ومتعددة في شعر الرثاء عند شعراء الشيعة في العصر العباسى الأول ولعل أشهرها جميعاً قصيدة "دعبل الخزاعى" "التائبة الخالدة" التي أخذ فيها يرثى آل البيت ويصور ما حدث لهم من زوايا وحوادث ومدحه وإعلان حبه لهم

(١) ينظر الأوراق للصولى ص ١٨١ - ١٨٣ ، وديوان ابن المعتز ص ٣٥٢ ج٢ .

(٢) ينظر ديوان دعبل الخزاعى ص ٣١٤ .

(٣) ينظر ديوان دعبل ص ١٤٩ و ص ١٨٥ و ٢٣٥ .

(٤) ينظر ديوان ابن الرواحى ج١ ص ٤٩٢ و ج٣ ص ١٣٤ .

وهجومه العنيف على بنى أمية والدفاع عن عقيدة الشيعة وتفانيه
فى ذلك، ويقول فيها يرثى آل البيت: (١)

مدارس آيات خلت من تسلوة ومنزل وحى مقفر العرصات (٢)
لآل رسول الله بالحيف من منسى وبالركن والتعريف والحجرات (٣)
ديار عسى والحسين وجعفر وحمنة والسجاد ذى الثفتات (٤)
ديار لعبد الله والفضل صنوه نجى رسول الله فى الخلوات (٥)

إلى أن قال بعد أن عدد فضائل جمة لآل البيت :

ديار عفاها جور كل منايد ولم تعف للأيام والسنوات (٦)
فيا وارثى علم النبى وآله عليكم سلام دائم النفحات (٧)
قفا تسأل الدار التى خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات
وأيسن الأذى شطت بهم غربة النوى أفانين فى الأفاق مفترقات؟ (٨)
هم أهل ميراث النبى إذا اعتزوا وهم خير سادات وخير حماة
مطاعيم فى الإعسار فى كل مشهد لقد شرقوا بالفضل والبركات

- (١) التصيدة من ص ١٢٤ إلى ص ١٤٥ ديوان دعبل الخزاعى .
(٢) المتفر: الخالى من الناس . العرصات : ساحات الدار .
(٣) الحيف ومنى والركن والتعريف والحجرات : أسماء أماكن بمكة لاتزال قائمة .
(٤) الثفتات : جميع ثفتة والثفتة : الركبة ومجتمع الساق والفخذ .
والسجاد : على بن الحسين .
(٥) يريد : عبد الله بن عباس وأخاه الفضل .
(٦) عفاها : محاها .
(٧) آله بالنصب عطفاً على المنادي المضاف : يا وارثى علم النبى .
(٨) شطت: بعدت. النوى: البعد. الأفانين: الأحوال جمع فنون ومفردوه: فن.

- وما للناس إلا حاسد ومكذب
إذا ذكروا قتلى بيدر وخبير
وكيف يحيون النبي ورهطه
لقد لا ينوه في المقال وأحسروا
فإن لم تكن إلا بقري محمد
سقى الله قبراً بالمدينة غيشه
نبي الهدى صلى عليه مليكه
وصلى عليه الله ما ذر شارق
أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً
إذن للطمت الحسد فاطم عنده
أفاطم قومي يابنة الخير واندبي
قبور بكوفسان وأخرى بطيبة
- ومضطفن ذو إحنة وترات (١)
ويسوم حنين أسيلوا العبرات (٢)
وهم تركوا أحشاهم وغرات (٣)
قلوباً على الأحقاد منظوبات
فهاشم أولى من هن وهنات (٤)
فقد حل فيه الأمن بالبركات
وبلغ عنا روحه التحفات (٥)
ولاحت مجوم الليل مبتدرات (٦)
وقد مات عطشاناً بشط قمرات (٧)
وأخرت دمع العين في الوجنات
لمجوم مساوات بأرض قلات
وأخرى بفتح نالها صلواتي (٨)

- (١) مضطفن : من الضغن . والإحنة : الحقد . وترات : جمع ترة للموتور الذي قتل له قتيلا ، وذو ترات : ذو دما .
(٢) أسيلوا العبرات : أذرفوا الدموع لمجدهم الضائع .
(٣) الوغرة : شدة الحرارة .
(٤) هن وهنات : كناية عما لا يمكن التصريح به من أمور .
(٥) التحفات : جمع : التحفة وهي ما يتحف به .
(٦) ذر : طلع . شارق : مشرق .
(٧) فاطم : فاطمة الزهراء . مجدلاً صريعاً .
(٨) كوفان : الكوفة وفيها قتل الإمام علي والحسين ابنه ومسلم بن عقيل .
وطيبة : المدينة المنورة، وفيها قبور : الحسن بن علي وعلي بن الحسين
وجعفر الصادق . وقع : واد يمكن وفيها قبر الحسين بن علي بن الحسن
وأخرين .

وقبراً بأرض الجو زجان محله
وقبر بغداد لنفس زكيسة
نفوس لدى النهرين من أرض كربلا
توفوا عفاشاً بالفرات فليتني
إلى الله أشكو لوعة عند ذكرهم
نقسمهم ريب الزمان، فما ترى
لهم كل حين نومة بمضاجع

إلى أن قال يبكي عليهم :

سأبكيهم ماحج لله راكب
بنفس أنتم من كهول وفتية
فياعين بكيهم وجسودى بعيرة
لقد حفت الأيام حولى بشرها
وماناح قصرى على الشجرات (٥)
لفك عناة أو لحمل ديات (٦)
فقد أن للتصكاب والهملات
وانسى لأرجو الأمن بعد وفاتى

- (١) الجوزجان : إسم كورة واسعة من كور بلخ بين مرو الروز وبلخ . وفيها قبر يحيى بن زيد بن علي بن الحسين قتل في أيام الأمويين وصلب جسده طويلاً . وياخمر : موضع بين الكوفة وواسط، وبها قبر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ابن علي قتل أيام المنصور سنة ١٤٥ هـ .
(٢) وفي بغداد قبر الإمامين : موسى الكاظم ومحمد الجواد ابن الإمام الرضا .
(٣) المعرس : من التعريس : النزول في المكان، والنفوس : هي نفوس الإمام الحسين بن علي ومن معه من الأبرار الذي استشهدوا في كربلاء عام ٦١ هـ .
(٤) العقوة : الساحة أو ماحول الدار .
(٥) القمري : نوع من أنواع الحمام .
(٦) عناة : جمع عانى وهو الأسير . والديات : جمع الدية وهي التعويض عن القتل .

ألم تر أنسى من ثلاثين حججاً أروح وأغدوا دائم الحشرات (١)
أرى فيتهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيتهم صفرات (٢)

إلى أن قال موازناً بين البيت النبوي والبيت الأموي :
بنات زياد في القصور مصونةً وآل رسول الله في الفلوات
ديار رسول الله أصبحن بقلعاً وآل زياد تسكن الحجرات
وآل رسول الله تدمى نحورهم وآل زياد آمنوا السريات (٣)
وآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد غلظ القصرات (٤)
فهذه الأبيات من القصيدة الطويلة التي نظمها دعبيل في رثاء
آل البيت النبوي والتي تبلغ خمسة عشر بيتاً بعد المائة أخذ فيها
دعبيل يرثي آل البيت رثاءً حاراً ويبكيهم ويولول عليهم وكله مشاعر
قوارة وعواطف صادقة وكأنه يقذف حمماً من اللهب ويراكين من
النيران الموقدة في كل بيت من أبياتها .

وقد اختلف الباحثون والرواة في مطلع القصيدة، فقد ذهب
معظمهم إلى أن مطلعها :
مدارس آيات خلست من تلاوة ومنزل وحس مقصر العرصات
أمثال : ياقوت الرومي (٥) وعبد الله بن المعتز (٦) وابن شهر

(١) الحجية : السنة .

(٢) الفىء : الخراج أو الغنيمة . صفرات : أى لاشىء فيها من حقهم
المسلوب .

(٣) السرب : الإهبل . ومارعى من المال .

(٤) القصرة : أصل العنق .

(٥) معجم الأدباء - ج ١١ ص ١٠٣ .

(٦) ص ٢٦٧ طبقات الشعراء - لابن المعتز .

شوب (١) وابن القتال (٢) وأبو الفرج الأصفهاني (٣) وأحمد أمين في
ضحى الإسلام (٤) ومؤلفى المنتخب في أدب العرب (٥) والدكتور
شوقي ضيف (٦) ومحمد سيد كيلاني (٧) وغيرهم من الباحثين
القدامى منهم والمحدثين .

وذهب الأستاذ عبدا لصاحب عمران الدجيلي أن مطلعها هو :
تجاورسن بالإرسان والزفرات نواتح عجم اللفظ والنطقات (٨)
وذهب البعض أن مطلعها :
بكيك لرسم السدار من عرفات وأذريت دمع العين بالعبرات
مثلما هو في مخطوطة توينجن، ومثلما ذهب الدكتور عز
الدين إسماعيل (٩) والدكتور محمد يوسف نجم في تحقيق ديوان
دعبل .
ولم يقتصر الخلاف على المطلع بل امتد إلى عدد الأبيات
وبعض الألفاظ والعبارات .
والمرثية طويلة رائعة التصوير بارعة النسخ محكمة الأسلوب
وقد أخذ دعبل يرثي فيها آل البيت رثاء حاراً ويبكيهم بكاء شديداً
وكله حزن وهم لما أصابهم وكله حب ووفاء عظيم لأئمتهم .

(١) ص ٤٥٠ ج ٣ المناقب .

(٢) ص ١٩٤ ج ٣ المناقب .

(٣) ص ١٨١ ج ٢٠ الأغاني .

(٤) ص ٣١١ ج ٣ ضحى الإسلام .

(٥) ج ٣ ص ٧٥ .

(٦) ص ٣٢٠ العصر العباسي الأول .

(٧) ص ٩١ أثر التتبع في الأدب العربي .

(٨) ص ١٢٤ ديوان دعبل تحقيق الأستاذ : الدجيلي .

(٩) ص ٦٠ في الشعر العباسي الرؤية والفن .

وقد أخذ يعدد مصائبهم وكوارثهم التي أحلت بهم على مر العصور منذ قتل الإمام على بن أبي طالب والحسن والحسين وجعفر ومسلم بن عقيل ومضى يصور ما حدث لهم من فواجع ونكبات مصوراً الخراب الذي حل بديارهم بعد رحيلهم متفجعاً عليهم متوجعاً لفراقهم وما حدث لهم مشيداً بمكانتهم وفضلهم على سائر الخلق وجميع البشر مركزاً على ما حدث من مصائب في مجزرة كربلاء التي قتل فيها الإمام الحسين ومن معه من أهل وأتباع، معدداً لمصائبهم التي شملتهم في كل مكان وكل زمان حيث انتشرت قبورهم في مختلف الأمصار والمدن الإسلامية سواء من كان منها بالكوفة أو المدينة أو بفتح أو الجوزجان أو باخمر أو بغداد وغيرها من المدن والمواضع التي ضمت في ترابها أجساد آل البيت الطاهرة.

ويعد أن عدد مصائبهم ووصفها وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى - بل كلها حزن وأسى - أخذ يبكيهم ويندب عليهم ويسيل الدمع عليهم أنهاراً جارفة، وكيف لا يبكيهم ويتقطع عليهم حسرة وألماً وهو الذي قضى حياته مغرقاً في حبه مدافعاً عن حقه هاجياً لأعدائهم رافعاً راية الثورة والغضب في وجه مقتضى الخلافة منهم، ثم نراه يلجأ - وهو يصور ما حدث لآل البيت من مصائب ورزايا - إلى الموازنة بين آل البيت وما هم عليه من مآسى وفواجع وبين آل البيت الأموى وما يعيشون فيه من ثراء ورغد عيش بينما بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم محروم من كل ذلك وهو الأولي بكل حق ومتعة من غيره .

ثم نراه في آخر القصيدة - ويعد أن تفجع وتحسر على آل البيت ويكاهم وأعلن حبه لهم وهجومه على بنى أمية - يتحدث عن المهدي المنتظر الذي يعود فيملاء الأرض عدلاً بعد ماملت جوراً وظلماً ويرد الحق إلى آل البيت ويعنى نفسه بهذا الخلاص معلناً أنه سيظل على حبه وولائه لآل البيت بل وسيظل يبكيهم مدى الحياة.

فالمرثية بكاء على آل البيت وتصوير لمصائبهم ووصف لرزايابهم وفواجعهم وثناء عليهم وإشادة بفضائلهم وعظمتهم وهجوم وثورة عارمة على بنى أمية وإثبات لحق آل البيت في الخلافة. وقد أخذ الشاعر يرثى آل البيت في قصيدته المخالدة وكله مشاعره جياشة وأحاسيس صادقة ونفس كلها ألم وحسرة وأسى لمصائبهم وقلب مغمم بالفجيعة ومملوء بالهم والحزن لرزايابهم، فالشاعر كان صادقاً في عاطفته كل الصدق، كان صادقاً في رثائه صادقاً في حبه لآل البيت صادقاً في بغضه لبنى أمية صادقاً في عقيدته الشيعية مؤمناً بمبادئها وعقائدها .

وقد استطاع الشاعر أن يلائم بين صياغة القصيدة وموضوعها، فجاءت ألفاظه قوية جزلة وعباراته رصينة فحلة إلا أنه بعد بها عن الغرابة والوعورة - إلا في قليل منها - وجاءت ألفاظه وعباراته موحية عما يجول به فكره وتجود به قريحته من معان وأفكار، فحينما يتحدث عن المصائب والكوارث يستخدم أسلوباً ملائماً وحينما يتحدث عن حبه لآل البيت أو يتعرض للأمويين بالهجوم يأتي بالأسلوب الملائم والألفاظ المناسبة والمعبرة عن غرضه وفكره ومعانيه، بل إنه كان موفقاً كل التوفيق في اختيار الوزن والقافية في قصيدته، فقد لحنها على بحر الطويل الذي يلائم مقام الرثاء وجو الحزن والألم لأنه يتسع لخواطر الشاعر وأحاسيسه وفضلاً عن أنه أنسب البحور لإطلاق الأهات وإخراج الزفرات، وقد زاد من جمال القصيدة وروعيتها هذه الإطلاقة الأخيرة في القافية التي تنتهي بالتاء التي يسبقها ألف المد والتي توحى بالنذب والتفجع من نفس مكلومة قد طبقتها الحزن وخيم عليها الأسى وسكنت فيها الهوم والآلام .

والقصيدة تمثل الرثاء السياسي أتم تصوير فهي فضلاً عن كونها بكاء على آل البيت وتصوير لآلامهم فهي هجوم على بنى أمية الذي اغتصبوا الخلافة من آل البيت وفعلوا بهم ما فعلوا بسببها،

وفضلاً عن أنها تمثل عقيدة الشاعر السياسية التي آمن بها والتي ضمن قصيدته بعض معتقداتها فقد ذكر : "عقيدة الرصبة" وعقيدة الإرث والوراثة "وعقيدة حب الإمام" وأن محبه في أمان يوم القيامة "وأن القرآن قد بشر بخلافة آل البيت"، "وأن الخلافة في آل البيت"، "والمهدي المنتظر" وغير ذلك من عقائد الشيعة في الخلافة والأئمة .

وهكذا برع دعبيل في قصيدته وأجاد إجادة بالغة حتى أصبحت هذه القصيدة من عيون شعر الرثاء في الأدب العربي بوجه عام ونالت شهرة فائقة في القديم والحديث من التاريخ الإسلامي وأعجب بها الخلفاء والأدباء والرواة والباحثون والدارسون في مختلف العصور .

فقد أعجب بها الخليفة المأمون وتأثر بها تأثراً بالغاً حيث جزع وبكى بكاء عظيماً حتى أخضل لحبته بدمعه عند سماعه لها^(١)، كما أعجب بها عبد الله بن المعتز وأشاد بها وجعلها أشهر من الشمس.^(٢)

كما أشاد بها الأستاذ "أحمد أمين" وجعلها من بدائع الرثاء في الشعر العربي^(٣) وأشاد بها "ياقوت الحموي" وجعلها من أحسن الشعر^(٤) . وأشاد بها "الدكتور شوقي ضيف"^(٥) "والدكتور أحمد الحوفي"^(٦) والدكتور عز الدين إسماعيل^(٧) ، والدكتور علي إبراهيم

(١) ص ١٨١ ج ٢ - الأغاني . (٢) ص ٢٦٧ طبقات الشعراء .

(٣) ص ٣١ ج ٣ - ضحى الإسلام .

(٤) ص ١٠٣ ج ١١ - معجم الأدباء .

(٥) ص ٣٧ الرثاء . و ج ٣٢ - العصر العباسي الأول و ص ٧ - الشعر وطوايعه الشعبية .

(٦) ص ٢٠٣ أدب السياسة في العصر الأموي .

(٧) ص ٦٠ في الشعر العباسي الرؤية والفن .

أبو زيد^(١) والأستاذ محمد سيد كيلاني^(٢) وغيرهم .
وللشاعر نماذج أخرى كثيرة في رثاء آل البيت إلا أنها أقل
روعة وبراعة من هذه الثانية الخالدة^(٣)، كما نجد دواوين شعراء
الشيعة في العصر العباسي الأول تفيض بهذا اللون من الرثاء في
رثاء الأئمة من آل البيت^(٤) .

وهكذا كان شعر شعراء الشيعة لأئمتهم حزيناً باكياً يتفجعون
على موتاهم وقتلاهم ويرثون أنصارهم محتجين للشيعة بالخلافة،
وفي شعرهم حملات وثورات على الأمويين والعباسيين على السواء
ويغلب على رثائهم طابعهم المذهبي وهدفهم السياسي فجاء رثاؤهم
رثاءً سياسياً وثيق الصلة بالحزب الشيعي وألامه وآماله، فيه الدعوة
بالخلافة لآل البيت والثورة العنيفة على أعدائهم بجوار رثاء الأئمة
وشيعتهم وتصوير مآسيهم والبكاء والعويل عليهم.

(١) ص ١٢٨ إلى ص ١٤٦ الصورة الفنية في شعر دعبيل .

(٢) ص ١٢٧ أثر التشيع في الأدب العربي .

(٣) ينظر على سبيل المثال ديوانه : ص ١٩٥ ص ١٩٦ ص ١٩٧ ص ١٩٨ .

(٤) ينظر على سبيل المثال : ص ٩٢ ج ١ زهر الآداب و ص ٣١١ ج ٣ ضحى
الإسلام و ص ٤٩٢ ج ١ ديوان ابن الرومي و ص ١٣٤ ج ٣ ديوان ابن
الرومي .

«الفصل الخامس»

«رثاء الدول والمدن في العصر العباسي الأول»

«رثاء الدول والمجثوق»

رثاء الدول :

يعد رثاء الدول الزائلة في الأدب العربي من موضوعات الرثاء القديمة التي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، كرثاء الشاعر الجاهلي "الأسود بن يعفر" لدولة المناذرة إلا أن هذا اللون من الرثاء كان قليلاً في الأدب العربي قبل العصر العباسي الأول حيث لم يرد إلينا من هذا اللون إلا نماذج قليلة تدل على قلة هذا اللون من الرثاء في تلك الأعصر السابقة، فلما زالت الدولة الأموية وسقطت من التاريخ وحكم العباسيون وقامت دولتهم في هذا اللون وأزدهر إلى حد ما عما كان عليه قبل ذلك وكانت الدولة الأموية موضوعاً من موضوعات الرثاء للدول الزائلة في العصر العباسي الأول حيث يكاها بعض الشعراء في العصر العباسي وأعلنوا عن حزنهم وألمهم لزوالها ناديين إياها مؤيين خلفاءها في شعر رثائي حزين فيه البكاء والعيول والحسرة والأثين على الدولة العربية التي سقطت وسقط معها خلفاؤها .

ومن الشعراء الذين بكوا على الدولة الأموية ورثوها رثاء حاراً في شعر صادق العاطفة الشاعر "أبو عدى عبد الله بن عمر العبلي" - أحد الشعراء المخضرمين الذين أدركوا العصرين : الأموي والعباسي - وأخذ يرسل الدمع عليها مداراً معلناً حزنه وأسفه لما أصاب الدولة الأموية من سقوط وزوال من على خريطة التاريخ، ومن قوله في رثائها قصيدته السينية التي استهلها بقوله :

تقول أمامة لما رأيت	نشوزي عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعي	لدى هجعة الأعمين النعس
أبي ! ما عراك ؟ فقلت الهموم	منعمن أبناك فلاتيلسي

ثم مضى يرثى الدولة الأموية رثاء حاراً كله لوعة وحسرة على ما أصابها . حتى آخر القصيدة (١) .
ويحكى صاحب كتاب الأغاني : أن "عبد الله والحسن ابني الحسين (الإمامين العلويين) قصداً أبا عدى الشاعر واستنشدها هذه القصيدة فأنشدها فلما أتى عليها بكى "محمد بن عبد الله بن حسن فقال له عمه الحسن بن حسن : أتبكي على بني أمية وأنت تريد ببني العباس ماتريد ؟ فقال : والله يا عم لئن كنا نتمننا على بني أمية ما نتمننا فما بنوا العباسي إلا أقل خوفاً لله منهم وإن الحجّة على بني العباسي لأوجب منها عليهم ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر - المنصور - ثم أعطوا أبا عدى مالاً كثيراً وانصرفوا" (٢) .

وللشاعر قصيدة أخرى رائعة في رثاء الدولة الأموية أخذ فيها يبكي الدولة وينهى إلى الدنيا زوالها مشيداً بها ويخلفاتها الأمويين إشادة عظيمة مؤبناً إياهم تأبيناً حاراً قوياً رائعاً وكله ألم وحسرة على ملكهم الزائل ودولتهم التي سقطت وما جاء فيها قوله :
فبنوا أمية خير من وطني الثرى شرفاً وأفضل ساسة أمراؤها

ومن أهم الشعراء الذين رثوا الدولة الأموية الزائلة ويكوها بكاء حاراً وأذرقوا الدمع عليها أنهاراً الشاعر المخضرم أبو العباسي الأعمى السائب بن فروخ - أحد الشعراء الذين أدرکوا الدولتين : الأموية والعباسية - وكان ميالاً بطبعه وهواه إلى الأمويين وكثيراً ما مدحهم في حياتهم وأشاد بدولتهم - وما قاله في رثاء الدولة الأموية الزائلة : (٣)

(١) ص ١٠٥ ج ١٠ الأغاني .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ص ١٧٥٦ مجريد الأغاني ، القسم الثاني .

ليست شعري أفاح رائحة المسك
حسين غابت بنو أمية عنه
خطباء على المنابر فر
لا يعابسون صامتين وإن قا
بجلسوم إذا الخلسوم استخفت
سك وما إن إخال بالحنيف أنسى (١)
والبهاليل من بنى شمس
سان عليها وقاله غير خرس
لسوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
ووجوه مثل الدنانير ملس

فالشاعر يرثى الدولة الأموية الزائلة ويبكى بكاء دامعاً على
خلفائها ويؤنبهم تأبيناً رائعاً معدداً بعض صفاتهم وقضائلهم فهم
البهاليل من بنى شمس وهم خطباء بلغاء وفرسان فصحاء ليس فيهم
عيب إن صمتوا وذووا عقول راجحه ووجوه منيرة .
وما قاله في رثاء الدولة الأموية قصيدته الرائعة التي قال

فيها : (٢)

أمست نساء بنى أمية منهم
نامت جدودهم وأسقط نجمهم
خلت المنابر والأسرة منهم
ويناتهم بمضيعة أيتام
والنجم يسقط والجدود تنام
فعليهم حتى المسات سلام

هذا وللشاعر أشعار كثيرة في رثاء الدولة الأموية الزائلة
وكلها دموع عليها وحسرات وزفرات لسقوطها وتقويض باللوعة
والأتين والمشاعر الجياشة والعاطفة الحزينة الصادقة الملتهبة التي تدل
على حب الشاعر ووفائه للدولة الزائلة وخلفائها الذين أسترحم
التاريخ وحجبتهم إلى الأبد وراء أحجار وأستار .
ومن رثاء الدول الزائلة في الشعر العباسي قصيدة البحري
التي رثى فيها دولة الفرس - السينية المشهورة - حيث أخذ يرثى
فيها دولة الفرس ويبكى مجدهم الضائع وحضارتهم المندثرة، ومن

(١) الحنيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء .

(٢) ص ١٧٥٧ مجريد الأغاني القسم الثاني .

قوله فيها يرثى دولة الفرس بعد أن صدرها بشكواه من الدهر :
حضرت رحلى الهموم فوجه - بت إلى أبيض المدائن عنسى (١)
أتسلى عن المخطوط وآسى - لمحل من "آل ساسان" درس
أذكر تنبهم المخطوب التوالى - ولقد تذكر المخطوب وتنسى (٢)
إلى أن قال :
ومساع لولا المحاباة منى - لم تطفها مسعاة عنس وعيس (٣)
نقل الدهر عهدهن عن الجمد - دة حتى رجمن أنضاء لبس (٤)
إلى أن قال :
فكأنى أرى المراتب والقسو - م إذا ما بلقت آخر حس
وكأن الوسود ضاحين حسرى - من وقوف خلف الزحام وخس
حتى آخر القصيدة :
فالبحترى يرثى دولة الفرس الزائلة ويبكى عليها بكاء حاراً
مشيداً بمجدهم الدائر وحضارتهم التى أصبحت أطلالاً، ويعلن خلال
الآبيات عن حزنه وألمه وأسفه لما حل بهذه الدولة العظيمة التى
تشاركه الهموم والمصائب .
ويكاد البحترى لدولة الفرس لا ينم عن مذهب شعوبى عنده بل
إن البحترى عربى أصيل فى عرويته سواء كان ذلك من جهة أبيه أو
أمه فأبوه عربى قحطانى وأمّه عربية عدنانية، فهو - وكما صرح
هو نصه فى القصيدة ذاتها - يرثى الدولة الفارسية ويبكى أهلها
وقاد ما قدمه الفرس لأهلهم من مساعدة فى حربهم ضد حبيش إرباط
الذى فتح اليمن قديماً ثم خلفه أبرهة وقام سيف بن ذى يزن بطرد
الأحباش بمعونة الفرس من وطنه وتحرير بلاده منهم .

(١) ص ١١٥٤ ج ٢ ديوان البحترى .

(٢)

(٣)

(٤)

فالدولة الأموية والدولة الفارسية الزائلة كانتا موضوعاً مهماً لشعر رثاء الدول الزائلة في العصر العباسي الأول حيث لم يتضمن رثاء الدول في الشعر العباسي في العصر الأول غير هاتين الدولتين الزائلتين، وأنا لا أتفق مع الدكتور شوقي ضيف^(١) أو غيره^(٢) من الباحثين والدارسين الذين جعلوا رثاء البرامكة "من رثاء الدول الزائلة، وكيف يكون ذلك كذلك ولم يكن للبرامكة دولة باسمهم تسمى "دولة البرامكة" فالدولة كانت دولة عباسية وخلفاؤها العباسيون وما البرامكة إلا بعض عمالها ولم تزل الدولة بزوالهم بل بقيت بعد فئانهم مدة طويلة، ولا يعد فناً شخصي أو أشخاص فناً لدولة وزوالها، فرثاء البرامكة رثاء سياسي شخصي يدور حول رثاء شخص أو أشخاص ذوي منصب سياسي في نظام حكم الدولة ليس إلا ولا يعد من رثاء الدول الزائلة .

وهكذا عرف الشعر العباسي فن رثاء الدول الزائلة وأجاد فيه إجادة عظيمة وإن لم يبلغ مبلغ رثاء الدول والممالك الزائلة في العصر الأندلسي حيث فاق الأندلسيون العباسيين في هذا اللون من الرثاء كما وكيفاً، فشعر الأندلسيين يزخر بالكثير من القصائد التي تتضمن رثاء الدول والممالك الزائلة فضلاً عن أن هذا الرثاء الأندلسي أكثر روعة وأشجى حزناً وأصدق عاطفة وأحر مشاعر من رثاء العباسيين للدول الزائلة، وهذا أمر طبيعي فقد زالت الدول والممالك في بلاد الأندلس على يد المسيحيين الأسبان وأفتوا معالم الإسلام والمسلمين منها وأصبحت دولاً مسيحية صليبية بعد أن كانت دولاً وممالك إسلامية يرفع من فوق مآذنها نداء الإسلام وشعار المسلمين أما الدولة الأموية فكانت دولة إسلامية تلتها دولة إسلامية في ربوعها

(١) ص ٤١ الرثاء - فنون الأدب العربي .

(٢) ص ١٨٢ ج ٥ نهاية الأرب .

بعد زوال الدولة الأولى والدولة الفارسية حلت محلها الدولة الإسلامية العباسية. فالفرق واضح ظاهر والباعث مختلف بين هذا وذاك .

رثاء الممدن :

يعد رثاء الممدن من موضوعات الرثاء الجديدة المبتكرة التي استجدت في العصر العباسي الأول وأصبح رثاء الممدن منحى جديداً في شعر الرثاء اتجه إليه شعراء العصر بفطرتهم وخيالهم وأضحى إطاراً جديداً تحرك فيه الشعراء لأسباب تتعلق بالنقلة الحضارية في العصر العباسي الأول حيث تعلق الشعراء بمدنهم وارتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً "فإن المدينة كانت في العصر العباسي قد صارت تمثل كياناً له معنى ووجود في نفوس أهلها وإن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة مادية ومعنوية وقد تولد في نفوسهم نتيجة لذلك شعور إنساني نبيل إذا المدينة عبروا عنه في صدق وحرارة عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنهم فقدوا بها عزيزاً لديهم" (١).

لهذا ظهر في العصر العباسي الأول إطار مبتكر للرثاء هو رثاء الممدن حيث كان إطاراً مبتكراً لم يكن له أصول في الأدب العربي قبل العصر العباسي، فلم يعرف شعراء العصر الجاهلي هذا الإطار من الرثاء كما لا يعرفه الشعراء الإسلاميون والأمويون كذلك، ولعل ذلك يرجع إلى عدم إلحاق الخراب والدمار بالممدن الإسلامية في هذه العصور السابقة مثلما حدث لها في العصر العباسي الأول، فضلاً عن أن علاقة العربي بمدينته في العصور السابقة لم تتوثق بالشكل الذي كان عليه الحال في العصر العباسي

(١) ص ٣٦٤ في الشعر العباسي الرؤية والفن . د / عز الدين إسماعيل .
طبع : دار المعارف عام ١٩٨٠ م .

حيث توثقت العلاقة توثقاً شديداً بين الإنسان والمدن وارتبط بها ارتباطاً تاماً وثيقاً .

وكانت أول مدينة رثاها الشعراء هي مدينة "بغداد" حيث كانت أول مدينة عربية أصابها الدمار والحرب وذلك في الصراع الذي حدث بين الخليفة المأمون وأخيه الأمين، وفيه حاصرت جيوش المأمون المدينة "ونزل زهير بن المسيب الضبي قصر رقة كلوا ذي ونصب المجانيق^(١) والعرادات^(٢) واحتفر الخنادق وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمى بالعرادات من أقبل وأدبر ويعشر^(٣) أموال التجار ويجبي السفن وبلغ من الناس كل مبلغ وبلغ أمره طاهراً وأتاه الناس فشكوا إليه ما نزل بهم من زهير بن المسيب وبلغ ذلك هرثمة فأمدّه بالجند ونزل هرثمة نهر بين وجعل عليه حائطاً وخذقاً وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار . فذكر عن الحسين الخليل أنه قال : لما تولى طاهر البستان بباب الأنبار دخل محمداً أمر عظيم من دخوله بغداد وتفرق ما كان في يده من الأموال وضاق ذرعاً وتحمق صدره فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة وضرب أنية الذهب والفضة دنانير ودرهم وحملها إليه لأصحابه وفي نفقاته وأمر حينئذ برمي الحربية بالنفط والنييران والمجانيق والعرادات يقتل بها المقليل والمدبر .. ولما اشتدت شوكة طاهر على محمد وهزمت عساكره وتفرق قواه كان فيمن استأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم فلحق به فولاه ناحية البغيين والأسواق وأمره بحفر الخنادق وتبأ الحيطان في كل ما غلب عليه من الدور والدروب

(١) المجانيق : آلة ترمى بها الحجارة (معربة) .

(٢) العرادات : جمع العرادة وهي أصغر من الآلة السابقة .

(٣) يعشر : يأخذ منهم العشر .

وأمدته بالنفقات والفعلة والسلاح وأمر الحربية بلزومه على النواب
ووكل بطريق دار الرقيق وباب الشام واحداً بعد واحد وأمر بمثل الذي
أمر به سعيد بن مالك وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن
بغداد" (١) .

وهكذا أصبحت "بغداد" هدفاً للتدمير والدمار من كلا الطرفين
المتحاربين حتى أصبحت خراباً بعد عمران وعم الدمار والهدم كل
ما فيها من البنيان والإنسان على السواء حتى أوحشت بغداد
و درست معالمها وقتيت محاسنها .

فانطلق شعراء العصر يرثونها ويبيكون عليها ويذرفون الدمع
أنهاراً لما أصاب مدينتهم التي تحولت خراباً وعمتها الوحشة وهي
التي طالما نعمت بالأمن والأمان ونعم فيها أهلها واستظلوا بظلها ،
وراح كثير من شعراء العصر يرثيها وينديها ويتفجع عليها ويتوجع
لما أصابها وما حرق من قصورها وديارها وأريق من دماء أهلها
الآمنين .

وفي رثائها يقول "عمرو بن عبد الملك العتري الوارقي" : (٢)
من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم وكان قريهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ما ذكرتهم إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا قفرتهم دهر وصدعهم والدهر بصدع ما بين الفريقين

(١) ص ٤٤٥ - ٤٤٧ ج٢ تاريخ الطبري . محقق / محمد أبو الفضل
إبراهيم الطبعة الثالثة ، دار المعارف .
(٢) ص ٤٤٧ ج٢ نفس المصدر .

يرثى الشاعر مدينته "بغداد" ويبكى عليها بكاءً شديداً وكله حزن وحسرة على ما أصابها وكله حب صادق ومشاعر جياشة لم ينته واصفاً المصيبة التي حلت بالمدينة وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى مصوراً عظم المصيبة وفداحتها، ويوضح الشاعر هذا الخراب الذي حل ببغداد وهذا الفناء الذي لحق بأهلها وهي التي كانت تزخر بالأمن وتفيض بالبهجة بل كانت قرة العين يزيناها ما فيها من ساكنيها، ثم يتحسر الشاعر ويبكى على بغداد وأهلها وتلدغه لوعة الأسى فتسيل الدمع من عينيه أنهاراً عليهم .

فالشاعر يرثى مدينته وأهلها بعاطفة صادقة تفيض لوعة وحزناً ويتفجر منها مشاعر إنسانية نبيلة وأحاسيس ذاتية جياشة. وللشاعر مرث أخرى كثيرة أخذ يبكى فيها مدينة "بغداد" ويندبها ندباً حاراً مصوراً ما أصابها من خراب ودمار معبراً عن مشاعره الجياشة وعاطفته الحزينة وموضحاً حنينه وحيه لبغداد^(١).

ومن يبكى "بغداد" ورثاها الشاعر العباسي "الحسين الخليل" حيث يقول :

أنسرع الرجلعة إغسلنا إذا	عن جانبي بغداد أم ماذا ^(٢)
ألم تر الفتنة قد ألفت	إلى أولى الفتنة شذا إذا
وانتفضت بغداد عمراتها	عن رأي لاذك ولاهنا
هدماً وحرماً قد أبيد أهلها	عقوبة لاذت بمن لاذنا
ما أحسن الحالات إن لم تعد	بغداد قس القلة بغداداً

(١) ينظر تاريخ الطبري ج ٨ ص ٤٥٩ و ص ٤٦٠ و ص ٤٧٠ و ص ٥٠٠ و ص ٥٠١ .

(٢) ص ٤٤٧ ج ٨ المصدر السابق .

فالشاعر في رثائه لبغداد يصور ما حدث لها على أيدي
الجانبيين المتحارين من دمار وخراب وهدم وحرق وإبادة لأهلها حيث
أخذ كل منهما يدمر ما أمامه من منازل ويقتل كل من أبى إجابته
والدخول في طاعته حتى أوحشت بغداد وبقيت خراباً .

وفي رثاء بغداد يقول بعض فتيانها : (١)

بكيّت دماً على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الأنيق
تبد لنا هموماً من سرور	ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين	فأنتت أهلها بالمتجيق
فقوم أحرقوا بالنار قسراً	ونائحة تنوح على غريق
وصائحاً تنادي وأصحابها	وياكيّة لفقدان الشفيق
وحسوا المدامع ذات دل	مضمنة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب	ووالدها يفر إلى الحريق
وسالبة الغزاة مقلتيها	مضاحكها كلالاً؛ اليسوق
حيارى كالهديا مفكرات	عليهن الفلاذ في الخلق
ينادين الشفيق ولاشفيق	وقد فقد الشقيق من الشقيق
وقوم أخرجوا من ظل دينا	متاعهم يباع بكل سوق
ومفترب قريب الدار ملقى	بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً	فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه	وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنسى من شئ تولى	فإنسى ذاكر دار الرقيق

الآبيات مكتظة بنيران الحنين الملتهب وتفويض بالأحزان والآلام
وتفرق في بحر من دموع الشاعر وليس البحر بحراً من مياه بل هو
بحر من دماء سكبتها عيون الشاعر على ما أصاب بغداد وأهل بها

(١) ص ٤٥٧ ج ٨ تاريخ الطبرى .

من خراب ودمار، وقد استطاع الشاعر أن يصور مأساة بغداد تصويراً رائعاً مفصلاً القول معدداً للمشاهد واصفاً كل ما حدث لها ولأهلها مبرزاً هذه المآسي والفواجع التي نكب بها أهل المدينة إبرازاً دقيقاً مفصلاً رائعاً، كله لقطات تسجيلية تصور حالة الناس وسط هذا الجحيم الذي صب على مدينتهم وعاشوا تحت نيرانها : فقوم قد أفنتهم المنجتيق وآخرون التهمتهم النيران وهم محاصرون وآخرون قد ماتوا غرقى وتنوح عليهم النائحات، ومنهم التي تندب حظها العاثر ومنهم الباكية على زوجها الفقيد ومن بينهم الجميلة التي أخذت تفر من النيران إلى الانتهاج والسلب ومنهم الأب الذي فقد له وصوايه فأخذ يفر من النيران إلى النيران ومنهم الذي نهب ماله ومنهم الملقى على قارعة الطريق وقد قطعت رأسه وفصلت عن جسده ومنهم الحيارى الذين لا يدرون ماذا يصنعون وهكذا أخذ يصور الشاعر هذه المآسى تصويراً دقيقاً بارعاً واصفاً حالة الضياع التي أصابت أهل المدينة وكأنهم فى هول يوم القيامة "يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه" ولا يعرف الخليل خليله ولا الصديق صديقه "فلكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه" .

فأى براعة وأى روعة وأى لوعة تلك التي للأبيات ؟ إنها البراعة فى التصوير والروعة فى الوصف واللوعة فى المعانى والصدق فى العاطفة .

وهذه الأبيات تتفوق على ما سبقها من أبيات فى رثاء "بغداد" سواء مارثى به العترى أو مارثى به الخليل فهى تفوقها وصفاً وتصويراً دقيقاً بالغ الدقة عظيم الروعة وإن اتفق الثلاثة فى مشاعرهم الصادقة الجياشة وعاطفتهم الحزينة الصادقة وحبهم العظيم لبغداد وأهلها .

ولعل أروع قصيدة فى رثاء بغداد بل أروع وأهم قصيدة فى رثاء مدينة من المدن قصيدة الشاعر العباسى أبى يعقوب إسحق

الخرمى* التى رثى فيها بغداد وكى عليها وهى قصيدة طويلة تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً بعد المائة صور الشاعر فى مستهلها روعة بغداد وعظمتها وما كان يعيش فيه أهلها من سعة وسرور وغبطة قبل مصيبتها ونكبتها ثم أخذ يصور بعد ذلك مصيبتها ونكباتها وما أحل بها وبأهلها حتى أصبحت خراباً تسكنها الوحشة ويقم فيها البؤس والرهبنة، فقال الخرمى فى مستهل قصيدته: (١)

قالوا : ولم يلعب الزمان بيف	سداد وتعثر بها عواترها
إذ هى مثل العروس باطنها	مشوق للفتى وظاهرها
جنة خلدودا رميطة	قل من النائبات واترها
درت خلوف الدنيا لسكنها	وقل معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانجعت	فيها بلذاتها حواضرها
فالقوم منها فى روضة أنف	أشرق غب القطار زاهرها
من غره العيش فى بلهته	لو أن دنيا يدوم عامرها
دار ملوك رست قواعدها	فيها وقرت بها منابرها
أهل العلا والسدى وأندية الـ	سفخر إذا عدت مفاخرها

أخذ الخرمى يصور بغداد قبل النكبة ثم تعرض للفتنة التى أحدثت الشقاق ونقض الأمين البيعة لأخيه المأمون ثم تلاها بأبيات تصور صورة بغداد بعد نكبتها متخذاً أسلوب الموازنة سبيلاً لتصوير هذه النكبة حيث أخذ يوازن بين صورة بغداد قبل النكبة وصورتها بعدها فى قوله :

يا هل رأيت الجنان زاهرة	يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعاً	تكن مثل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التى غرس الـ	أملاك مخضرة دساكرها

(١) ص ٤٤٨ - ٤٥٤ ج ٨ تاريخ الطبرى .

محفوفة بالكروم والنخيل والسر
فإنها أصبحت خلايا من الد
قفاً خلافاً تعوى الكلاب بها
وأصبح البؤس ما يفارقها

يحان ما يستغل طائرهما
إنسان قد أدميت محاجرهما
ينكسر منها الرسوم زائرهما
إفألها والسرور هاجرهما

إلى أن قال :

فأين حراسها وحارسها
وأين خصيانها وحشوتها
أين الظباء الأيكار في روضة ال
أين غضارتها ولذتها
فأين رقاصها وزامرها
كأنما أصبحت بساحتهم

وأين مجبورها وجابرها
وأين سكانها وعامرها
ملك تهادى بها غرارتها
وأين مجبورها وحابرها
يجبين حيث انتهت حناجرها
عاداً ومسهم صرارها

فالشاعر يتخذ من الموازنة أسلوباً له في تصوير المأساة التي
حدثت لبغداد حيث أخذ يوازن بين حالتها قبل المصيبة وحالتها بعد
المصيبة ليوضح عظم المصيبة ويبين حجم الفجيعة والمأساة وهو بذلك
يقجر المأساة من خلال مقارنته الأبيض بالأسود والموجب بالسالب
كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل^(١) .

بغداد أصبحت خراباً قفراء موحشة بعد أن كانت عامرة زاهية
بسكانها وحدائقها وقصورها، وسكنتها الكلاب الضالة بعد أهلها
من بنى الإنسان وسكنها البؤس بعد أن كان السرور لها سكناً،
وذهب الحارس والحراس والمجور والجابر والأهل والسكان وذهب كل
جميل كان يسكنها كأنما أسقطت عليهم صاعقة من السماء مثل
صاعقة عاد وثمود .

(١) ص ٣٦٩ في الشعر العباسي الرؤية والفن .

ثم يفصح الشاعر عما بداخله فيذكر أن ما حدث لبغداد وأهلها إنما هو انتقام من الله تعالى بسبب ظلمهم وفسادهم في الأرض وأن الله تعالى قد عاقبهم بعد أن بارزوه بالمعاصي والكبائر وبعد أن أمهلهم كثيراً :

فيقول في ذلك :

ياتوس بغداد دار مملكة	دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها	لما أحاطت بها كباثرها
بالخسف والقذف والحريق وبال	حرب التي أصبحت تساورها
كم رأينا من المعاصي ببغدا	د فهل ذو الجلال غاقرها
حلت ببغداد وهي آمنة	داهية لم تكن محاذرها
طالها السوء من مطالعه	وأدر كت أهلها جرائرها
رق بها الدين واستخف بذى ال	سفضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنسف سيده	بالرغم واستبعدت جرائرها
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتنز أمر السدروب ذاعرها

ثم أخذ الشاعر يصور حالة بغداد وحصارها وما حل بأهلها من خراب ودمار أهلك الحرث والنسل واصفاً المصيبة وصفاً ممتزجاً بالحزن والأسى مصوراً عظم المصيبة وهول الفجعة معدداً للكثير من الصور البشعة والمأسى المؤلمة التي أصبحت تعم المدينة على اختلاف عناصرها وطبقات مجتمعها وعلى اختلاف الأعمار والأجناس وصور ما يعيش فيه الناس من ذعر وفزع، فيقول في ذلك :

ممن ير بغداد والجنود بها	قد رقت حولها عساكرها
كل طحون شهباء باسلة	تسقط أحيالها زماجرها
تلقي بغى الردي أو انسها	يرهقها للقواء طاهرها
والشيخ يعدو حزماً كتابه	يقدم أعجازها يباعورها
كتائب الموت تحت ألوية	أبرح منصورها وناصرها
قتلك ببغداد ما بينى من الذ	ل نفس دورها عصاقرها

محفوظة بالسردى منطقية
إلى أن قال :
بل هل رأيت السيوف مصلتة
والخيل تستن في أزقتها
والنفط والنار في طرائفها
والنهب تعدو به الرجال وقد
كل رقود الضحى مخبأة
بيضة خدر مكنونة برزت
تعشر في ثوبها وتعجلها
تسأل أين الطريق والهة
لم تجتلى الشمس حسن بهجتها
يا هل رأيت الثكلى مولولة
فسي إثر نعش عليه واحدها
وقد رأيت الفتيان في عرصة ال
كل فتى مانع حقيقته
باتت عليه الكلاب نهشه
أما رأيت الخيول جائلة
تعشر بالأوجه الحسان من ال
يطأن أكباد فتية لمجد
أما رأيت النساء تحت المجا
عقائل القوم والعجائز والد
يحملن قوتا من الطحين على ال
وذاث عيش ضحك ومقعدة
تسأل عن أهلها وقد سلبت

بالصغر محصورة جبارها
أشهرها في الأسواق شاهرها
بالترك مستونة خناجرها
وهايباً للدخان عامرها
أبدت خلا خيلها حرائرها
لم تبد في أهلها محاجرها
للناس منشورة غداثرها
كبسة خيل ريعت حوافرها
والنار من خلفها تبادرها
حتى اجتلتها حرب تباشرها
في الطرق تسعى والجهد باهرها
في صدره طعنة يساورها
معرك معفورة مناخرها
تشقى به في الوغى مساعرها
مخضوية من دم أظافرها
بالقوم منكوبة دوائرها
قتلى وغلت دماً أشاعرها
يفلسقها ما تهتم حوافرها
نيسق تعادى شعشأ خفاثرها
عنس لم تحتير معاصرها
أكتاف معصومة مهاجرها
تشدخها صخرة تعاورها
وابتزع عن رأسها غفاثرها

يصور الشاعر في هذه الأبيات ما أصاب بغداد من حصار
ودمار وقتك وهدم وقتل وتشريد ومصائب لسكانها وأخذ يعدد

كثيراً من المأسى والفواجع التي عمت جميع أهل المدينة فهم ما بين قتيل وجريح يتزف الدماء وبين من يعيش في رعب وفزع وهلع وندب وبكاء على الهلكى والقتلى، وقد عم الهول والفزع جميع سكان المدينة حتى هؤلاء الحرائر المكنونة قد خرجن من بيوتهن ناشرات شعورهن من هول الفجيعة التي أحاطت بالمدينة، وبمضى الخريى في أبياته يصور المأساة التي أحاطت بالمدينة وأهلها تصويراً رائعاً مفصلاً تفصيلاً دقيقاً واستطاع أن ينقل إلينا صورة المدينة وما أصابها من خراب ودمار وما حل بأهلها من كوارث وتكبات في تصوير رائع ووصف بارع دقيق معدداً للكثير من هذه الصور البشعة التي حدثت في بغداد أيام محتتها، وقد مضى الخريى في قصيدته يرثى المدينة ويبكى أهلها بكاءً حاراً يتم عن صدق العاطفة ونبل الشعور الإنساني وبدافع شخصى محض دعاه إليه حزنه العميق على ما أصاب بغداد وأهلها وحبه العظيم لمدينته وإخوانه وهو القائل في نهاية القصيدة بعد أن تمنى عودة المدينة المنكوبة إلى سابق عهدها :

لاطمعاً قلتها ولا بطراً لكل نفس هوى يؤمرها
سيرها اللسه بالنصيحة وال خشية فاستدجت مرآثرها
جا، تك تحكى لك الأمور كما ينشربز التجار ناشرها
حملتها صاحباً أخا ثقة يظل عجباً بها يحاصرها

مما يدل على أن الشاعر لم يدفع إلى رثاء المدينة من أحد أو لأى غرض أو كسب مادي أو معنوى، بل انطلق في هذا الرثاء بدافع ذاتى محض نتيجة للعلاقات الوجدانية بينه وبين المدينة. ولأن علاقة الخريى ببغداد - كعلاقة أى شاعر بمدينته الكبيرة - كانت تتجاوزها مشاعر الحب والنعمة معاً فإن هذه المشاعر قد برزت بوضوح في ثنايا المراثية. لكنه مهما كانت ثقته عليها فإنه آخر الأمر - وكما هو شأن الشاعر مع مدينته - لا يملك إلا أن يرثى لما

حل بها من خراب وبار . وقد كان هذا المنحى فى الرثاء جديداً كل
المجدة على مستوى الشعور الإنسانى والتعبير الفنى على
السواء" (١) .

ومن أهم المدن التى رثاها شعراء العصر العباسى الأول مدينة
"البصرة" حيث أحلت بها وبأهلها نكبة فادحة على أيدى الزنج
وقائدهم "على بن محمد" الذى ادعى أنه ينتمى إلى "زيد بن على بن
الحسين بن على ابن أبى طالب" والذى قام بشوة عنيفة ضد الخلافة
العباسية دمر خلالها الأخضر واليابس وأقلق الخلافة العباسية
وجعلها تعيش فى فزع ورعب وحروب عنيفة طوال أربع عشرة سنة
ويضعة أشهر ظلت فيها السيوف متشابكة منذ عام ٢٥٦ إلى عام
٢٧٩ من الهجرة، وقد استطاع هذا الزنجى الثائر أن يجمع حوله
الآلاف من الزنج بزعم أنه قام بشورته لتخليصهم من ريقة العبودية
والذل وسرعان ما تجمعوا حوله وخاض معهم ويهم حروباً قاسية
استباح فيها كل محرم وشنيع حيث استباح استرقاق الأحرار حتى
ولو كانوا من البيت العلوى مما يؤكد كذب دعوته وكذب نسبه إذ أنه
لو كان علوياً كما زعم لما استباح استرقاق العلويات، ولو كان هدفه
تخليص العبيد من الذل والعبودية ما استباح استرقاق الأحرار .

المهم أن صاحب الزنج هذا قد استطاع أن يكون جيشاً من
الزنج أخذ به يغير على المدن العباسية وينهب الأموال والدواب
وأحكام حصاراته على مدينة البصرة بعد إغاراته الكثيرة التى شنها
عليها حتى جاء عام ٢٥٨ هـ فأوقع بالبصرة وأهلها وقعة عظيمة
خرب فيها المدينة ودمر بناياتها وقتل الكثير من أهلها، وأعمل
فيها السلب والنهب والقتل وإشعال النار" (٢) .

(١) ص ٣٧٣ - ٣٧٤ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص ٤٨١ ج٩ تاريخ الطبرى .

ويقدر عدد القتلى في هذه المعركة بنحو ثلاثمائة ألف قتيل بين ذكر وأنثى وأحرق مبانها ومسجدها الجامع واختفى الناس ذعراً في الدور والآبار وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها وكذلك الفئران والسنانير وأفتوها حتى لم يقدروا منها على شئ. وكان إذا مات نهم الواحد أكلوه^(١).

واستغاث أهل "البصرة" بالخلافة والمسلمين جميعاً في أرجاء الدولة وبكى الشعراء المدينة ورثوها رثاءً عتيفاً ثائراً مصورين مأسى المدينة واصفين خرابها داعين إلى الهمة والنجدة لإنقاذ المدينة المنكوبة، وأثارت هذه النكبة المروعة قلوب الشعراء جميعاً فراحوا يبكون ويذرفون الدمع أنهاراً على مدينتهم وأهلها البائسين . وكان "ابن الرومي" في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين بكوا البصرة وصور مأساتها تصويراً حزيناً رائعاً حيث أثارته نكبة المدينة وهزته هزاً من الأعماق فراح يرثيها ويبكى عليها بدموع غزار في قصيدة رائعة طويلة بلغت ستة وثمانين بيتاً، ويقول في مستهلها: (٢)

شغلها عنه بالدموع السجام	زاد عن مقلتي لذيد المنام
سرة من تلکم الهنات العظام	أى نسوم من بعد ما حل بالبصر
سبح جهاراً محارم الإسلام	أى نسوم من بعد ما انتهك الزن
كساد أن لا يقوم في الأوهام	إن هذا من الأمور لأمر
حسبنا أن تكون رؤيا منام	لرأينا مستيقظين أموراً
وعلى الله أيما إقدام	أقدم الخائن اللعين عليها
لاهدى الله سعيه من إمام	وتسمى بغير حق إماماً

(١) ص ١١٩ ج٤ مروج الذهب للمسعودي .

(٢) ص ٢٣٧٧ - ٢٣٨٠ ج٤ ديوان ابن الرومي، تحقيق د/ حسين نصار
طبع : الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨١ م .

فقد أقلقت النكبة ابن الرومي وأوجعت قلبه وأوقعت الحسرة
فى نفسه فراح يبكى على البصرة وأهلها بكاءً مرّاً مستمراً لم
تنوقف عيناه عن الدموع ولم يستطع أن يهدأ أو يركن فى منامه بعد
هذه الفعلة الشنيعة التى أقدم عليها الخائن الدعى صاحب الزنج .

ثم راح الشاعر يبكى البصرة وينوح عليها نواحاً مؤثراً
ويتدبها تدباً حاراً مولولاً معولاً عليها مصوراً حالتها وماكانت عليه
من جمال وعظمة قبل نكبتها وتخريبها فيقول :
لهف نفسى عليك أيتها البصره سره لهفناً كمشل لهب الضرام
لهف نفسى عليك يامعدن الخيد رات لهفناً يعضنسى إبهامسى
لهف نفسى عليك يافرضة البلد سدان لهفناً يبقى على الأعوام
لهف نفسى لجمعك المتفانسى لهف نفسى لعزك المستضام

نرى ابن الرومي يتحسر على البصرة ويصف حالتها قبل أن
تصاب بمصيبتها وتتكب بنكبتها فقد كانت مصدر الخيرات وكانت
قبة الإسلام وكعبة العلم ومهد العلماء ومستقر العز والبهجة، كل
ذلك يصفه ابن الرومي وكله أسى وحسرة على ماأصاب البصرة
وأحل بأهلها من فوادح ومصائب وأهوال .

ونرى ابن الرومي يستخدم أسلوب الموازنة فى قصيدته
ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً فى تصوير المأساة ووصف المصيبة، حيث
وصف البصرة قبل خرابها فى الأبيات السابقة ثم تلاها بوصف
حالتها بعد خرابها وتصوير ماحل بها وبأهلها على أيدى الجناة من
الزنج فى مشاهد حية متعاقبة تبرز المأساة إبرازاً واضحاً وتصور
عظم المصيبة تصويراً دقيقاً، فيقول مصوراً البصرة بعد خرابها
ودخول الزنج إليها وماأحدثوه فيها :

بينما أهلها بأحسن حالٍ إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليبـ سل إذ راح مد لهم الظلام

حملها الحاملات قبل التمام
حق منه تشيب رأس الغلام
وشمال وخلفهم وأمام
كم أغضوا من طاعم بطعام
فتلقوا جبينها الحسام؟
تسرب الخند بين صرعى كرام؟
وهو يعلى بصارم صمصام؟
حين لم يحمه هناك حامى؟
بشبا السيف قبل حين القظام؟
فضحورها جهراً بغير اكتتام؟
بارزاً وجهها بغير لثام؟
طول يسوم كأنه ألف عام
ثم ساقوا السباء كالأغنام
داميات الوجوه للأقدام
زنج يقسم بينهم بالسهام
بعبد ملك الإماء والخدام
طال ما قد غلا على السوام
كان مأوى الضعاف والأيتام
كان من قبل ذلك صعب المرام
تركوه محالف الإعدام
تركوا شملهم بغير نظام
سراء تعريج مدنف ذي سقام
لسؤال ومن لها بالكلام؟
منشآت في البحر كالأعلام؟
أين ذاك البنيان ذو الأحكام؟
من رماد ومن تراب ركام

طلعوا بالمهندات جهراً فالقت
أى هول رأوا بهم أى هول
إذ رموهم بنارهم من يمين
كم أغصوا من شارب بشراب
كم ضنين بنفسه رام منجى
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً
كم أب قد رأى عزيز بنيه
كم مفدى فى أهله أسلموه
كم رضيع هناك قد فطموه
كم فتاة بخاتم الله بكر
كم فتاة مصونة قد سبوا
صبحوهم فكابد القوم منهم
ألف ألف فى ساعة قتلوهم
من رآهن فى المساق سبايا
من رآهن فى المقاسم وسط الز
من رآهن يتخسذن إماء
رب بيع هناك قد أرخصوه
رب بيت هناك قد أخرجوه
رب قصر هناك قد دخلوه
رب ذى نعمة هناك ومال
رب قوم باتوا بأجمع شمل
عرجا صاحبى بالبصرة الزهد
فاسألاها ولا جواب لديها
أين قلبك فيها وقلبك إليها
أين تلك القصور والدور فيها
بدلت تلكم القصور تسللاً

يمضى ابن الرومي على هذه الشاكلة في قصيدته مصوراً ما أصاب البصرة من فواجع وما أحل بها من كوارث، حيث عم الخراب والدمار كل شيء في المدينة من السكان والبنیان، فبينما كان أهل البصرة يعيشون في أمن ورجد فاجأهم صاحب الزنج بجنوده وفعل بهم من الأهوال والفواجع ما تشعب له الولدان حيث أخذ يرمى المدينة بالنيران دون تمييز أو تفریق فقتل الإخوان والأبناء والأبنا حتى إن الأخ كان يرمى أخاه قتيلاً معقراً بالتراب والأب يرمى ابنه وهو يضرب بالسيف القاطع فلا يستطيع أحد أن يحرك ساكناً، بل لم يسلم الأطفال الرضع من قتل هؤلاء الهمج ولم تسلم الفتيات من القتل وانتهاك الأعراض جهاراً دون مراعاة لحرمة دين أو ضمير وأخذوا يقسمون بينهم كأنهن سبايا وغنائم واتخذوهن لهم إماء وخداما وكن الأحرار العفيفات المحصنات المصونات .

ولم يقتصر أهل الزنج على ما فعلوه بأهل المدينة من قتل وهتك عرض وسبي حتى بلغ عدد ما قتلوه نحو المليون مابين ذكر وأنثى وشيخ وطفل بل راحوا يشعلون النيران في كل ما أمامهم من دور وقصور حتى تحولت القصور والديار إلى أكوام من التراب وأصبحت المدينة قفراً لا ترى فيها إلا أطلالاً متدثرة وأشلاء متناثرة هنا وهناك ووجوها مخضبة بالدماء والكثير من البتامة والأراميل الباكيات، بل شمل دمارهم وخرابهم المسجد الجامع بالمدينة فلم يراعوا حرمة للدين ولا للبيوت الله في المدينة، بل شمل الدمار والفناء هؤلاء العباد الزهاد الذين كانوا يعمرن مساجد الله بالصلاة وتلاوة القرآن .

ثم أخذ ابن الرومي - بعد أن صور مأساة المدينة وبكى عليها - يستحضر هم المسلمين ويستصرخ الشعب كله لإغاثة البصرة ومجدها واستخلاصها من أيدي الزنج، رافعاً أمام الناس راية الجهاد منادياً إياهم باسم الإسلام ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يوحدوا

صفهم ويجمعوا شملهم ويعزموا أمرهم على خلاص البصرة وإخراج الغزاة من الزنج ودحرهم عن المدينة، ومضى ابن الرومي ينادى بصوت مرتفع مستنفرًا المسلمين لإنقاذ هذه المدينة المنكوبة فيقول في ذلك :

كم خذلنا من ناسك ذي اجتهادٍ
واندامى على التخلف عنهم
واحيائى منهم إذا ما التفتينا
أى عذر لنا وأى جوابٍ
يا عبادي : أما غضبتم لوجهي
أخذلتهم إخوانكم وقعدتكم
كيف لم تعطفوا على أخواتٍ
لم تغاروا لغيرتى فتركتكم

إلى أن قال :

واحيائى من النبى إذا ما
وانقطاعى إذا هم خاصموى
مثلوا قوله لكم أيها النا
أمتى أين كنتم إذ دعتنى
صرخت : "يا محمداه" فهلا

إلى أن قال :

إنفروا أيها الكرام خفافاً
أبرموا أمرهم وأنتم نيام
صدقوا ظن إخوة أملوكم
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم
لم تقروا العيون منهم بنصر
أنقذوا سيهم وقل لهم ذا

وثقالاً إلى العبيد الطعام
سوءة تسوءة لتسوم النيام
ورجوكم لنسوة الأيام
مثل رد الأرواح فى الأجسام
فأقروا عيونهم بانتقام
كحفاظاً ورعية للذمام

عارهم لازم لكم أيها النا
إن قعدتسم عن اللعين فأنتم
إلى أن قال :
لا تطيلسوا المقام عن جنة الخلد
فاشترروا الباقيات بالعرض الأد
س لأن الأديسان كالأرحام
شركاء اللعين فى الأثام
سد فأنتم فى غير دار مقام
نسى ويبعروا انقطاعه بالدوام

وهكذا أخذ ابن الرومى يستحفز المسلمين ويستنصرهم لأهل
البصرة متخذاً من الجهاد الدينى واسم الإسلام ورسوله صلى الله
عليه وسلم والتبشير بالثواب الجزيل من الله تعالى سبلاً بنى عليه
دعوته ونداء للشعب العباسى .

وقد أثرت هذه القصيدة فى جموع طبقات الشعب حكماً
ومحكومين واستجابوا لصراخ ابن الرومى وندائه وجهزت الدولة
جيشاً ضخماً تحت قيادة "الموفق" أخى الخليفة "المعتد" وقاتل الزنج
وهزمهم شر هزيمة ومازال "الموفق" يتابع حروبه ضد الزنج حتى قضى
على ثورتهم وعاد برأس زعيمهم وأمنت الدولة شرهم وراح الشعراء
يهنئون الموفق ويمدحونه ويشيدون به ويشجاعته إشادة بالغة كما فعل
"ابن الرومى" وعبد الله بن المعتز" وغيرهما من شعراء العصر الذين
مدحوه .

وهكذا برع ابن الرومى فى قصيدته قلباً وقالباً واستطاع أن
يؤثر فى الشعب العباسى حتى اشتفت نفسه بالثأر من الزنج
وهزيمتهم شر هزيمة بقيادة الموفق بالله العباسى، "فهذه المراثية التى
قالها ابن الرومى فى مدينة البصرة كان الهدف منها صياغة المأساة
صياغة شعرية فيها ما يكون فى الشعر من تهويل وإثارة لحفز همة
الخليفة المعتد على النهوض لنصرة المدينة البائسة والتصدى لأولئك
الشوار الخطيرين .. وانطلق يصور المأساة بدافع ذاتى ولكنه أدى فى

الوقت نفسه دوراً فعالاً في حفز الهمم لإدراك المدينة
المستباحة^(١).

ومن المدن التي رثت في العصر العباسي الأول مدينة "سر من
رأى" حيث لحقتها الخراب والدمار دون حروب أو معارك بعدما تركها
الخليفة المعتضد بن الموفق واستبدل بها بغداد فضاقت أبعثها وخربت
بعد أن كانت تضارع "بغداد" وهجرها الناس بعد انتقال مقر الخلافة
إلى بغداد مرة أخرى فأصبحت خربة موحشة، وفيها يقول "عبد الله
بن المعتز" يرثيها ويصف حالتها البائسة بعد تدهمها: (٢)

قد أقفرت سر من رأ

فالتقض يحمل منها

ماتت كمات فيل

فابن المعتز يرثي مدينة "سر من رأى" ويصف حالتها البائسة

حيث خلت المدينة من مظاهر الحياة وأنها أصبحت أطلالاً بالية وقد
أخذ الناس يحملون أنقاضها كأنهم يحملون فروع شجر من الغابات
عند احتطابهم وأن أنقاض المدينة تنتزع كما تنتزع عظام الغيل
للاتفاح بها، وهكذا ماتت المدينة ولم تقم لها قائمة .

ويلاحظ على هذه الأبيات أنها تخلو من الشورة والقوة
والغضب والعنف في رثائها فشتان بين هذه الأبيات وبين رثاء
"بغداد" والبصرة" في رثائهما حيث كان الأسلوب قوياً عنيفاً صاخباً
مصوراً المأساة بحدة وقسوة أما أبيات ابن المعتز فهي رثاء سهل في

(١) ص ٣٧٦ في الشعر العباسي الرؤية والفن .

(٢) ص ١١٢ ج ٣ المنتخب من أدب العرب .

(٣) سر من رأى : مدينة عظيمة .

(٤) التقض : البناء المهدم . الأجام : الشجر الملتف .

أسلوبه وتصويره لم تبرز المأساة فيها عنيفة حادة وتخفت فيها عاطفة الشاعر خفوتاً واضحاً فلم تكن كعاطفة الشعراء الثائرة العنيفة في رثاء بغداد والبصرة ولعل السبب هو حجم المصيبة المختلف بين هذا وتلك، فمصيبة بغداد ونكبة البصرة كانتا أقوى وأعظم وأعنف من مصيبة سر من رأى حيث عم الخراب والدمار المدينتين وشمل البتيان والإنسان في صور بشعة رهيبة أما مصيبة "سر من رأى" فقد وقفت عند مبانيتها ولم تشمل ساكنيها فكانت أخف وطأة وأقل نكبة عن سابقتها .

هذا وقد اعتمد الشاعر اعتماداً كبيراً على التشبيه في تصوير الدمار والخراب الذي حل بالمدينة فالشاعر في هذا الميدان لا يبارى . كذلك رثى الشعراء "المدينة المنورة" حينما خربت وعذب أهلها على يدي "محمد بن الحسن بن جعفر بن موسى" وأخيه "علي" في صفر سنة إحدى وتسعين ومائتين، وفي رثائها يقول الفضل بن العباس العلوي: (١)

أخرت دار هجرة المصطفى البـ	سرفيكسى والمنبر الميمونسا
وعلى المسجد الذى أسسه التقـ	سوى خلاء أضحى من العابدينا
وعلى طيبة النسي يبارك الله عليها	بخاتسم المرسلينا
قيح الله معشراً أخريوها	وأطاعوا مشرداً ملعونسا
أخريوها برأى أسود عبدـ	أبسق لا يدين للهدينا
فأبسى الدهر لأراك لمانسا	لوه من حرمة النبي حزينا

يبكى الشاعر لما أصاب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصور النكبة التي أصابها فأبكت جموع المسلمين، هذه المدينة المقدسة التي تضم في ربوعها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) ص ٣١٥ معجم الشعراء - للإمام أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

ومسجده الذي أسسه على التقوى ومثوره ومثوى جسده الطاهر بل كانت دار هجرته ومكان نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم أخذ الشاعر في سب ولعن هؤلاء الجناة الذين خربوا المدينة المنورة بزعامة عبد أبى لادين له .

كذلك كانت "مكة المكرمة" من بين المدن التي رثت في العصر العباسي الأول حيث تعرضت للحرق والنهب في خلافة "المستعين" حينما تغلب إسماعيل بن يوسف من أولاد "علي بن أبي طالب" على مكة ونهب منزل عاملها ومنازل أصحاب السلطان وأخذ من الناس نحو مائتي ألف دينار وأخذ كسوة الكعبة وما في الكعبة وخزائنها من الأموال ونهبت مكة وأحرق بعضها .. وجاء القرامطة فأفسدوا في البلاد وزحفوا على مكة واستولوا عليها وأرتكبوا أشنع الفظائع ونهبوا الحجاج ومنعوا من زيارة البيت الحرام وفي سنة ٣١٢ نكلوا بالحججاج أعظم تنكيل وكان عدد الذين قتلهم القرامطة في تلك السنة من الحججاج وفي بيت الله وشوارع مكة وضواحيها ثلاثة آلاف غير الذين ماتوا جوعاً ونهبوا من الأموال آلاف الآلاف^(١).

وفي رثاء "مكة" تقول "عائشة العثمانية"^(٢):

أرقت لسرق يد اذوؤه بمكة يسدو ويخفى مراراً
قبست أملكس في مضجعي وأبكي جهاراً وأبكي سراراً^(٣)
لأم القسرى خربت بالحريسق ومات بها الناس سيقاً وناراً

(١) ص ٣١٢ - ٣١٣ ج ١ ظهر الإسلام لأحمد أمين، الطبعة الخامسة ١٩٧٨ م .

(٢) ص ٤٢٤ طبقات الشعراء . لابن المعتز .

(٣) مملعة المرض : جعله يتقلب على فراشه .

إلى الله أشكو مقام العدا
وأسرى تظلم أيديهم
فمن صابر نفسه في البلاء
ومن حامل نفسه في السفين
فيا قرية كنت مأوى الضعيف
ومأوى الغريب ومأوى القريب
سأيكسى قريشاً لما نالها
وأضحوا عباديد قد شردوا
بجيران بيتك حل النكال

بمكة قد حاصروها حصارا
فماتوا صفوفاً وماتوا حذارا
ومن خائف فر منها فطارا
يجوب الدجى ويخوض البحارا
إذا لم يجد في سواها قرارا
وأمنة ليلها والنهارا
ويدلها الخوف داراً فدارا
وحلوا الجبال وحلوا القفارا
وقد عجز من كان لله جارا

نرى الشاعرة ترمي "مكة المكرمة" وتصف المصيبة التي حلت
بها وصفاً مزوجاً بالحزن والأسى بصورة عظم الفجعة وهول الكارثة
تصويراً مفصلاً، فهي حزينه متألمة قد أرقت لما أصاب مكة ولم
تهدأ نفسها أو تركز للراحة وهي دائمة البكاء عليها جهاراً
وإسراراً، وتصف ما حدث لمكة فنقول : إنها قد خربت حرقاً وقتالاً
وحصاراً وذاق أهلها المأسى والأهوال فهم بين : قتيل وصابر على
البلاء وخائف فر هارياً، وهي المدينة التي كانت يأمن فيها الضعيف
والغريب والقريب إلا أنها قد تغيرت وتشتت أهلها في الجبال
والصحراء .

فالشاعرة ترمي "مكة" رثاء حاراً وتصف مصيبتها متخذة من
الموازنة بين حالتها قبل الخراب ويعدده سبباً لتصوير المأساة وتعظيم
حجمها وبيان خطبها الجلل، كل ذلك تصوره الشاعرة بعاطفة حزينة
صادقة ومشاعر جياشة وينفس تعتصر ألماً وحسرة لما أصاب أم
القرى "مكة" .

وهكذا عرف شعر الرثاء في العصر العباسي الأول "رثاء المدن" وهو رثاء جديد وإطار مبتكر استجد في العصر العباسي الأول "ومهما يكن من شيء فإن رثاء المدن في العصر العباسي كان يمثل موقفاً جديداً لشاعر العصر فرضته عليه ظروف الحياة في المدينة وارتباطه الوجداني بها إلى جانب الأحداث والظروف السياسية الداخلية التي عرفها ذلك العصر. وإذا لم يكن في تراثه الشعري القديم تقاليد فنية راسخة لمثل هذا الرثاء كان عليه أن يعول على نفسه في ابتكار الأطر المعنوية واللغوية التي يصوغه فيها"^(١).

ومع أن رثاء المدن يعد رثاءً جديداً في الأدب العربي ابتكر منذ العصر العباسي الأول رأينا بعض الباحثين لا يقررون ذلك ويعتبرون الفضل فيه لأهل الأندلس كما ذهب إلى ذلك الدكتور أحمد أمين حيث يقول : "لقد رأينا مدناً في المشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر تستوجب الرثاء والبكاء كما سقطت بغداد في يد التتار وأزالوا كل ما فيها من مظاهر مدنية وحضارة، وفعل التتار فيها مالا يقل عما فعله الأسبان في الأندلس، وغزا هولاء وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام وأسقطوها بلداً بلداً فما رأينا عاطفة قوية ولارثاء صارخاً ولأدباً رقيقاً ولاتاريخاً مسجلاً كالذي رأيناه في الأندلس، فإن قلنا إن هذه الناحية في التاريخ الأندلسي أقوى وأشد لم نعد عن الصواب"^(٢).

فإننا نرى الدكتور أحمد أمين في حديثه يتجاهل تماماً رثاء المدن في العصر العباسي الأول ولم يشر إلى ذلك لآمن بعيد وآمن قريب حيث تعرض في أول الحديث لسقوط بغداد في يد التتار حيثما

(١) ص ٣٧٨ في الشعر العباسي الرؤيا والفن .

(٢) ص ٢٨٧ ج ٣ ظهر الإسلام، الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية.

أزالوا كل ما فيها من مظاهر المدينة والحضارة وكان هذا السقوط فى أواخر العصر العباسى بينما لم يتعرض للتدمير والحرق الذى أصاب بعض المدن فى العصر العباسى الأول مثلما أصاب : "بغداد" و"البصرة" وسر من رأى "والمدينة المنورة" ومكة المكرمة" وراح شعراء العصر يبكونها بكاءً قوياً صارخاً مسجلاً التاريخ مصوراً هذا التدمير والحرق تصويراً مفصلاً رائعاً بكل اللوعة والحسرة وصدق العاطفة والمشاعر الصادقة الجياشة، والدكتور أحمد أمين - وكما هو واضح من كلامه - يثبت وجود هذا اللون من رثاء المدن بعد سقوط بغداد فى يد التتار ويرى أنه لم يرق إلى مستوى رثاء المدن عند الأندلسيين بينما يتجاهل تماماً الحديث عن رثاء المدن فى العصر العباسى الأول وكأن هذا العصر لم يعرف هذا اللون من الرثاء وكأنه لم يعرف إلا بعد سقوط بغداد فى يد التتار وهذا يخالف الصواب والحقيقة فرثاء المدن عرف منذ العصر العباسى الأول وإليه يرجع الفضل فى وجود هذا اللون من الرثاء فى أدبنا العربى ثم احتذته العصور التالية سواء كانت فى المشرق أو المغرب خاصة عند الأندلسيين الذين برعوا براعة فائقة فى نظم هذا اللون وإن كان قد سبقهم إليه شعراء العصر العباسى الأول .

فرثاء المدن فن جديد استجد فى العصر العباسى الأول وأختره شعراء العصر وأبدعوا فيه إبداعاً عظيماً وقد ذكرنا بعض القصائد الرائعة التى تشيت هذا القول عند حديثنا عن رثاء "بغداد" و"البصرة" وغيرهما من المدن العباسية التى رثاها شعراء العصر وبكوا عليها بكاءً حاراً ملتهباً لا يقتل روعة عن رثاء المدن فى الأندلس وإن كان رثاء المدن فى الأندلس أكثر كماً وأكثر صراخاً وعويلاً وأعظم حسرةً وفجيعة حيث ذهبت المدن الإسلامية فى الأندلس وانتزعت من أيدى المسلمين على يد الأسبان المسيحيين الذين أزالوا كل ما فيها من مظاهر إسلامية وكل من فيها من المسلمين، فالمصيبة التى

أصابته المدن الأندلسية كانت أكبر وأعظم وأفدح من المصائب التي أصابت بعض المدن في العصر العباسي الأول، فقد بكى شعراء الأندلس مدناً إسلامية قد دمرت وخرت وأبىد كل ما فيها ومن فيها من المسلمين على أيدي أعدائهم بينما ظلت المدن العباسية - على الرغم مما أصابها من تدمير وخراب - في أيدي المسلمين وبقيت فيها كل مظاهر الإسلام وعبادة الله تعالى قائمة.

فمن هنا كان رثاء الأندلسيين لمدنهم أقوى وأروع وأكثر من رثاء العباسيين لمدنهم وإن كان رثاء العباسيين لمدنهم أيضاً رائعاً قوياً صارخاً ولكن ذلك لا ينفى سبق العباسيين لهذا اللون من الرثاء وابتداعهم له وإجادتهم فيه .

وكما تجاهل الدكتور أحمد أمين رثاء المدن في العصر العباسي الأول تماماً رأيناه - ومن خلال حديثه الذي ذكرناه - ينفى هذا اللون من الرثاء - في أول حديثه - عن دول المشرق كما يتجلى في قوله : "فما رأينا عاطفة قوية ولارثاء صارخاً ولا أدباً رقيقاً ولا تاريخاً مسجلاً" .

وهذا يخالف الواقع والحقيقة فلدول المشرق بعد العصر العباسي الأول رثاء رائع في رثاء المدن - وإن كان يقل روعة عن رثاء الأندلسيين والعباسيين في عصرهم الأول لضعف الشعر العربي بوجه عام في عصر الغزو التتاري إلا أنهم قد رثوا مدنهم وعرفوا هذا اللون في شعرهم كرثاء الشاعر شمس الدين الكوفي لمدينة بغداد "ورثاء الشاعر علاء الدين العزولي لمدينة دمشق" وغير ذلك مما هو موجود في الشعر العربي لهذه العصور .

كذلك وقع الدكتور أحمد أمين في التناقض والخلط في أول حديثه وآخره حيث نفى في أول الحديث رثاء المدن عند دول المشرق بينما نراه يعترف ضمناً في آخر حديثه بوجود هذا اللون عندهم. فقولته : "فإن قلنا : إن هذه الناحية في التاريخ الأندلسي أقوى

وأشد لم تبعد عن الصواب قد يبدو متعارضاً مع قوله : فما رأينا
رثاء صارخاً ولا أدباً رقيقاً ولا تاريخاً مسجلاً لأن القول الأخير
يعترف بوجود هذا اللون على نحو أقل من لون الأندلس والقول
الأول يكاد يحكم بعدمه مع أن المتصفح لكتب الأدب والتاريخ يرى
رثاء المدن ذائعاً في كل محنة" كما يقول أستاذنا الدكتور محمد
رجب البيومي - (١) .

فرثاء المدن فن جديد ابتكر في العصر العباسي الأول وابتدعه
الشعراء في ذلك العصر وأبدعوا فيه إبداعاً عظيماً، وقد اعترف
بذلك كثير من الباحثين والناقدين، ففضلاً عن الدكتور محمد أحمد
البيومي - كما ذكرنا ذلك من قبل - نرى الدكتور شوقي ضيف
يرى سبق العباسيين لهذا اللون من الرثاء على الأندلسيين في قوله :
"ولم يحتدم في الأندلس رثاء الدول الزائلة ويكائها فحسب فقد
احتدم معه رثاء المدن التي كانت تتساقط في أيدي المسيحيين
الإسبانيين وليس هذا الضرب من الرثاء جديداً فقد بكى الخرمي،
وغيره بغداد حين رماها طاهر بن الحسين قائد المأمون بالمجانيق في
حربه لأخيه الأمين ناديين ماحرق من قصورها وأحيانها وأريق من
دماء أهلها. ويكأ ابن الرومي للبصرة حين خربها الزنج وسفكوا
دماء أهلها ذائع مشهور والمدينتان جميعاً لم تسقطا في أيدي أعداء
على نحو ما كانت تسقط مدن الأندلس ولا فر أهلها منها إلى غير
مآب ومن أجل ذلك كان بكاء الأندلسيين لمدنهم أكثر حرارة" (٢).

(١) ص ٢١١ الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثر ، للدكتور / محمد رجب
البيومي . طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
(٢) ص ١٦٢ فصول في الشعر ونقده ، الطبعة الثانية . دار المعارف .

فالدكتور شوقي ضيف يرى سبق العباسيين في هذا اللون من رثاء المدن وإن كان رثاء الأندلسيين لمدنهم أكثر حرارة تبعاً لعظم المصيبة وهول الفجعة .

كذلك ذهب هذا المذهب الدكتور / عز الدين إسماعيل (١) ، والدكتور جودت الركابي (٢) . وغيرهما من الباحثين والنقاد ، وهو مانقره ونشئته ونراه رأياً صائباً .

وما يتصل برثاء المدن اتصالاً مباشراً وثيقاً رثاء القصور في العصر العباسي الأول وهو لون جديد من ألوان الرثاء ظهر في هذا العصر وابتكره شعراؤه ، حيث راح الشعراء - بيبكون القصور ويرثونها ويتدبونتها ندباً حاراً واصفين عظم المصيبة وهول الفجعة التي أحلت بالقصور وصفاً مزوجاً بالحزن والأسى معبرين عن مشاعرهم ومتأثرين تأثيراً عظيماً بما حدث لها ومشاركين القصور همومها وفواجعها التي حلت بها ومصورين ما حدث للقصور من خراب ودمار واصفين المأساة وصفاً حزيناً في براعة وروعة ، ولعل أبرع شاعر من شعراء العصر العباسي الأول في رثاء القصور هو "البحتري" حيث برع براعة معدومة النظير في رثاء القصور وندبها والبكاء عليها وتصوير المصيبة التي حلت بها تصويراً رائعاً مجسداً ، ومن هذا القبيل رثاؤه لقصر الخليفة المتوكل "الجعفرى" وهو القصر الذي قتل فيه الخليفة أمام البحتري وناله التخريب والإقساد أمام عينيه فيقول يرثيه: (٣)

مسل على القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره (٤)
كان الصبا توفى نذورا إذا انبرت تراوحه أذبالها وتباكره (٥)

(١) ص ٣٦٤ في الشعر العباسي الروية والفن .

(٢) ص ١١٤ في الأدب الأندلسي ، الطبعة الرابعة .

(٣) ص ١٠٤٥ ج ٢ ديوان البحتري .

(٤) القاطول: نهر من دجلة . أخلق: بلى . دائره: البالى . تغاوره: محاربه .

(٥) تراوحه: تهب عليه آخر النهار . وتباكره: تهب عليه أول النهار .

وربّ زمانٍ ناعم - ثمّ - عهده	تسرق حواشيه ويوتق ناضره (١)
تغير حسن الجعفرى وأنسه	وقوض بىادى الجعفرى وحاضره (٢)
تحمل عنه ساكنوه فجماءً	فصادت سواً دوره ومقابره (٣)
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى	وقد كان قبل اليوم يبهج زائره (٤)
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه	وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره (٥)
وإذ صيغ فيه بالرحيل فهتكت	على عجل أستاره وستاره (٦)
ووحشته حتى كأن لم يقم به	أنيساً، ولم يحسن لعينٍ مناظره (٧)
كأن لم تبت فيه الخلالة طلقه	بشاشتها، والمملك يشرق زاهره (٨)
ولم تجمع الدنيا إليه بهاها	وبهجتها والعيش غضّ مكاسره (٩)

قالبحترى يرثى قصر "الجعفرى" ويبكى على ما أصابه من خراب ودمار شمل كل جانب من جوانبه، ويصور المصيبة التى لحقت

- (١) ترق حواشيه : تسعد جوانبه . يورق ناضره : يحسن عهده .
(٢) قوض : تهدم . بادية : ظاهره . حاضره : داخله .
(٣) تحمل : إرتحل .
(٤) أجد لنا الأسى : جدد لنا الحزن .
(٥) وحش القصر : نساؤه الجميلات . ريع : أفزع . السرب : الجماعة . الأطلاء : النظباء . الجآذر : أولاد البقر الوحشى .
(٦) هتكت : مزقت . أستاره : جمع ستر . ستاره : جمع ستارة .
(٧) الوحشة : الخلو ، حتى كأن لم يكن به أحد .
(٨) طلقه : ضاحكة مشرقة . البشاشة : طلاقة الوجه . الزاهر : المشرق الجميل من الألوان .
(٩) بهاها : حسنها وجمالها . البهجة : الحسن . غض : طرى ناعم . مكاسره : جمع مكسر ، والمكاسر من الشجر : جذوعها حيث تكسر منه الأغصان واستعاره هنا : للعيش .

به ويصفها وصفاً ممزوجاً بالحزن والأسى، ويندب أيام المجد والبهاء التي عاش فيها القصر وشهدتها أيام كانت الخلافة تطلعه فيه، لقد تغير القصر عما كان عليه من جمال وحسن، وتهدم ظاهره وداخله وارتحل عنه ساكنوه فأصبح خراباً كأنه القبر في وحشته، وكلما زاره الباحثرى جدد أحزانه وألهب مشاعره وهو الذى كان قبل ذلك موثلاً للبهجة والسرور ومرتعاً للحسن والبهاء، ثم أخذ الشاعر يندب القصر ندباً حاراً ويبكى على أهله : من نساء جميلات قد أفزعن وتشتتن منه بعد مصرع المتوكل .

والباحثرى لا ينسى هذا المنظر المفزع - حيث كان حاضراً مقتل الخليفة المتوكل وشاهد ما حدث للقصر وأهله من أهوال وقواجع - لنساء القصر الجميلات اللاتي يشبهن البقر الوحشى فى جمال العيون واللاتى يشبهن أولاده فى ذعرهم وفزعهم عند حدوث الخطر بهم كما لا ينسى خروجهن من القصر وهن باكيات معولات بعد أن خربت أستاره ومزقت ستائره، كما لا ينسى وحشة القصر وخلوه من ساكنيه - وهو الذى كان يأنس بهم - كأنه لم يكن فى يوم من الأيام مكاناً للخلافة ومستقراً للملك المشرق وكأنه لم يكن فى يوم من الأيام زينة الدنيا ونعيم العيش .

فالباحثرى يرثى القصر رثاء حاراً ويندبه ندباً مفاجئاً ويبكى عليه بكاء دامعاً بكل الصدق والوفاء والمشاعر الصادقة الجياشة حيث أخذ يبكيه وخليفته من منطلق ذاتى محض بعد خراب القصر ومصرع صاحبه. وقد استطاع الباحثرى أن يصور المأساة تصويراً حياً رانعاً مؤثراً يهز القلوب هزاً ويحرك المشاعر حزناً لما أصاب القصر وعطفاً وحياً لأهله، كل ذلك بأسلوب عذب محكم وتصوير بارع حتى يجسد المصيبة تجسيدا .

ومن أروع رثاء القصور كذلك رثاء الباحثرى "للإيوان الفارسى" "قصر كسرى الأبيض" حيث رثى القصر وندبه وبكى أهله بكاء حاراً

فى سنتيه المشهوره التى تعد ويحق من عيون الشعر العربى، ومن
قوله فيها يرثى القصر الفارسى : "ص ١١٥٤ ج ٢ ديوانه".
حضرت رحلى الهموم فوجه - ست إلى أبيض المدائن عنس
إلى أن قال :
فكأن الجرماز من عدم الإن - سن وإخلاله بنيسة رمس
لو تسراه علمت أن اللبالي - جعلت فيه مآتماً بعد عرس
وهو يتبيك عن عجائب قسوم - لا يشاب البيسان فيهم بلبس

ثم أخذ بعد ذلك يصف صورة صورت على جدران الإيوان
ويصورها تصويراً رائعاً معتمداً فى ذلك على تصويره الحسى
المتحرك .

فالبحترى يبكى قصر كسرى وينديه ندباً حاراً مصوراً عظم
المصيبة وهول الفجيعة التى حلت به متخذاً أسلوب الموزانة بين حالة
القصر أيام بهائه وحالته بعد فجيئته وفنائه سبيلاً لتصوير عظم
المصيبة وكبر فداحتها، فهذا الإيوان قد تحول إلى قبر ضخم وتحولت
فيه الأعراس مآتماً بعد أن كان يكتنظ بالترف والنعيم أيام الأكاسرة.
إلا أنه يلاحظ أن رثاء القصر لم يأت فى قصيدة مستقلة
بعينها بل جاء رثاؤه فى قصيدته الأولى ضمن قصيدة رثا فيها
الخليفة المتوكل مصدرأ القصيدة برثاء القصر الجعفرى، وجاء رثاؤه
للقصر الفارسى ضمن قصيدة يرثى فيها دولة الفرس ويبكى على
أيامهم وحضارتهم وآثارهم ومنها هذا الإيوان الفارسى .

وإذا كان رثاء القصور من موضوعات الرثاء الجديدة التى
برزت فى العصر العباسى الأول فإن لذلك أصولاً قديمة فى الأدب
العربى، فرثاء الأطلال وبكاؤها يعد تمهيداً لرثاء القصور التى جدت
وجد معها رثاؤها، بل إن رثاء الإطلال وبكاؤها هو الذى أوحى
للبحترى ولغيره بهذا الموضوع الجديد وهو "رثاء القصور".

«الفصل السادس»
«رثاء الحيوانات والطيور»

«رثاء الحيوانات والطيور»

كذلك يعد رثاء الحيوانات والطيور الأليفة من موضوعات الرثاء التي وجدت واستحدثت في العصر العباسي الأول فلم تكن معروفة من قبل في رثاء العصور السابقة على هذا العصر، فهو ضرب من الرثاء جديد ابتكر في العصر العباسي الأول ولم يتجه إليه الشعراء السابقون لاقى العصر الجاهلي ولا الإسلامي ولا الأموي حيث لم تبلغ الحضارة ولم تربط العاطفة بين الشعراء والحيوان والطيور مثلما كانت في العصر العباسي فقد بلغت الحضارة وحياة الترف مبلغاً عظيماً لم يوجد مثله في العصور السابقة وتوطدت العلاقة والعاطفة بين الإنسان في العصر العباسي وبين كل من الحيوان والطيور الأليفة توطداً وثيقاً .

صحيح لقد اتجه الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى الحيوان والطيور فوصفوا كلاً منهما وصفاً رائعاً إلا أنهم لم يتجهوا إلى رثائه وبكائه بعد مماته مثلما فعل شعراء العصر العباسي الأول .

"فهو ضرب جديد من الرثاء يكشف عن معنى حضارى، حيث تتولد العاطفة التي تربط بين الإنسان وهذا النوع من الحيوان - وكذلك الطير - والتي تغدو قوية في نفس الإنسان حتى إن فقده للحيوان الأليف لديه - وكذلك الطير الأليف - يبعث في نفسه الأسى والحزن"^(١) .

ومن مراثى الحيوانات في العصر العباسي الأول رثاء أبي نواس لكلب صيد لسعته حية فمات فقال يرثيه بقوله:^(٢)

(١) ص ٣٧٨ في الشعر العباسي الرؤية والفن .

(٢) ص ١٠٥ ديوان أبي نواس . دار بيروت للطباعة والنشر عام ١٤٠٢ هـ . ١٩٨٢ م .

يايؤس كلبى سيد الكلاب قد أغناني عن العقاب
وكان قد أجزى عن القصاب وعن شراء الجلب الجلاب (١)
ياعين جودي لى على حلاب من للظباء العفر والذئاب
وكل صقر طالع وثاب يختطف القطبان فى الروابي
كالبرق بين النجم والسحاب كم من غزال لاحق الأقراب
ذى جينة صعب وذى ذهب أشبغى منه من الكباب
خرجتُ والدينيا إلى تياب به وكان عدتى ونابى (٢)
أصفر قد خرج بالملاب كأنما يدهن بالزرياب (٣)
فبينما نحن به فى الغاب إذ برزت كالحمة الأنياب
رقشاء جرداء من الثياب كأنما تبصر من نقاب
فعلقت عرقوبه بناب لم ترع لى حقاً ولم تحاب
فخر وانصاعت بلا ارتياب كأنما تنفخ من جراب
لاأبت إن أبت بلا عقاب حتى تذوقى أوجع العذاب

الشاعر العباسى يرثى كلبه ويبكى عليه ويندبه ويندب حظه فيه ويأخذ فى أثناء ذلك فى تعداد فضائله وما كان يتصف من صفات عظيمة بين أمثاله وأضرابه من كلاب الصيد، فقد كان أعظم الكلاب وسيدها، ويعنى صاحبه عن أدوات الصيد الأخرى كما يعنى صاحبه عن احتياجه للخدم حيث كان الكلب يقوم بقضاء حوائج صاحبه فقد كان كلباً فطناً ذكياً، كما أنه كثيراً ما اصطاد لصاحبه الصيد الكثير الذى سد به حاجته وأغناه به عن شراء اللحم . وكان كلباً شجاعاً يهاجم الظباء والذئاب والصقور المفترسة ويعنقها أن تلحق الأذى بالناس - خاصة الأطفال منهم - وكان سريعاً

(١) أجزى : أغنى . الحلب : الخدم الجلوية .

(٢) التياب : الهلاك .

(٣) خرج : درب . الملاب : دهن يدهن به . الزرياب : ماء الذهب .

كالبرق الخاطف بين النجم والسماء، وكان نظيفاً جميلاً أصفر اللون كأنه دهن بما الذهب .
ويعد أن عدد أبو نواس فضائل كلبه وصفاته أخذ يقص قصة قتله : حيث كان معه في رحلة صيد في الغابة إذ فاجأته حية كثيرة السم فلذغته وقتلته وعادت بكل هدوء وقد تركته صريعاً ولم ترع حقاً لصاحبه وعادت تنفخ من فمها معبرة عن نصرها عليه .
ثم نرى الشاعر - في آخر بيت - يتوعد الحية ويذكر أنه سيقصص منها ويأخذ الثأر لكلبه .

فأبو نواس في رثائه لكلبه يذكر فضائله ومميزاته ثم يذكر كيفية مصرعه لتضح المصيبة وتبرز الفجاعة، ونراه - ويحق - حزيناً متأثراً لمصرع كلبه ويرثيه بعاطفة صادقة ومشاعر جياشة تفيض حزناً وحسرة على كلبه وتدلل على حبه العظيم له .
فالمرثية رائعة تكشف لنا عن مدى التطور الحضاري وعن عظم الخبرات والإمكانيات التي اكتسبها شعراء العصر العباسي الأول في تطويع إمكانياتهم لكل جديد مستحدث في شعرهم .
ومن رثاء الكلب في العصر العباسي الأول مرثية الشاعر "محمد بن المغيرة العتكي" والتي ورد منها بيت واحد في معجم الشعراء للمرزياني يبدو أنه مطلقاً فقط وهو : (١)
أقفرت منك ياكلبس الديار ويكي لفقدك العيون الحوار
كذلك رثى ابن الزيات فرساً أشهب لم ير مثله فراهة وحسناً
فلما مات رثاه بقصيدة طويلة قال فيها : (٢)
كيف العزا - وقد مضى لسبيله عنا فودعنا الأحم الأشهب (٣)

(١) ص ٤٤٢ معجم الشعراء ، للمرزياني .

(٢) ص ٦ ديوان ابن الزيات .

(٣) الأحم : الأسود . الأشهب : من الشبهة : وهي سواد يخالطه بياض .

منع الرقاد جوى تضمنه الحشا وهوى أكابده وهم منصب (١)
ويعد الشاعر العباسي "أبو محمد القاسم بن يوسف" أبرز
شاعر من شعراء العصر العباسي وأكثرهم رثاء للحيوانات، وأشعر
شاعر في هذا الفن الشعري حتى إنه لرأس فيه متقدم جميع من
نحاه (٢) فمن قوله يرثى عتزا سوداء (٣)

عين بكسى لعنزنا السوداء . كالعروس الأدماء يوم الجلاء
ذات لون كالعنبر الورد قد عـ مل بماق لسون الظلاء
ذات روقين أملسين رقيقين . من وضرعين كالدلاء الملاء
ذات جيد ومقلتين كوحـ شية قفر من جاريات الظباى

ويغضى الشاعر على هذه الشاكلة بعدد فضائل العنزة وصفاتها
ويتعرض بالوصف والتصوير لكل جزء من أجزائها، فوصف لونها
ورأسها وجيدها ومقلتيها وأذنيها وهيكلها وقوامها وامتلاء جسمها
ونعومتها وجمالها واهتمامه بها إلى أن قال يبكى عليها ويندبها
بقوله :

ثم لم يتجننا الحذار عليها إذ دهانا فيها حلول القضاء
أصبحت فى الثرى رهينة رمس وثناها حسى لدى الأحياء
لست أنسى محاسن السوداء ما سقى الأرض صوب ماء السماء
بوركت حفرة تضمنت السو دا . بل ضمننت من السوداء
كيف لى بالعزاء لا، كيف عنها سلبتنى السوداء حسن العزاء
فالشاعر يعنى نفسه لموت عنزته ويندبها ويتفجع عليها كأنه
يتفجع على شخص عزيز فقده، فهو لا ينساها مدى الحياة ويدعو
للغير الذى ضمها بالبركة، وهى أكبر من أن يقبل العزاء فيها .

(١) الجوى : عذاب الهوى . منصب : متعب .

(٢) ص ١٦٣ الأوراق للصولى .

(٣) ص ١٦٤ - ١٦٦ نفس المصدر .

ثم عاد يندبها معولاً ياكياً معدداً لكثير من صفاتها ومنافعها
فهى عربية خالصة فى نسبها وكانت تلد فى الحر والقر ولا تشكى
جوعاً ولا ظمأً ولبنها غزير كثير فى الصباح والمساء. وكم شرب من
لبنها وأكل من جبنها وزيدها هو وأهله وكم من مواليدها أكل ورعى،
فكانت غيثاً حياً وربيعاً طيب النشا وحسن الثناء .

ثم يعود ويتوجع عليها ويتحسر لفقدائها ويتمنى أنه لو قداها
بكل مرتخص وغال، ثم أخذ يعزى نفسه ويرى أنه لا يبقى شيء على
الأرض فالكل مصيره الغناء، فيقول :

أى حى يبقى فتبقى لنا الـ سوداء هيهات مالنا من بقا .
كيف يرجو البقاء سكان دار خلق الله أملهما للغناء
ولهم بعدها معاد إلى دار رخلود إقامة وجزا .

وهكذا رثى الشاعر العنزة وبكاها وندبها ندباً حاراً كأنه
يبكى على عزيز فقده من أهله .

والمرثية تجرية طريفة وتوضح - من غير شك - عظم المعانى
الإنسانية الحضارية ومدى العلاقة العاطفية عند الشاعر خاصة
والمجتمع العباسى بوجه عام .

وكما رثى الشاعر العنزة "رثى الشاة" ويكى عليها وعدد
فضائلها وصفاتها معزياً صاحبها فيها داعياً إياه بالتجلد
والصبر (١).

كذلك رثى "هرة" فى قصيدة تبلغ ثلاثين بيتاً ياكياً عليها
معدداً فضائلها وصفاتها معبراً عن حزنه وألمه لفقدائها حيث
يقول: (٢)

(١) ص ١٧٦ - ١٧٨ الأوراق للصولى .

(٢) نفس المصدر

ألا قبل لمخبة أو ماردة تعزوا عن السهرة الصائدة
عسى أن تدور صروف الزمان بحسن الخلاقة والفائدة
وإن رحلت عنكم نعمة ففى غدكم نعمة وأفئدة
يقولون كانت لنا هرة مربية عندنا تالده
لها قنص كاقتناص الفهر د واثبة فيه أو لا يده

ومضى الشاعر يرثى الهرة معزياً أصحابها فيها معدداً
فضائلها و مناقعها وصفاتها التي كانت تنصف بها فى حياتها .
ومن رثى الهر فى العصر العباسى أيضاً واشتهر ذلك عنه
وبرع فى ذلك : الشاعر العباسى : "الحسن بن على بن أحمد بن
بشار" المعروف "بابن العلاف النهروانى" حيث كان له هر يأنس به
وكان يدخل أبراج الحمام الذى لجيرانه ويأكل فراخها وكثر ذلك منه
فأمسكه أربابها فذبحوه فرثاه بهذه القصيدة : (١)

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنت عندى بمنزل الولد
فكيف تنفك عن هواك وقد كنت لنا عدة من العدد
تطرد عنا الأذى وتحرسنا بالغيب من حية ومن جرد
وتخرج الفأر من مكانها ما بين مفتوحها إلى السدد
يلقاك فى البيت منهم مدد وأنت تلقاهم بسلامدد
لا عدد كان منك منفلاً منهم ولا واحد من العدد
لا ترهب الصيف عندها جرة ولا تهاب الشتاء فى الجمد
وكان يجسرى ولا سداد لهم أمرك فى بيتنا على سد
حتى اعتقدت الأذى لجيرتنا ولم تكن للأذى بمعتدد
وحمت حول الردى بظلمهم ومن يحم حول حوضه يرد
وكان قلبى عليك مرتعداً وأنت تنساب غير مرتعد
تدخل بصرح الحمام متهدداً وتبلغ الفرخ غير متهد

(١) ص ١٠٨ - ج ٢ وفيات الأعيان لابن خلكان .

وتبلع اللحم بلع مزدرد
قتلك أربابها من الرشد
وساعد النصر كيد مجتهد
أفلت من كيدهم ولم تكذب
شفت وأسرفت غير مقتصد
منك وزادوا ومن يصد يصد

حتى سقيت الحماس بالرصد
لم ترث منها لصوتها الغرد
أذقت أفرأخه يداً بيد

جيدك للخنق كان من مسد
فيه وفي فيك رغبة الزيد
تقدر على حيلة ولم تجهد
أنت ومن لم يجد بها يجد
مت ولا مثل عيشك التكد
ومت ذا قاتل بلا قود

ويحك هلاقتعت بالفدد
وثبت في البرج وثبة الأسد
تأخرت مدة من المدد
ياكلك الدهر أكل مضطهد
أعززه في الدنو والبعد
كان هلاك النفوس في المعد
فأخرجت روحه من الجسد
سرج ولو كان جنة الخلد
من العزيز المهيمن الصمد

وتطرح الريش في الطريق لهم
أطعمك الغنى لحمها فرأى
حتى إذا داوموك واجتهدوا
كادوك دهرأ فما وقعت وكم
فحين أخفرت وانهمكت وكما
صادوك غيظاً عليك وانتقموا
ومنها :

فلم تنزل للحماس مرتصدأ
لم يرحموا صوتك الضعيف كما
أذاقك الموت رهين كما
ومنها :

كأن جبالاً حوى بعودته
كأن عينى تراك مضطرباً
وقد طلبت الخلاص منه فلم
فجدت بالنفوس والبخيل بها
فما سمعنا بمثل موتك إذ
عشت حريصاً يقوده طمع
ومنها :

يا من لذيد الفراع أوقعه
ألم تخف وثبة الزمان كما
عاقبة الظلم لا تنام وإن
أردت أن تأكل الفراع ولا
هذا بعيد من القياس وما
لا يبارك الله في الطعام إذا
كم دخلت لقمة حشاشرة
ما كان أغناك عن تسورك الـ
قد كنت في نعمة وفي دعة

تأكل من فأر بيتنا رغداً وأين بالشاكرين للرغد
وكنت بددت شملهم زمتناً فاجتمعوا بعد ذلك البدد
فلم يبقوا لنا على سيد فى جوف أبياتنا ولا لبدد
وفرغوا قعرها وما تركوا ما عقلت به يد على وتد
وفتتوا الخبز فى السلال فكم تفتت للعيال من كبد
ومزقوا من ثيابنا جرداً فكلنا فى المصائب الجدد

والمرثية طويلة تبلغ خمسة وستين بيتاً وهي من أحسن الشعر وأبدعه وقد اكتفيت بحاستها وروائعها وزيدتها، وكلها تفجع على الهر ويكاء عليه وتوجع لما حدث له وحسرة عليه . حيث نرى الشاعر يبذرها بتوضيح منزلة الهر من نفس الشاعر فقد كان عنده بمنزلة ولده، ثم أخذ فى تأبينه وتعداد فضائله وما كان يتصف به من صفات حميدة نافعة : فقد كان عدة من عدد الشاعر المهمة يطرد عنه الأذى ويحرسه من الأفاعى الضارة والحشرات الشرشة وكان لا يأل جهداً فى اصطيفادها ولا تفتر همته فى افتراسها صيفاً وشتاءً لا يمنعه حر ولا يحجبه عنها برد ولا شتاء .

ثم أخذ الشاعر يوضح كيفية قتل الهر وسبب قتله مصوراً مأساته وأصفاً ما أصابه، حيث اعتاد الهر السطو على أبراج الحمام التى كانت لجيران الشاعر وأكل أفراخ الحمام منها تاركاً أثر ذلك وراءه من الريش المطروح فى الطريق، وقد علم أصحاب الأبراج بذلك فترصدوا للهر حتى أمسكوا به فذبحوه وانتقموا منه وأذاقوه الموت مثلما أذاق هو أفراخهم قبل ذلك .

ثم أخذ الشاعر يبكى على الهر ويعبر عن مشاعره الحزينة وعواطفه الصادقة تجاهه بعد قتله متفجعاً عليه كثيراً من تفجعه متحسراً على فقدته مستخدماً الحكمة والتعبير عن حقائق الموت وحكم الحياء والتأمل فى حقيقة الموت وحقيقة الحياة موضحاً أن الهر هو الذى أودى بنفسه وراح ضحية ظلمه للجيران من أكل فراخهم

وما كان أغناه عن ذلك فقد كان ينعم بالحياة الجميلة والعيشة الرغدة يأكل الفيران مبدداً شملهم من البيت، إلا أن الحالة قد تغيرت بعد موته فقد امتلأ البيت من القفران وعاثوا الفساد فيه وفي كل ما فيه من حيوب وخيز وثياب .

وهكذا أبدع الشاعر إبداعاً عظيماً في رثائه للهر واستطاع أن يبرز عظم المصيبة وهول الفجعة التي لحقت به لفقده الهر معبراً عن شعوره الصادق وحبه العظيم للهر بما يوضح ما يتسم به الشاعر من معان إنسانية نبيلة ونظرة حضارية رائعة وشعور إنساني صادق تجاه الحيوان الأليف .

ويرى ابن خلكان أن القصيدة من أحسن الشعر وأبدعه^(١) كما أشاد بها الدكتور شوقي ضيف^(٢) والدكتور عز الدين إسماعيل^(٣) إشادة عظيمة .

وقد ذهب البعض إلى أن هذه المرثية مرثية رمزية رثى فيها الشاعر "عبد الله بن المعتز" وخشى من الإمام المقتدر أن يتظاهر بها لأنه هو الذي قتله فتسبها إلى الهر وعرض به في أبيات منها وكانت بينهما صحة أكيدة .. وقيل إنما كتبه بالهر عن المحسن بن الفرات أيام محنته لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه .. وقيل كتبه بالهر عن غلام له قتله حين علم بعلاقة مع جارية له^(٤) .

وقد جعلها الدكتور شوقي ضيف من الرثاء السياسي، وجعلها من المراثي السياسية المهمة التي ذاعت على ألسنة الشعب وأبنائه وجعلها مرثية رمزية^(٥) .

(١) ص ١٠٩ ج ٢ وفيات الأعيان .

(٢) ص ٢١٩ العصر العباسي الثاني .

(٣) ص ٣٨٠ في الشعر العباسي الرثوية والفن .

(٤) ص ١٠٨ - ١٠٩ ج ٢ وفيات الأعيان .

(٥) ص ١٠٧ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور .

إلا أننا نرى المرثية غير رمزية وغير سياسية فهي مرثية في
الهر ولم يرمز بها لأي شخص لأننا نرى المعاني والأفكار التي
تضمها القصيدة تتلام مع رثاء الهر وجميع الصور التي طرحت
فيها تدل على أن المرثى هو حقيقي .

ومن رثاء الطيور في العصر العباسي الأول قصيدة أبي محمد

القاسم ابن يوسف يرثى "القمري" فيقول : (١)

هل لامرئ من أمان	من ريب هذا الزمان
أم هل تری ناجياً	من طوارق الحدثنان
ما اثنان يجتمعان	إلا سيفترقن
قرين كل قرين	يبين بمداقتران
والمزمان ونسر الـ	سما والفرقدان
يلسى الجديد الجديد	سدان ثم ما يبيلان

فالشاعر يصدر قصيدته بهذه الأبيات الوعظية الحكيمة التي
تعنى أن لا أمان لامرئ من مصائب الأيام وأنه ليس هناك من
ينجى من المصائب، ولا بد للجمع أن يفترق ويفرق القرين وقرينه وكل
جديد بال لامحالة .

ثم يأخذ الشاعر في رثاء "القمري" ويندبه ندباً حاراً ويعلن عن
ألمه وحزنه لفقده وحسرتة وأساه لموته فيقول :

كان المطوق خدنياً	من أكرم الأخدان
وصاحباً وخليلاً	من خالص الخلان
سنتين سبعاً وعشراً	محفورة بشمان
فقاله حادث من	من حوادث الأزمان
أمس المطوق رمياً	درجة الأكنفان
مستوطناً دار قفسر	من عامر الأوطان

دانسى الجوار وإن كانا
فالقلم فيه كل يوم
وفى الحشا لاذعات
والمقتلان سجوم
ننازحاً غيردان
من لاعج الأحزان
كمشعل النيران
دمعاهما تكفان

نرى الشاعر حزناً لفقد الطائر وكيف لا يحزن عليه وهو يعده
صديقه وصاحبه وخليله بل وخالص خلته وقد عاشه أكثر من سبعة
عشر عاماً ؟

ثم أخذ الشاعر يتوح نواحاً باكياً ويوضح مشاعره الحزينة
وعواطفه الصادقة تجاهه حيث أمسى تراباً يستوطن القبر الموحش
بعد أن نزح إليه من العمران، فقلب الشاعر حزيناً لفقدته وأحشاه
تلتهت فيها النيران لموته وعيناه تسكب الدموع حزناً وحسرة لبعده.

ثم يعود فيعدد صفات المرثى مصوراً كل جزء من أجزائه
تصويراً دقيقاً معتمداً على التشبيه الحسى اعتماداً كبيراً فى إبراز
صوره وتصوير صورته فيقول :

كان المطوق أنساً
وكان طلقاً ضحوكاً
وكان أعجم فسى
وطالم اغنانسى
لعبد والسريج
كأن عينيه ياقو
كأن رجله ميو
كأن هامته ر
إلى أن قال :
فما خلا الله فانى

وهكذا يرثي الشاعر الطائر ويبكي عليه ويعبر عن مشاعره وعواطفه نحوه في صورة لم يألفها الأدب العربي من قبل وفي ضرب جديد من الرثاء. استجد في العصر العباسي الأول وبرز موضوعاً جديداً من موضوعات الرثاء في ذلك العصر بكل معنى الكلمة.

ومن رثاء الطير في ذلك العصر قصيدة الشاعر "أحمد بن يوسف" كاتب الخليفة المأمون وأخو الشاعر السابق "القاسم بن يوسف" يرثي "بيغاء" ماتت لصديق له وكان له أخ متخلف يقال له عبد الحميد فيقول: (١)

أحسن الله ذو الجلال عزاكما	أنت تبقى وتحسن طيراً فداكما
بمقادير أتلقت ببغاكما	فلقد جل خطيب دهر أتانا
وتخطت عبد الحميد أخاكما	عجيباً للمنون كيف أتنها
من البيغاء وأولسى بذاكما	كان عبد الحميد أصلح للموت
فقدنا هذه ورؤيت ذاكما	شملتنا المصيبتان جميعاً

من الواضح أن الأبيات قيلت على سبيل الدعابة والمزاح وتخلو من صدق العاطفة ولا تدل على معان إنسانية نبيلة. إذ كيف يحزن الإنسان لفقد طائر ويتمنى الموت لإنسان مثله بديلاً عن هذا الطائر مهما كان هذا الإنسان ومهما بلغ من التخلف العقلي ما يبلغ وهو الذي كرمه ربه على سائر المخلوقات؟
فالشاعر كاذب العاطفة ونظيره غير إنسانية جملة وتفصيلاً.
ومن موضوعات الرثاء الجديدة المبتكرة في العصر العباسي الأول رثاء "البيستان" للشاعر محمد بن يسير (٢) الرياشي، حيث يرثي

(١) ص ٢٢٢ الأوراق.

(٢) شاعر عباسي متقلل وكان ماجناً هجاءً خبيثاً ومن شعراء أهل البصرة وأدبائهم.

بستاناً له في داره قدره أربعة طوابيق^(١) قلعتها من داره فغرس فيه أصل رمان وفسيلة^(٢) لطيفة وزرع حواليه بقلأ فأفلتت شاةً لجار له يقال له : منيع فأكلت البقل ومضغت الخوض ودخلت إلى بيته فلم تجد فيه إلا القراطيس^(٣) فيها شعره وأشياء أخرى فأكلتها وخرجت فعدا إلى الجيران في المسجد يشكو ماجرى عليه وأخذ يرثى بستانه ويتديه هاجباً الشاة داعياً عليها بالهلال^(٤) فيقول يرثى بستانه ويتديه مصوراً جماله وروعته قبل أن تعبت به شاة منيع :

لئى بستان أنيسق زاهر	ناضرا الحضرة ريان ترف ^(٥)
راسخ الأعراق ريان الشرى	غدق ترتبه ليست تحجف ^(٦)
لمجارى الماء فيه سنن	كيفما صرفته فيه انصرف ^(٧)
مشرق الأنوار ميساد الندى	منشز فى كل ربح منعطف ^(٨)
قلسك الريح عليه أمره	فإذا لم يؤنس الريح وقف ^(٩)
يكتس فى الشرق ثوى يمنة	ومع الليل عليها يلتحف ^(١٠)
ينظسوى الليل عليه فإذا	واجه الشرق تجلى وانكشف

(١) الطابق : الأجر الكبير .

(٢) الفسيلة : النخلة الصغيرة .

(٣) القراطيس : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه .

(٤) ص ٢٦ وما بعدها ج ١٤ الأغاني ، دار الثقافة بيروت عام ١٩٥٩ م .

(٥) أنيق : حسن معجب . ناضر : شديد النظرة . ترف : تروى .

(٦) أرض غدقة : فى غاية الرى وهى الندبة المبتلة .

(٧) سنن : جمع سنة وهى الطريقة .

(٨) الأنوار : جمع نور بالفتح وهو الزهر .

(٩) أنس الشيء : أحس به .

(١٠) اليمنة : برد يمنى وهو موش .

صاهر ليس بيالى كثيرة	جزى بالتنجس أو منه تصف
كلما ألحف منه جانباً	لم يثلث منه تعجيل الخلف (١)
لا تبرى للكف فيه أثراً	فيه بل ينمى على مس الألف (٢)
فترى الأطباق لا تمهله	صادات وأردات تختلف
فيه للخارف من جيرانه	كلما احتاج إليه مخترق (٣)
أقحوان وبهار موشق	وسوى ذلك من كل الطرف (٤)
وهو زهر للندامى أصلاً	برضا قاطفهم مما قطف (٥)
وهو نسي الأيدي يحيون به	وعلى الأناق طوراً يستشف (٦)

نرى الشاعر يرثى بستانه ويندبه مصوراً حالته قبل أن تعيث به الشاة وتحدث به الفساد وأصفاً هيئته وصفاً يتم عن جمال البستان وروعته وحسنه معدداً ما كان فيه من ثمار وأزهار وورود ورياحين .

ثم أخذ بعد ذلك بهجو الشاة داعياً عليها بالهلاك ميتهاً إلى الله تعالى أن يعمها بعذابه الأليم وكله حزن وأسى لما أصاب بستانه من فساد من قبل الشاة التى عيشت به .

-
- (١) ألحفه : استأصله . ولم يثلث : أى لم يتوقف ولم يبطئ .
(٢) نعى ينمو نمواً ، ونمى ينمى نمياً ونماء : زاد .
(٣) خرف الثمار : جناها . مخترق : مجتنى .
(٤) الأقحوان : نبات طيب الرائحة . البهار : نبات أصفر طيب الريح .
موشق : معجب .
(٥) أصلاً : جمع : أصيل وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب . الندامى :
جلاس الشراب .
(٦) استشفه : تأمل ما فيه . واستشف ما فى الإناء : شرب جميع ما فيه .

كذلك يعد رثاء الشاعر "محمد بن يسير الرياش" لأنواع
الآبنوس من موضوعات الرثاء الجديدة في هذا العصر، فقال يرثيها
بعد ماسرقت منه: (١)

عين بكى بعبرة تسفاح وأقيمي مآتم الألسواح
أوحشت حجرتي وردتاني منها قسى بكوري وعند كل رواح (٢)
وأذكرها إذا ذكرت بما قد كان فيها من مرقق وصلاح
آتبوس دهماً حالكة اللسو ن لباب من اللطاف الملاح (٣)
إلى أن قال :
آب عسرى وغاب يسرى وجودى حين غابت وغاب عنى سماحى

ومن موضوعات الرثاء الجديدة في العصر العباسي الأول رثاء
"أبي الشبل عاصم بن وهب البرجمي" "التنديل" له حطمه كيش كان
قد اشتراه للأضحية فقال يرثي سراجة: (٤)

يا عين بكى لفقد مسرحية كانت عمود الضياء والنور
كانت إذا ما الظلام ألبسنى من حندس الليل ثوب ديجور (٥)
شقت بنيرانها غياطله شقاً دعا الليل بالدياجير (٦)
إلى أن قال بعد أن عدد بعض مميزاتهما :
مسرجتى لو قديت ما بخلت عنك يسد الجسود بالدنانير
ليس لنا فيك ما تقدره لكنما الأمر بالمقادير

- (١) ص ٤٣ - ٤٤ ج ١٤ الأغاني طبعة دار الثقافة ببيروت ١٩٥٩ م .
(٢) الحجة : معقد الإزار الردين : أصل الكم .
(٣) الدهماء : السوداء . اللب : الخالص .
(٤) ص ١٩٥ - ١٩٩ ج ١٤ الأغاني .
(٥) الحندس والديجور : الظلمة .
(٦) غبظة الليل : تراكم ظلامه .

مرسجتى : كم كشفت من ظلمر جليت ظلماها بنسور
وكم غزال على يدك نجيا من دق خصيبه بالطوامير (١)
إلى أن قال يبكيها ويندبها معلناً عن حزنه وأسفه لفقدائها :
أوحشت الدار من ضيائك والـ سبيت إلى مطبخ وتنور (٢)
قلبي حزین عليك إذ بخلت عليك بالدمع عين تنمير (٣)
إن كان أودى بك الزمان فقد أبقيت منك الحديث فى الدور

ثم أخذ يهجو الكيشى بعد ذلك مصوراً كيفية تحطيمه للقنديل
ومصوراً كيفية ذبحه للكيش انتقاماً منه لما فعله بالقنديل قبل ميعاد
الأضحية :

ياكيش ذق إذ كسرت مرسجتى لمدة الموت كأس تنحير (٤)
بغيت ظلماً والبقى مصرع من بغى على أهله بتغيير
كذلك قال "أبو الشبل البرجمى" يرثى قرطاساً سرق منه : (٥)
فكسر تعسرى وحزن طويل وسقيم أنحى عليه النحول
ليس يبكى رسماً ولا ظللاً محـح كما تندب الربا والطلول (٦)
ثم أخذ ينوح عليه معدداً مميزاتة ومنافعه العديدة حتى قال
معزياً نفسه داعياً إياها أن تصير لفقدته موجهاً حديثه إلى اللاتمين
له على بكائه عليه بأن يقلعوا عن هذا اللوم فالخطب جليل لفراق
خليل فيقول :

- (١) الطوامير : الصحف .
- (٢) التنور : الكانون يخبز فيه .
- (٣) تنمير : إسم امرأته .
- (٤) تنمير : ذبح .
- (٥) ص ١٩٩ - ٢٠١ ج ١٤ الأغاني .
- (٦) محت الدار : عفت .

فلئن شئت الزمان به شم - سل دواتى وحسان منه رحيل
لقديماً ما شئت البيّن والألم - فقة من صاحب، فصبر جميل (١)
لاتلمنى على اليكاه عليه - إن فقصد الخليل خطب جليل
وهكذا أخذ الشاعر العباسى يرثى قرطاسه كما رثى مسرحته
قبل ذلك بصورة لم يألّفها الشعر العربى قبل العصر العباسى الأول
فى موضوعات شعر الرثاء .

ومن موضوعات الرثاء الجديدة فى العصر العباسى الأول رثاء
أبى حكيمة لمّاعه وأتى فى ذلك بما لم يأت به أحد مثله كما يقول
ابن المعتز (٢) .

ورثاء ابن الرومى لزرعه من موضوعات الرثاء الجديدة فى هذا
العصر أيضاً، حيث قال فى زرع أصيب به يرثيه ويتفجع عليه : (٣)
لسى زرع أتسى عليه الجراد عادنى مذ رزّته العواد
كنت أرجو حصاده فأتاه قبل أن يبلغ الحصاد - حصاد
وإذا كان الشعراء السابقون على العصر العباسى قد وصفوا
الزرع وافتنوا فى وصفها افتناناً إلا أنهم لم يألّفوا رثاءها ولم
يرثوا الزرع مثلما رثاه ابن الرومى فى العصر العباسى الأول، فهو
موضوع جديد من موضوعات الرثاء التى عرفت فى العصر العباسى
الأول واستجدت فيه .

وهكذا عرف شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول كثيراً من
الموضوعات الرثائية التى لم يعرفها شعر الرثاء فى العصور السابقة
وكانت موضوعات جديدة مبتكرة يرجع الفضل فيها إلى شعراء هذا

(١) البين هنا : معناه الوصل .

(٢) ينظر طبقات ابن المعتز ص ٣٩ .

(٣) ص ٦٦٧ ج ٢ ديوان ابن الرومى .

العصر الذين ابتدعوها في عصرهم ابتداءً وقد أبدعوا في رثائها ويرعوا في ذلك براعة عظيمة قلباً وقالباً وشكلاً وموضوعاً في أسلوب يتلامم مع حضارة العصر ورقبه، وما يوحى بركة المشاعر الإنسانية والعواطف النبيلة تجاه الكائنات الحية الأخرى كالحبوان والطير بل والجماد أيضاً في صورة جديدة لم يألفها الشعر العربي في أى عصر من العصور السابقة على العصر العباسى وما يوحى بما وصل إليه هذا العصر من تقدم حضارى واضح ورقى إنسانى عظيم.

«الفصل السابع»

«الخصائص الفنية لشعر الرثاء
في العصر العباسي الأول»

«الخصائص الفنية للرثاء»

يعد شعر الرثاء من أبرز وأهم الأغراض الشعرية التي وجدت في العصر العباسي الأول ومن أكثرها تقدماً وازدهاراً وتطوراً، وظهرت عبقرية الشعراء العباسيين في هذا اللون من الشعر ظهوراً واضحاً في جميع العناصر والخصائص الفنية للقصيد الرثائي حتى ظهر كثير من القصائد في شعر الرثاء في هذا العصر تعد -ويحق- من عيون الرثاء وروائعه في الشعر العربي في مختلف العصور السابقة منها واللاحقة للعصر العباسي، ونالت هذه القصائد الرثائية العباسية شهرة عظيمة وأخذت حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين والدارسين والنقاد : شرحاً وتحليلاً ونقداً وإشادة عظيمة بها وذلك مثل : قصيدة دعبيل الخزاعي في رثاء آل البيت والمسماة بالثائية الخالدة، وقصيدة علي بن جبلة "العينية" في رثاء حميد الطوسي والتي استهلها بقوله :

ألدهر تيكى أم على الدهر تجزع وماصاحب الأيام إلا مفجع

وقصيدتى أبقى تمام : "الرائية" و"العينية" المشهورتين في رثاء محمد بن حميد الطوسي، ومرثيته "الميمية" في الخليفة "المعتصم"، ومرثية "الحسين بن مطير" في "معن بن زائدة الشيباني" ومرثية ابن الزيات في زوجته ومرثية "الحريمي" في مدينة "بغداد"، ومرثية "البحترى" للخليفة المتوكل ومرثية "ابن الرومي" في ولده الأوسط "الدالية" ومرثيته في مدينة البصرة ومرثية "ابن العلاف" للمهر، ومرثية "ابن المعتز" لأبيه وغير ذلك الكثير والكثير من روائع القصائد الرثائية التي وجدت في العصر العباسي الأول والتي ذكرتها وتعرضت لها عند الحديث في أنواع الرثاء وموضوعاته . وقد تميز فن الرثاء في العصر العباسي الأول بمميزات وخصائص فنية واضحة شملت جميع عناصره وكان منها القديم

الموروث والمجدد المبتكر الذى استجد فى هذا العصر وأصبح شيئاً جديداً احتذاء الشعراء اللاحقون سواء كان ذلك من حيث الموضوعات أو بناء القصيدة أو اللغة والأسلوب والألفاظ والمعانى أو الخيال والتصوير أو الموسيقى أو غير ذلك، وسوف أتناول كل عنصر منها بالحديث المنفرد موضحاً ما فيه من تقليد وتطور وتجديد بالشرح والتفصيل .

موضوعات الرثاء :

عرف شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول جميع الموضوعات التى عرفها شعر الرثاء فى العصور السابقة كـرثاء الأبناء والآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأزواج والأصدقاء ورثاء الجوارى والعبيد فضلاً عن رثاء العلماء والأدباء ورثاء النفس ورثاء الشباب وغير ذلك من موضوعات الرثاء الاجتماعى كما عرف رثاء الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والأئمة ورثاء القتلى فى المعارك والحروب وغير ذلك من موضوعات الرثاء السياسى وهذه كلها موضوعات تقليدية موروثية عرفها الأدب العربى منذ الجاهلى وظلت فى العصر العباسى الأول إلا أنها قد أخذت حيزاً أكبر وكماً أعظم فى هذا العصر مما كانت عليه سابقاً وهذا يعد تطوراً - وإن لم يكن عظيماً - فى حد ذاته حيث رأينا كماً هائلاً وقيضاً زاخراً فى هذه الموضوعات التقليدية فى شعر العصر العباسى الأول بما لم يوجد له مثيل من قبل فى هذا الفن الرثائى ومجلى ذلك بوضوح فى كل الموضوعات الرثائية تقريباً .

وقد غلب على قصائد الرثاء فى العصر العباسى الأول تخصيص القصيدة كلها على مرثى واحد بعينه حيث تدور القصيدة كلها فى رثاء شخص واحد من أولها حتى آخرها دون أن تتعداه إلى رثاء آخرين معه، ومع ذلك وجدنا قصائد أخرى تتضمن أكثر من

مرثى فى موضوعها، فقد جمعت بين اثنين أو أكثر وتعرض الشاعر فيها لرتاء أكثر من شخص إلا أنها كلها فى الرتاء. ومن هذا القبيل قصيدة "سلم الخاسر" التي يرثى فيها "معنا بن زائدة الشيباني" ومالكاً وشهاباً ابني عبد الملك بن مسمع حيث يقول يرثيهم: (١)

عين جودي بعيسرة تهتان واندي من أصاب ريب الزمان
وإذا ما بكيت قوماً كراماً فعلى مالك أبى غسان
أين معن أبو الوليد ومن كذا ن غيائاً للها لك الحيران؟
وشهاباً وأيسن مثل شهاب عند بذل التدي وجر الطعان
ومن هذا القبيل أيضاً قول "أبي تمام" يرثى "ابني عبد الله

بن طاهر" وكانا صغيرين حيث قال فيهما: (٢)
نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى بأفلا
إن الفجيرة بالرياض نواضراً لأجل منها بالرياض ذوابلا
لو ينسان لكان هذا غارياً للمكرمات وكان هذا كاهلاً
والقصيدة طويلة أخذ الشاعر فيها يرثى ولدين اثنين فى قصيدة واحدة، وهى من روائع شعره فى فن الرتاء وتبدو فيها مقدرته الفائقة وتلكه لأدوات شعره وفنه، فرتاء الأطفال من صعب الرتاء على الشعراء لضيق الكلام عليهم وقلة الصفات التى للأطفال.

وللشاعر نماذج أخرى غير هذه القصيدة ضم فى موضوعها أكثر من مرث واحد" (٣).

وهناك نماذج أخرى من هذا القبيل فى شعر رتاء العصر مثل رتاء "البحترى" لأبى تمام "ودعبل" فى قصيدة واحدة (٤)، ورتاء

(١) الأغاني ج١٩ ص ٢٨١ . طبعت دار الكتب المصرية .

(٢) ص ١١٣ - ١١٨ ج٤ ديوان أبى تمام .

(٣) ينظر على سبيل المثال ديوانه ج٤ ص ٦٠ و ص ٧٤ .

(٤) ص ١٣٨٦ ج٣ ديوانه .

"محمد بن زياد" وزوجته معاً في قصيدة واحدة^(١). وإذا كانت القصيدة الرثائية في العصر العباسي الأول قد تنوعت في موضوعها بين قصيدة ترثي مرثياً واحداً وقصيدة ترثي اثنين أو أكثر فإن هناك من قصائد الرثاء في هذا العصر ما لم يتضمن مرثيين معينين بل نظمت في رثاء الموتى على سبيل العظة لغيرهم من الأحياء ويحتل "أبو العتاهية" الشاعر الزاهد المرتبة العظمى في هذا الميدان حيث نراه في كثير من شعره يتعرض للأموات فيرثيهم على سبيل العظة والعبرة لغيرهم ويعد هذا تطوراً في حد ذاته في موضوع القصيدة الرثائية في العصر العباسي الأول، وما قاله أبو العتاهية في هذا القبيل كثير وكثير: (٢)

ومن هذا القبيل قول الحماني يرثي الموتى ويعظ بذلك

غيرهم: (٣)

باتوا على قلل الأجيال محرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم فأودعوا حفراً يابئس ما نزلوا
ناداهم صارخٌ من بعد ما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل
وأفصح القبر عنهم حين سألهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما عمروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وهي أبيات رائعة تذيب القلوب وتفتت الأكباد وتسيل الدموع وتهز القلوب من أساسها هزاً، وقد بكى عند سماعها الخليفة "المتوكل" بكاءً طويلاً حتى بليت دموعه لحيته وبكى كل من سمعها من الحاضرين وقت إنشاد الشاعر لها وهو في مجلس شراب كما أورد المسعودي.

(١) الأوراق ص ١٢٩ .

(٢) ينظر ديوان أبي العتاهية ص . ص

(٣) ص ١١ ج ٤ مروج الذهب للمسعودي .

كذلك ظهر في العصر العباسي الأول الرثاء على لسان الآخرين حيث يأخذ الشاعر في رثاء شخص على لسان شخص آخر وهو ما لم يوجد قبل العصر العباسي الأول، ويتجلى ذلك في مراثي "العباسي بن الأحنف" لجواري الخليفة "الرشيد" على لسانه حينما طلب منه الخليفة ذلك وقد مرت الأمثلة عند تعرضنا لرثاء الجواري^(١).

وإذا كان شعراء العصر العباسي قد رثوا الموتى وأبتوهم وعزوا فيهم فإننا وجدنا منهم من رثى حياً لم يميت وأخذ يؤينه وينديه ويتفجع عليه وهو على قيد الحياة وإن كان ذلك نادراً، ومن هذا القبيل رثاء أبي نواس لخلف الأحمر وهو حي يرزق بأكثر من قصيدة^(٢).

كذلك وجدت موضوعات جديدة للرثاء في العصر العباسي الأول واستجدت لأول مرة في الشعر العربي في هذا العصر ويرجع الفضل الأول فيها لشعرائه وهي: رثاء المدن ورثاء القصور ورثاء الحيوان الألف ورثاء الطيور الأليفة ورثاء الزرع ورثاء البستان ورثاء لوح الآبنوس فهذه موضوعات جديدة وضروب استجدت وظهرت في العصر العباسي الأول ولم يألّفها شعر الرثاء في العصور السابقة، وتعد موضوعات جديدة للرثاء في هذا العصر بكل معنى الكلمة حيث توّطدت علاقة الإنسان العباسي بهذه الموضوعات بما لم تشهده علاقة الإنسان بهذه الموضوعات من قبل بسبب ما طرأ على العصر العباسي من تقدم حضارى واسع ويزخ وترف في مناحى الحياة بما لم يكن له مثيل من قبل.

فالشاعر العباسي قد عرف جميع موضوعات الرثاء التقليدية الموروثة في شعره وتناولها تناولاً واضحاً مكثراً منها كثرة فاقت

(١) ينظر ديوان العباسي بن الأحنف ص ٧٩ و ص ١٧٨ و ص ٣٤ .

(٢) ينظر ديوان أبي نواس ص ٤٣١ - ٤٣٢ و ص ٤٣٣ .

العصور السابقة كما عرف موضوعات جديدة مبتكرة جاءت بها مخيلة شعراء العصر العباسي وإليهم يرجع فضل السبق والابتكار فيها .

بناء القصيدة :

القصيدة الرثائية في العصر العباسي الأول اتخذت بناءً متعددًا وأشكالاً مختلفة فأحياناً جاءت قصائد طويلة وأحياناً متوسطة وأحياناً مقطوعات قصيرة تتراوح بين البيتين والعشرة أبيات . إلا أن الغالب على القصيدة الرثائية في هذا العصر القصيدة الطويلة ويتجلى هذا بوضوح في كثير من شعر الرثاء العباسي في عصره الأول أمثال : قصيدة بشار في رثاء ابنه محمد ومرثية دعبيل في رثاء آل البيت "التائية الخالدة، ومرثية مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة الشيباني ومرثية علي بن جبلة في حميد الطوسي ومرثية "أبي تمام" في رثاء "محمد بن حميد الطوسي" وولده والخليفة "المعتصم" وقصيدة "مسلم بن الوليد في يزيد بن يزيد الشيباني وقصيدة الحسين بن مطير في معن بن زائدة ومرثية ابن الرومي لولده الأوسط ومرثيته في الجارية "بستان" والتي بلغت نحو مائة وخمسة وستين بيتاً^(١) ومرثيته في مدينة البصرة ومرثية الخزي في بغداد ومرثية البحترى للمتوكل ومرثية عبد الله بن المعتز للمعتضد ودولته وغير ذلك الكثير مما تعرضنا له سابقاً أثناء الحديث عن أنواع الرثاء وموضوعاته والكثير مما لم نتعرض له وهو كائن في دواوين شعراء العصر وكتب الأدب والتاريخ التي سجلت لنا أشعار العصر العباسي الأول، وأحياناً أخرى جاءت قصيدة الرثاء متوسطة فلاهي بالطويلة ولاهي بالمقطوعة القصيرة كقصيدتي أبي نواس في رثاء الخليفة الأمين^(٢) ومرثية أبي تمام في رثاء بعض بني حميد^(٣).

(٢) ينظر القصيدة في موضعها من الكتاب في رثاء الخلفاء .

(٣) ص ٧٤ - ٧٦ ج ٤ ديوان أبي تمام .

وأحياناً أخرى تأتي القصيدة الرثائية في شكل مقطوعة قصيرة ترددت بين بيتين وعشرة أبيات، مثل قول محمد بن يسير يرثى نفسه في مجلس أبي محمد الزاهد صاحب الفضيل بن عياض: (١).

ويسل لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مشواه
وأغفلنا في كل يوم مضى يذكرني الموت وأنساه
من طال في الدنيا به عمره وعاش فالموت قصاره
كانه قد قيل في مجلس قد كنت آتية وأغشاه
محمد صار إلى ربه يرحمنا الله وإياه

وهناك كثير من المقطوعات القصيرة في الرثاء والتي تعرضت لها عند الحديث في أنواع الرثاء وموضوعاته والتي ترددت بين بيتين وخمسة أبيات مثل: رثاء بشار لابنته، ورثاء اليتيم لولده، ورثاء أبي العتاهية لنفسه ورثاء أشجع لأخيه ورثاء المأمون لجاريته ورثاء يوران للمأمون ورثاء ابن المعتز لابنته، وغير ذلك مما هو كائن في الفصول السابقة من الكتاب وما هو مسجل في دواوين شعراء العصر وكتب الأدب التي سجلت شعر العصر العباسي الأول. فشكل القصيدة الرثائية في العصر العباسي الأول قد تطور في اتجاهين متقابلين إتحاء طالت فيه القصيدة الرثائية حتى بلغت من الأبيات: مائة ومائتين، واتحاه آخر اتحاه نحو المقطوعة القصيرة المحدودة الأبيات والتي بلغت حداً عظيماً من القصر حتى بلغت أربعة أبيات والثلاثة بل والبيتين فقط وهذا أكبر تطور وصلت إليه قصيدة الرثاء في شكلها وهيكلها، وقد أعطى كل من الاتجاهين عطاءً غير قليل وإن كان الاتجاه الأول - وهو الاتجاه نحو الإطالة - أكبر وأكثر وأعظم من الاتجاه الثاني لأنه هو الذي يتسلم

(١) ص ٣٨ ج ١٤ الأغاني، طبعة دار الثقافة ببيروت.

ومقام الحزن والبكاء وعظم الخطب، فقد قيل للبعض متى يحتاج إلى الإكثار - أي الإطالة - قال : إذا عظم الخطب .
فعظم المصيبة وقداحة الخطب مع براعة الشاعر ومقدرته الفائقة وتقلبه من أدواته الشعرية تجعل الشاعر يتجه نحو الإطالة ويتضح ذلك في قصائد الرثاء الطويلة في العصر العباسي الأول حينما يرثي الشاعر المتمكن عزيزاً لديه قد رزه بفقده .

أما المقطوعة القصيرة فتكون عند التعبير عن خاطر وارد أو شعور حاد في لحظة من اللحظات دون أن يتوسع فيه أو يولد منه ما يصنع قصيدة طويلة وتكون إذا قل الخطب أو لم تسعف الشاعر ذاكرته ليتجه نحو الإفاضة والإطالة وإن كان الخطب جليلاً .

وإذا كانت القصيدة الرثائية في العصر العباسي الأول قد ترددت بين الطول والقصر ووجدت القصائد المطولات بجوار المقطوعات فقد جاءت القصيدة الرثائية - غالباً - دون تمهيد أو تقديم لها بالنسيب والوقوف على الأطلال وبكاء الديار والتغزل بالمحوية كما كان يفعل شعراء العصر مع قصيدة المدح أو الفخر أو غيرها فمعظم القصائد الرثائية في العصر العباسي الأول خلت من هذه المقدمة الظللية وهذا التمهيد الموروث المعروف منذ العصر الجاهلي حيث كان الشعراء غالباً ما يفتتحون قصائدهم بالنسيب وبكاء الأطلال وهو تقليد موروث محبوب إلا حينما كانوا ينشدون في فن الرثاء فقد كانوا لا يقدمون نسيباً على الرثاء وهذه عادة الشعراء منذ القدم فيقول ابن رشيق : "وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء وقال ابن الكلبي - وكان علامة - لأعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرت جديد الحبل من أم معيد بعافية وأخلفت كل موعد (١)
وقد نحى شعراء العصر العباسي الأول نحو الشعراء القدامى
فلم يقدموا لقصائدهم الرثائية بمقدمة طلمية ولم يهدوا لها بالنسيب
وذكر الأحية وجاءت قصائدهم الرثائية خالية من هذا المطلع وهذه
المقدمة، وذلك لأن شعر الرثاء لا يتلام مع هذا المطلع ولا يتناسب مع
هذه المقدمة الغزلية فالرثاء حزن وبكاء والنسيب حب وعبطة
ولا يتلام هذا مع ذلك .

ومع ذلك وجدنا نماذج نادرة من القصائد الرثائية في العصر
العباسي الأول قد مهد لها ناظموها بالنسيب وذكر الأحية فجاءت
مخالفة لما عليه عامة شعر الرثاء في هذا العصر، ومن هذا القبيل
النادر مرثية أشجع السلمى للخليفة الرشيد حيث تغزل بجارته تسمى
"نم" وكان يحبها حباً شديداً، فيقول فيها: (٢)

وليس لأحزان النساء تطاول	ولكن أحزان الرجال تطول
فلا تبخلسى بالدمع عنى فإن من	يضن بدمع عن هوى لبخيل
ولا كنت ممن يتبع الريح طرفه	دبوراً إذا هبت له وقبول
إذا دار فجي أتبع الفبي شخصه	يميل مع الأيام حيث تميل

ومهما يكن من أمر ذلك فإن ذلك لم يكن شائعاً وجاءت هذه
النماذج مخالفة ما ألفته قصيدة الرثاء ونهجته في نهجها .

ومن الواضح أيضاً في نهج القصيدة الرثائية في هذا العصر
أنها ضمت موضوعاً واحداً في بنائها (وهو الرثاء) فمعظم القصائد

(١) ص ١٥١ ج ٢ العمدة .

(٢) ص ١٤١ الأوراق للصولى .

الرثائية فى العصر العباسى الأول لم تشتمل إلا على فن الرثاء . ولم تحتو على أكثر من غرض شعرى سوى غرض الرثاء . حيث سيطر الرثاء على كل القصيدة من أولها حتى آخر بيت فيها ولم يشركه غرض آخر سوى الرثاء .

ومع ذلك وجدت القصيدة الرثائية التى اشتملت على الرثاء . ومعه غرض شعرى آخر: كالتهنئة أو الهجاء . أو غير ذلك من الأغراض حيث جمع الشعراء فى القصيدة الواحدة بين الرثاء وفن شعرى آخر سواه، ويعد ابن رشيق الجمع بين الرثاء والتهنئة صعباً فيقول : "ومن صعب الرثاء جمع تعزية وتهنئة فى موضوع، قالوا : لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد، فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية حتى أتى عبيد الله بن همام السلولى فدخل فقال : يا أمير المؤمنين ، أجرك الله على الرزية وبارك لك فى العطية وأعانك على الرعية فقد رزئت عظيماً وأعطيت جسيماً فاشكر الله على ما أعطيت واصبر على ما رزئت فقد فقدت خليفة الله وأعطيت خلافة الله، ففارقت جليلاً ووهبت جزيلاً، إذ قضى معاوية نحبه ووليت الرياسة وأعطيت السياسة فأورده الله موارد السرور ووفقك لصالح الأمور :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقبه	واشكر حياه الذى بالملك أصفاك
لا رزء أصبح فسى الأقسام تعلمه	كما رزئت ولا عقبى كعقباك
أصحت والى أمر الناس كلهم	فأنست ترعاهم والله يرعاك
وفى معاوية الباقي لنا خلفاً	إذا نعبت ولا تسمع بمنعاك

ففتح للناس باب القول* (١)

فالجمع بين الرثاء والتهنئة من صعب الرثاء . لأن الشاعر يجمع فى القصيدة الواحدة وفى الموقف الواحد بين متناقضين : حزن وسرور وألم وغبطة وتعزية وتهنئة .

(١) ص ١٥٥ ج ٢ العمدة .

ومن هذا القبيل (الجمع بين الرثاء والتهنئة) - في الشعر العباسي قصيدة "مروان بن أبي حفصة" التي يعزى فيها الهادي بوقاة "المهدي" ويهنيء "الهادي" بالخلافة حيث يقول من بحر الطويل: (١)

لقد أصبحت تختال في كل بلدة	يقبىر أمير المؤمنين المقابىر
أنته التي ابتزت سليمان ملكه	وألوت بذي القرنين منها الدوائر
أنته فقاتله المنايا وعد له	ومعروفه في الشرق والغرب ظاهر
ولو كان تجريد السيوف يرد لها	ثنت حدها عنه السيوف البوائر
بأيدٍ بها تعطى الصوارم حقها	وتسرى لدى الروح الرياح الشوائر
ولو لم تسكن بابنه بعد موته	لما يرحت تيكسى عليه المناير

ومن الجمع بين الرثاء والتهنئة مرثية "أبي دلامة" التي يرثى فيها الخليفة "المنصور" ويهنيء فيها الخليفة "المهدي"، حيث يقول فيها: (٢)

عينان : واحدة ترى مسرورة	بإمامها جذلى وأخرى تذرف
تيكى وتضحك مرةً ويسوها	ما أبصرت ويسرها ما تعرف
فيسوها صوت الخليفة محرماً	ويسرها أن قام هذا الأرف
ما إن رأيت ولا سمعت كما أرى	شعراً أرجلسه وأخر أنتف
هلك الخليفة بالأمسة أحمد	فأناكس من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة	ولسذاك جنسات التعيس تزخرف
فابكسو لمصرع خيركم ووليكم	واستشرفوا لمقام ذا وتشرفوا

فالقصيدة جيدة استطاع أن يجمع الشاعر فيها بين الرثاء والتهنئة في كل بيت من أبياتها ولم تأت أبيات للرثاء مستقلة وأبيات للتهنئة مستقلة فالمعنيين في كل بيت، وكل بيت فيه الرثاء

(١) ص ٤٨ شعر مروان بن أبي حفصة .

(٢) ص ٦٠ طبقات الشعراء لابن المعتز .

والتهنئة وهذا مما زاد القصيدة حسناً وروعة وتدل على براعة الشاعر ومقدرته الفائقة .

ومن الجمع بين الرثاء والتهنئة قول أبي الشيص الخزاعي يرثى

الرشيد ويمدح الأمين بقوله : (١)

جرت جوار بالسعد والنحس فنحنن فسى وحشة وفى أنس
العيسن تيكى والسن ضاحكة فنحنن فى ماتم وفى عرس
يضحكنا القانسم الأمين وتبه كيننا وفساة الإمام بالأمس
بدران : بدر أضحي ببغداد فى الـ خلسد، وبدر بطوس فى الرمس
ومن هذا القبيل قول "أبى تمام" يمدح "الواثق" ويهنئه بالخلافة

ويرثى "المعتصم بالله" فى قصيدته التى يبدوها بقوله : (٢)

ماللدمسوع تروم كل مسرام والجفسن ثاكل هجعة ومنسام

وقصيدة "ابن الزيات" التى يرثى فيها "المعتصم" ويهنئ "الواثق"، وقصيدة "الحسين بن الضحاك" التى يرثى فيها "المعتصم" ويهنئ "الواثق"، وقصيدة "البحتري" التى يرثى فيها "الموفق" ويهنئ "المعتضد"، وقصيدة "ابن الجهم" التى يرثى فيها "عبد الله ابن طاهر" ويمدح فيها ولده طاهراً، وقد مرت هذه القصائد عند الحديث فى أنواع الرثاء وموضوعاته .

وإذا كان الشعراء العباسيون قد جمعوا بين الرثاء والتهنئة والمدح فى بعض قصائدهم فإنهم كذلك جمعوا بين الرثاء والهجاء فى قصيدة واحدة، ومن هذا القبيل قول "الحسين بن الضحاك" يرثى "محمد بن الأمين" ويهجو "المأمون" : (٣)

(١) ص ٤٣٧ الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق / د . مفيد قمينة دار

الكتب العلمية ببيروت .

(٢) ص ٢٠٣ ج ٣ ديوان أبى تمام .

(٣) ص ٨٥٤ مجريد الأغاني ، القسم الأول .

أطل جزعاً وابك الإمام محمداً بحزن وإن خفت الحسام المهندا
فلا تمت الأثيـاء بعـد محمـد ولا زال شمل الملك فيه مبدداً
ولافرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا طريداً مشرداً

ومن الجمع بين الرثاء والهجاء قصيدة ابن الرومي الطويلة التي
تبلغ ثمانية وثمانين بيتاً يهجو فيها صاعداً وابنه أبا عيسى ويرثى
دالته فيها والتي يبدوها بقوله: (١)

راع قلبى مشيب رأسى خليس راع جهلى والكيس بالتكيس
هذا وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل التي تجمع بين الرثاء
والهجاء في قصيدة واحدة (٢).

كذلك عرفت القصيدة الرثائية في العصر العباسي الأول
الوحدة العضوية كما عرفت الوحدة الموضوعية والتي أثبتناها
وسجلناها سابقاً حيث كان الطابع الأغلب على القصيدة الرثائية
وحدة الموضوع حيث لم تتضمن إلا موضوعاً واحداً وغرضاً معيناً
يعينه في القصيدة وهو فن الرثاء .

فالقصيدة الرثائية في الشعر العباسي قد رتبت أفكارها
بعضها آخذ برقاب بعض ولم يعد وحدة البيت هو المنوط كما كان
ذلك معروفاً من قبل، فقصيدة الرثاء في العصر العباسي الأول وحدة
متناسكة يكمل بعضها بعضاً ويسودها جو شعوري واحد هو
الشعور بالحزن والتعبير عن هذا الشعور بما يتلاءم ومقام الرثاء في
وحدة عضوية وفنية رائعة، ويتجلى هذا بوضوح في معظم قصائد
الرثاء التي نظمت في العصر العباسي الأول كمرثية العجلي في رثاء
دولة بني أمية (٣) ومرثية ابن الرومي لولده الأوسط "محمد" فضلاً

(١) ص ١٢٠٩ ج ٣ ديوان ابن الرومي .

(٢) ينظر ديوان دعبل ص ١٨٥ والمنتخب من أدب العربي ج ٣ ص ٧٤٤ .

(٣) ص ٢٧٩ ج ١١ الأغاني طبعة دار الثقافة ببيروت .

مراثى أبى تمام فى ولده ومحمد الطوسى وغير ذلك من مراثى
العصر العباسى .

اللغة والأسلوب :

اللغة : هى أداة الشاعر لتوصيل تجربته الشعرية وأفكاره
وتصويره وخياله وهى مادته وخامته التى يصنع منها شعره وأدبه،
وهى مجموع من الأصوات المقطعة إلى مقاطع تمثل تتابعاً زمنياً
لحركات وسكنات فى نظام اصطلاح الناس على أن يجعلوا له دلالات
بذاتها. وبهذا المعنى تكون اللغة الدالة تشكيلاً معيناً لمجموعة
المقاطع أو الحركات والسكنات خلال الزمن غير أن اللغة وإن كانت
زمانية فى طبيعتها إلا أنها تحمل فى الوقت نفسه دلالات
مكانية.. والشاعر حين يستخدم اللغة أداة للتعبير إنما يقوم بعملية
تشكيل مزدوجة فى وقت واحد . إنه يشكل من الزمان والمكان معاً
بنية ذات دلالة^(١) .

وتعد اللغة العربية من أرقى لغات العالم وأرقى لغة فى
اللغات السامية وتمتاز بكثرة مرونتها وإتساع اشتقاقاتها مما فيها من
مجاز وقلب ونحت وإبدال وغير ذلك من الأمور والخصائص التى
جعلتها دائماً مرنة حية راقية استطاعت أن تعبر عن كل منحى من
مناحى الحياة فى مختلف العصور وأن تكون وسيلة لنقل كل جديد
من العلوم والآداب الأجنبية إلى اللغة العربية .
وقد تضخم معجم اللغة العربية فى العصر العباسى واتسع
إتساعاً كبيراً من طريقين : الأول : وهو الأكثر التوسع فى مدلول
الكلمات العربية فالعربى لم يكن يعترف الفاعل والمفعول بالمعنى

(١) ص ٤٧ - ٤٨ التفسير النفسى للأدب، للدكتور/ عز الدين إسماعيل ،
الطبعة الرابعة مكتبة غرب .

الذى يفهمه النحوى ولا يعرف القضية ولا الموضوع ولا المحمول بالمعنى الذى يفهمه المنطقى ولا يعرف الطويل والحفيف والمديد بالمعنى الذى يفهمه العروض وهكذا .. وكان علماء اللغة يعملون جهدهم فى الأخذ عن الأعراب ويجتهدون فى وضع الصيغة التى يفهمها الأعرابى وبهذا كثرت معانى الكلمات العربية ، والثانى : نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى اللغة العربية وأكثر ما كان ذلك فى أسماء البلدان والنباتات والحيوانات والآلات والأمراض والمآكل التى لم يكونوا يعرفونها من قبل^(١)

فاللغة العربية فى العصر العباسى قد اتسعت مدلولاتها وعظم معجمها عما كان معروفاً من قبل فى العصور السابقة وشملها التقدم والتطور والرقى شأنها فى ذلك شأن بقية مناحى الحياة والعصر.

لقد تقبل شعراء العصر الأموى كل خصائص الشعر العربى التى كانت موجودة قبلهم فى العصرين : الجاهلى والإسلامى بكل قبول وارتياح وذلك لغلبة الطابع العربى على الدولة الأموية فى كل مناحى من مناحيها، لكن اختلف الحال فى العصر العباسى الأول حيث كان العصر عصراً إسلامياً متحضراً ضم جميع المسلمين من عرب وعجم وتحول المجتمع العباسى من مجتمع عربى بدوى فى العصر الأموى إلى مجتمع إسلامى متحضر ضم جميع الحضارات العربية والأعجمية: من فارسية وهندية ورومية ويونانية وغير ذلك وعاش شعراء العصر العباسى الأول نمطاً جديداً من الحياة المتحضرة ومع ذلك فقد ظلت اللغة العربية بكل ميراثها التعبيرية - فضلاً عما استحدث فيها من مدلولات تتفق وقواعد اللغة العربية - الأداة التعبيرية لكل ألوان الفن القولى خاصة الفن الشعرى بجمع فنونه

(١) ص ٢٩٩ - ٢٩٢ ج ١ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

وأغراضه ومنه فن الرثاء بوجه أخص حيث كانت لغته سهلة جزلة بعيدة عن كلام العامة والألفاظ الحشوية متمشية مع وجه الاستعمال ولم تخرج عليه ملتزمة قواعد اللغة العربية وممتنها واشتقاقاتها الصرقية متجنبة ارتكاب الضرورات إلى حد بعيد .

وجاءت لغة الرثاء قوية جزلة بعيدة عن التوعر والهبوط إلى درك التعبير بالعامية ويعيدة عن الابتذال والغرابة والحوشية والالتباس والتنافر بين الحروف وكل عيب يشين جمالها وروعتها حتى من جانب الشعراء غير العرب من الأعاجم .
وإذا كان بعض الشعراء قد وقع في بعض الأخطاء النحوية أو لجأ إلى الضرورات - وإن كان ذلك نادراً - في شعره فإن ذلك كان بعيداً عن شعر الرثاء عنده، حيث ابتعد شعر الرثاء كلية عن هذه الأخطاء وتلك الضرورات الشعرية ولم يؤثر فيه شئ من هذا القبيل النادر .

وإذا كان الشعراء العباسيون قد وجدوا أنفسهم أمام اتجاهين مختلفين في هذا العصر : أولهما اتجاه تقليدي موروث حث عليه ودافع عنه علماء اللغة والأدب ورواة الشعر والفقهاء والعلماء حفاظاً على لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وثانيهما : اتجاه واقعي يعبر عن واقع حياتهم وعصرهم الجديد المتحضر في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية إلا أنهم ساءروا هذين الاتجاهين ومضوا في أشعارهم آخذين بهما من غير أن يتركوا أحدهما وبأخذوا بالآخر، فهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من قوالب الشعر القديمة وقيوده ونماذجها التي سيطرت على علماء اللغة ورواة الشعر والعلماء والفقهاء والخلفاء الذين اهتموا بالتقديم وشجعوا عليه وهم في نفس الوقت لا يستطيعون إهمال ماجد في عصرهم ومجتمعهم من تطور وتقدم كما لم يستطيعوا إهمال جوانب

حياتهم الذاتية وتجاربهم الشخصية في شعرهم الرثائي وإن بدا هذا الشعر الرثائي يميل إلى الاتجاه الأول ميلاً غير قليل، حيث غلبت القوة والجزالة على لغته وألفاظه إلا أنه ابتعد عن الغرابة والوعورة والوحشية اللهم إلا نادراً حيث استخدم بعض الشعراء فيه بعض الألفاظ المعجمية التي تعوز القارىء إلى معاجم اللغة كي ينشرها بين يديه ليسهل له معرفتها وذلك مثل ماورد في قصيدة "عبد الملك ابن عبد الرحيم" في رثاء أخيه وتائية "دعبل" في رثاء آل البيت الخالدة.

ومرثية مروان بن أبى حفصة في "معن بن زائدة" ومرثية؛
"مسلم بن الوليد" في يزيد الشيباني^(١).

ومن سمات لغة الرثاء في هذا العصر وجود بعض الألفاظ الأعجمية المعربة التي وردت بين ثنايا شعر الرثاء خاصة الألفاظ الفارسية، التي تسربت من قديم إلى اللغة العربية عن طريق التجارة والاختلاط فضلاً عن ترجمة علوم الفرس وآدابهم في العصر العباسي على أكبر نطاق، حيث أخذ المثقفون من الفرس ينقلون إلى العربية تراث آباؤهم وما حفظته العصور إلى عهدهم^(٢).

ومن هذا القبيل ما جاء في قول البحتري يرثى : المتوكل :^(٣)

تعرض ريب الدهر من دون فتحه وغيب عنه في خراسان طاهره
فضلاً عن بعض الألفاظ السريانية : مثل لفظ "الصليب"
والنصارى . "والإنجيل" والبطريق "والقس" والناقوس " وغير ذلك
من الألفاظ الأعجمية التي وردت في لغة شعر الرثاء في العصر
العباسي الأول .

(١) تنظر القوائد في مواضعها من الكتاب في الفصول السابقة .

(٢) ص ١٧٥ - ١٧٦ ج١ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٣) ديوانه ج٢ ص ١٠٤٦ .

وهكذا وردت بعض الألفاظ الأعجمية إلى شعر الرثاء في العصر العباسي الأول - وإن كان أقل الأغراض الشعرية استخداماً مثل هذه الألفاظ الأعجمية فقد شاعت هذه الألفاظ في شعر الخمر والغزل والطبيعة شيوفاً واضحاً نظراً لبيئة هذا الشعر ومكانه حيث كانت الأديرة والحانات مرتعاً خصباً ومكاناً مشهوراً للهو وتعاطى كئوس الخمر والهوى فضلاً عن ملاسة هذه الأغراض لاستخدام مثل هذه الألفاظ الأعجمية بخلاف شعر الرثاء .

المهم أن شعر الرثاء العباسي قد وردت فيه هذه الألفاظ الأعجمية، لأن الأدب ظل الحياة الاجتماعية ومظهر من مظاهرها ولأن الأديب في كل عصر تواتر إلى استعمال ألفاظ وكلمات من عصره وحياته أصيلة كانت أم دخيلة^(١).

ومع ذلك فقد ظل شعراء العصر العباسي الأول يحافظون بكل قوة على اللغة العربية وقواعدها متمكنين من الوقوف على دقائقها جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصيلة في شعرهم وعلى رأسه شعر الرثاء .

الأسلوب :

اختلف الباحثون والدارسون في تحديد الأسلوب وتعريفه وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فقد عرفه ابن خلدون : بأنه : "عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصلى المعنى الذى هو وظيفة الأعراب "أى النحو" ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذى هو وظيفته البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفته العروض وإنما يرجع إلى صورة

(١) ص ١٩٧ اتجاهات الغزل في القرن الثانى الهجرى ، د / حسين بكار.

ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة التي ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويعيدها في الخيال كالقالب والمتوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرمها فيه رصاً كما يفعل البناء في القالب والنساج في المتوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص فيه وتوجد فيه على أنحاء مختلفة^(١)

وعرفه الإمام عبد القاهر : بأنه الضرب من النظم والطريقة فيه^(٢) ويرى الأستاذ أحمد الشايب : أنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإقناع والتأثير أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير^(٣).

وعرفه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى بقوله : "إنه نهج الكاتب والشاعر فى صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه والطريقة التى يسير عليها فى اختيار كلماته وتراكيبه وما يؤثر فى لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة وألوان الصنعة فى شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة وتورية وتدبيح وعكس ومشاكلة، وطرق الأداء التى يسير عليها فى صياغة من تقديم وتأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطباب

- (١) ص ٥٧ مقدمة ابن خلدون، نشر الدكتور / على عبد الواحد واقى ، القاهرة مطبعة البيان العربى عام ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
- (٢) ص ٣٠٥ دلائل الأعجاز، طبعة رشيد رضا، شركة الطباعة الفنية الحديثة، القاهرة ١٩٦٠ م .
- (٣) ص ٣٣ - ٣٩ الأسلوب .

إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب وما يراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف في بد كلامه وفي فصوله وخاتمته^(١). فضلاً عن تعريفات أخرى للأسلوب ذهب كل دارس فيه مذهبه وعرفه بتعريفه الخاص به^(٢).

ولعل أدق تعريف له هو تعريف ابن خلدون وإن كان يسبق كثيراً من الباحثين الذين تعرضوا لتعريف الأسلوب في عصره. ومن المعروف أن لكل غرض شعري أسلوباً يتلاءم ويتناسب معه فأسلوب المدح مثلاً يختلف عن أسلوب الغزل والشاعر الخاذق هو الذي يضع كل شيء في موضعه فالشدة في موضع الشدة واللين في موضع اللين، والجزل في موضعه والسهل في موضعه فإن وافق فقد أصاب وإن خالف فقد جانب الصواب. ويرى الأستاذ حازم القرطاجني أن يكون أسلوب الرثاء: شاحج الأقاويل مبكى المعاني مثيراً للتباريح وأن يكون بالفاظ مألوفاً سهلاً^(٣).

وقد اتسم أسلوب الرثاء في العصر العباسي الأول بالقوة والإتساق والروعة والتماسك والتسامي عن الضعف والتراخي في معظمه، يتمثل هذا في قصائد الرثاء الرائعة في هذا العصر كقصيدة دعبيل "التائبة الخالدة" في رثاء آل البيت ومرثية "مسلم بن الوليد في يزيد الشيباني ومرثية" على بن جيلسة

(١) ص ١٦٧ الحياة الأدبية (عصر بني أمية)، الطبعة الثانية ١٩٧٣م دار الكتاب اللبناني ببيروت.

(٢) ينظر على سبيل المثال، ص ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ علم الأسلوب د/ صلاح فضل و ص ١٤٨ و ص ١٤٩ بناء القصيدة في النقد العربي القديم، د / يوسف حسين بكار.

(٣) ص ٣٥١ من اللفاء وسراج الأديباء / تحقيق / محمد الحبيب بن الخوجة دار الكتب الشرقية، بتونس، طبع عام ١٩٦٦م.

في حميد الطوسي ومرثية مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة ومراثي "أبي نواس" في الأمين ومراثي "أبي تمام" في "محمد الطوسي" ومرثية "البحتري" في الخليفة "المتوكل" ومرثية "ابن الرومي" لولده الأوسط ومرثية "الحزيمي" في بغداد وغير ذلك من هذه القصائد المحكمة النسيج القوية الأسلوب البارعة الصياغة .

ومع قوة الأسلوب وتساميه عن اللين والوهن في شعر الرثاء في العصر العباسي الأول فقد بعد بالأفاظه عن الغرابة والجهامة والوحشية، فعظم المصيبة وهول الفجيعة تتطلب أسلوباً قوياً يبرزها ويصور قوة وقعها وأثرها لكن في وضوح معان ودقة ألفاظ تماماً كما رأيناها في معظم رثاء العصر العباسي الأول على اختلاف أنواعه وموضوعاته .

ومن خصائص أسلوب الرثاء في هذا العصر شيوع ألوان البديع على اختلاف أنواعها المختلفة وألوانها المتعددة من : طباق وجناس ومقابلة ومراعاة نظير وتورية ومشاكلة وغير ذلك من هذه الألوان .

وإن كان شعراء البديع في هذا العصر قد تكلفوا البديع أحياناً في بعض أشعارهم فإن شعر الرثاء لم يكن مجالاً رحيماً لهذا التكلف البديعي لأن المقام هنا ليس مقام تكلف وتصيد للبديع وليس المجال مجالاً للدعابة والتطريف والتظرف في استخدام البديع فمصيبة الموت التي لاتعد لها أي مصيبة مهما عظمت تريباً بالشاعر عن أن يكون متكلفاً للبديع متصيداً له فليس الظرف مناسباً للعب بالألفاظ في هذا الموقف الصعب الحزين .

فالصيغ البديعي في أسلوب شعر الرثاء جاء عفوية دون تكلف أو تصيد بل استدعاء المعنى وطلبه المقام، يتجلى هذا بوضوح في شعر الرثاء العباسي على اختلاف أنواعه وموضوعاته .

فمن الطبايق ماورد في قول بشار يرثى ولده : (١)
وما نحن إلا كالحليط الذي مضى فرائس دهر مخطىء ومصيب
إذا شئت راعتني مقيماً وطاعناً مصارع شبان لى وشيت
حيث طابق بين : مخطىء ومصيب في البيت الأول وطابق بين
مقيم وطاعن وشبان وشيب في البيت الثاني .

وقول أبى تمام يرثى ولده : (٢)
بعيد دار قرييب جبار فنى جدت للشرى دقينا
وقول ابن الرومى في رثاء ولده : (٣)
طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباص على بعد
هذا والأمثلة كثيرة ومتعددة في رثاء العصر .
ومن الجناس ما جاء في قول أبى تمام يرثى جارية له : (٤)
أصبت بخود سوف أغبر بعدها حليف أسى أبكى زماناً زمانها
وقول عبد الله التيمي يرثى ولده : (٥)
أردى بحبان مالم يترك الناسا فامنح فزادك من أحبابك الياسا
فبين : الناس والياسا جناس ناقص .
ومراعاة النظر في قول أبى محمد بن يوسف يرثى أباه : (٦)
تطاول في بغداد ليلى وضافى نزيلاً جوى بين الحشا والترائب
وقول أبى تمام في رثاء أخيه : (٧)

-
- (١) ص ٢٧٩ ج ١ ديوانه .
(٢) ص ج ديوانه .
(٣) ص ٦٢٤ ج ٢ ديوان الشاعر .
(٤) ص ١٤٢ ج ٤ ديوان الشاعر .
(٥) ص ٤٥ ج ٢٠ الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني .
(٦) ص ٢٣٨ الأوراق للصولى .
(٧) ص ١٤٦ ج ٤ ديوان الشاعر .

يا هول ما أبصرت عيني وما سمعت أذني فلا بقيت عيني ولا أذني
هذا والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة حيث يذخر بها شعر
الرثاء في العصر العباسي الأول .
كذلك عرف أسلوب الشعر الرثائي في العصر العباسي الأول
أسلوب التورية^(١) والانتباس القرآني^(٢) والتعدد^(٣) وأسلوب
القسم^(٤) فضلاً عن بقية الألوان البديعة الأخرى .
وإذا كان أسلوب شعر الرثاء في هذا العصر قد عرف فنون
البديع في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي^(٥) إلا أن الجديد في
هذا العصر أن الصيغ البديعية أصبح مذهباً فنياً له أسسه وقواعده
وصناعاته .
كما نستطيع أن ندحض الرأي القائل : إن البديع أثر من آثار
الفرس الذين امتزجوا بالعنصر العربي في هذا العصر امتزاجاً^(٦) .
فمتى كان امتزاج العرب الجاهليين بالفرس ؟

المعانسي :

أخذت قضية اللفظ والمعنى جانباً كبيراً من اهتمام النقاد
العرب وتفاوتت مفاهيمهم فيها تفاوتاً واضحاً ودالوت حولها دراسات
ويحوث ومناظرات استحوذت على جانب كبير من كتب الأدب
والنقد، وبالرغم من ذلك فإنها من أعقد القضايا النقدية القديمة
وأكثرها اضطراباً على الرغم من كل هذه الدراسات الكثيرة والعناية
العظيمة بها .

- (١) ينظر ص ٦٧٣ مجريد الأغاني القسم الأول .
- (٢) ينظر ص ١٨٥ وما بعدها لأوراق للصولي .
- (٣) ينظر ص ٢٨٢ ج ١٩ الأغاني . و ص ١٨٥ الأوراق للصولي .
- (٤) ينظر ص ٥٥ ج ١٩ الأغاني و ص ٢٧٨ ج ١ ديوان بشار .
- (٥) ينظر ص ٨٤ ديوان امرئ القيس .
- (٦) ص ٣٥٤ المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي .

وأستطيع أن أقسم مواقف النقاد من هذه القضية إلى عدة مواقف وقرق متعددة : فطائفة جعلت كل همها في اللفظ وركزت عليه دون المعنى وكان الجاحظ على رأس هذه الطائفة حيث يقول :
" .. والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخبر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء " (١) وطائفة ثانية جعلت عنايتها للمعنى واحتفلت به احتفالاً عظيماً دون اللفظ وإن كان بعضها لم يغفل اللفظ تماماً. أمثال : ابن شرف (٢) القيرواني والمزوقى (٣) وابن الأثير (٤) وغيرهم من نقاد هذا الاتجاه .

وطائفة ثالثة : اهتمت باللفظ والمعنى معاً وجعلتهما ركنين مهمين من أركان الأدب وربطت بينهما ارتباطاً وثيقاً لافرق بين العنصرين فهما عنصر واحد، ويعد عبد القاهر الجرجاني زعيم هذه الطائفة وأكبر ناقد عربي تناولاً وتفصيلاً لهذه القضية "قضية اللفظ والمعنى" أو قضية "النظم" (٥) .

- (١) ص ١٣١ - ١٣٢ ج٣ الحيوان، تحقيق / عبد السلام هارون، الطبعة الأولى طبعة الحلبي بالقاهرة عام ١٩٣٨ م .
- (٢) ينظر : أعلام الكلام : ص ٣٧ - ٣٨ ، الطبعة الأولى ، مطبعة النهضة بالقاهرة عام ١٩٢٦ م .
- (٣) ينظر : مقدمة ديوان الحماسة : ص ١٨ - ١٩ ج١ تحقيق / أحمد أمين وعبد السلام هارون الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥١ م .
- (٤) ينظر : المثل السائر : ص ٣٥٣ - ٣٥٥ ج١ تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة الحلبي بالقاهرة عام ١٩٣٩ م .
- (٥) ينظر : دلائل الأعجاز، وأسرار البلاغة في مواضع عديدة منهما .

ويعد قدامة بن جعفر واحداً يبرز في هذا الاتجاه ويتحلى ذلك في قوله : " .. ولما كان لكل واحد من هذه الثمانية (اللفظ والمعنى والوزن والقافية) صفات بمدح بها وأحوال بعاب من أجلها ، وجب أن يكون جيد ذلك وردينه لاحقين للشعر إذ كان ليس يخرج شيىء منه عنها" (١)

ومن هذه الطائفة الناقد الأديب ابن قتيبة حيث قسم الشعر إلى أربعة أضرب مهتما باللفظ والمعنى معاً حيث قال : "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه .. وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى .. وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه . وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه" (٢).

ومن هذه الطائفة كذلك أبو هلال العسكري ، حيث قال : "وإذا كان المعنى صواباً واللفظ بارداً وفاتراً كان مستهجياً ملفوظاً ومذموماً مردوداً .. ولاخير في المعانى إذا استكرهت قهراً والألفاظ إذا اجترت قسراً ولاخير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه ولافى غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد" (٣).

ونحن نرى أن اللفظ والمعنى ضروران ومهمان ولافضل لأحدهما على الآخر والعمل الأدبي الجيد هو ماجاد لفظه ومعناه معاً

(١) ص٢٦ نقد الشعر . تحقيق / كمال مصطفى . الطبعة الثالثة مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(٢) ص١٣ - ١٥ الشعر والشعراء . تحقيق / د مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة الأولى عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

(٣) ص٧٤ - ٧٥ الصناعيتين . تحقيق / د / مفيد قميحة ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م دار الكتب العلمية ببيروت .

وتألفت فيه جميع العناصر والأركان الأدبية : من تجرية وعاطفة ووزن وموسيقى وقافية وخيال وتصوير، فالعمل الأدبي كل متكامل لا يغنى فيه عنصر عن عنصر آخر فلا تغنى الألفاظ الجيدة عن المعاني الجيدة ولا يغنى التصوير عن الموسيقى ولا الأفكار عن العاطفة وهكذا، فالكلام الجيد يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخيره لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبهه اعجازه بهواديته وموافقة مآخيره لمياديه" كما يقول أبو هلال العسكري^(١)، وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب أخرى^(٢).

فالمهم أن جودة العمل الأدبي لا ترجع إلى اللفظ وحده كما لا ترجع إلى المعنى وحده ولا إليهما معاً فقط ولكن لجودة جميع العناصر والأركان في العمل الأدبي ومنها المعنى . وقد ردد الشعراء العباسيون كثيراً من معاني الأقدمين في شعرهم الرثائي وتأثروا بها تأثراً كبيراً، ولاغنى للشاعر عن اتباع من سبقه من الشعراء ولا يعد ذلك سرقة فالمعاني يستدعى بعضها بعضاً كما قال الدكتور محمد مندور^(٣) .
فمن ذلك خطاب العين في قول ابن الرومي يرثى ابته .
بكاؤكما يشقى وإن كان لا يجدى فجردا فقد أودى نظير كما عندي
فقد كان ذلك معروفاً من قبل، حيث قالت الخنساء ترثى
أخاها صخرأ :

(١) ص ١٦٩ الصناعتين .

(٢) ص ٢٣ - ٢٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٣) ص ١٨٢ النقد المنهجي عند العرب، للدكتور محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .

أعينسى جسوداً ولاجمداً ألا تكيهان لصخر التندى
ومثل قول أشجع السلمى يرثى أخاه :
خليل لا تستبدعاً ما انتظرتما فإين قريباً كل ما كان آتياً
ويعننى من لذة العيش أننى أراه إذا قارفت لهواً يرانيسا
أخذ هذا المعنى من قول ابن الدمينة :

وانسى لاستحيبك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب (١)
ومنه قول أبى تمام :
خلقنا رجالاً للتجلد والأسى وتلك الفوانى للبكى والمآتم

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مصعب : " وإنما
التسليم والسلوة لحزماء الرجال وإن الهلع والمجزع لربات الحجال".
هذا والأمثلة كثيرة على ذلك، فليس لأحد غنى عن تناول
المعانى من تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم (٢)

وإذا كان الشعراء العباسيون قد تأثروا فى رثائهم بمعانى
الأقدمين فإنهم أتوا بالرائع والساحر المبتدع منها وصالت مخيلة
الشعراء وجالت فى عالم المعانى حتى استخرجت كثيراً منها من
مكائنها فكان لهم فضل السبق والابتكار والروعة وهى كثيرة تزخر
بها دواوين شعراء العصر ويفيض بها أشعارهم، منها : ماجاء فى
فى رثاء أبى تمام : (٣)
مضى طاهر الأخلاق لم يبقى بقعة من الأرض إلا واشتهب أنها قبر
فالمعنى جديد مبتكر لم يسبق إليه الشاعر العباسى .
ومنها قوله فى رثاء زوجته :

- (١) ص ٤٦٣ الشعر والشعراء لابن قتيبة .
(٢) ص ٣١٧ الصناعتين . لأبى هلال العسكري .
(٣) ص ٨٥ جزء ديوانه .

وكننت أرجى القرب وهي بعيدة
لها منزل تحت الشرى وعهدتها
وقوله في رثاء الطوسي :
فتى مات بين الضرب والظعن ميتة
لئن أبغض الدهر الخئون لفقده
وكيف احتمالى للسحاب صنعة
ومنه ماورد في رثاء أبي نواس للأمين : (١)
طوى الموت ما بيني وبين محمد
وكننت عليه أذى الموت وحده
لئن عمرت دون بمن لا تحببه
فالمعاني جديدة رائعة مبتكرة .
ومنها قول مسلم بن الوليد :
أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه
فطيب تراب القبر دل على القبر

وقيل إن هذا البيت أرمى بيت قالته العرب في الجاهلية
والإسلام. (٢) ومن هذا القبيل ماجا . في مرثية ابن الزيات لزوجته
حيث لم يعدد الشاعر الصفات أو يدعو بالسقيا للقبر وغير ذلك مما
هو معروف بل ترك العنان لنفسه يقول مايشاء . ويقصص عما بداخلها
من أحزان حسبما تريد ، وتركيزه على طفله الذي تركته أمه باحثاً
عنها باكياً عليها بينما الأطفال يرحون مع أمهاتهم من حوله .
هذا والأمثلة كثيرة على المعاني المبتكرة في شعر الرثاء في
العصر العباسي الأول وتزخر بها قصائد الرثاء في هذا العصر ،
كقصيدة دجيل الخزاعي - النائبة الخالدة - وقصائد أبي تمام في الرثاء
وقصائد ابن الرومي لابنه الأوسط ومدينة بغداد ولأمه .

(١) ص ٣٤٢ ديوان أبي نواس .

(٢) ص ١٥٠ ج ٢ العمدة .

وقصيدة "ليلى بنت طريف"، فى أخيها "الوليد بن طريف" وغير ذلك من مثل هذه القصائد الرائعة فى هذا العصر والتي تزخر بكثير من المعانى الرائعة والمبتكرة .
ومع ذلك وجدنا فى شعر الرثاء العباسى بعض المعانى غير الجيدة والتي وقعت فى منحدر الرداة، كقول أبى العتاهية :
مات الخليفة أيها الثقلان فكأننى أقطرت فى رمضان (١)

فلم يكن الشاعر موفقاً فى شطره الثانى .
وجاءت معانى شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول واضحة بعيدة عن الغموض والحفاة والالتباس والتعقيد ونرى فيها القديم الموروث والجديد المبتكر الذى جاءت به مخيلة الشعراء فى هذا العصر بل ربما كانت المعانى من أبرز العناصر التى ظهرت فيها مقدرة الشعراء فى هذا العصر وبراعتهم فى ابتكار كثير منها فى كل الفنون الشعرية ومنها شعر الرثاء .
وقد درأت معانى الرثاء فى هذا العصر حول تصوير المصيبة ووصفها وصفاً ممتزجاً بالأسى وتصور الحزن والألم وبيان عظم المصيبة وتوضيح أثرها على الشاعر وأهل المرثى والمجتمع كله إذا كان المرثى عظيماً، والسخط على المنايا وأخذ العهد بالبكاء على الميت وشكوى الدهر مما فعله بهذا المرثى وطلب البكاء على الميت والسلام على قبره والدعاء له وتصور دفنه وكيفية موته والثورة العارمة على القتل إذا كان المرثى مقتولاً كما هو واضح فى مرثية اليعترى للمتوكل، والتأثر بالروح الإسلامية حيث الرضى بقضاء الله وأن لكل أجل كتاباً إلى غير ذلك .
فضلاً عن ذكر فضائل الميت وتعداد مناقبه وشمائله وخصاله ودارت فى معظمها حول الشجاعة والعفة والعدل ورجاحة العقل

والكرم والسخاء والحياة والعلم والحلم والقناعة والوفاء والبر والتنزه وغير ذلك من هذه الصفات الحميدة والخصال النبيلة . وكانت هذه الصفات والفضائل تختلف وتتغير من مرثى إلى آخر وفقاً لتغير وظيفته ومكانته في المجتمع والدولة فللخلفاء صفاتهم ومناقبهم وللوزراء صفاتهم وللقواد صفاتهم وللعلماء والأدباء صفاتهم وللأصدقاء صفاتهم وللأبناء والآباء والإخوة صفاتهم وللبنات والأمهات صفاتهن وللجوارى صفاتهن، وللمدن صفاتها وللحيوانات والطيور صفاتها إلى غير ذلك حيث كانت الصفات تتلاءم مع المرثى وتتناسب مع مكانته ووضع .

وقد ظهر البكاء والعيول والتحبب والتدب في رثاء الأهل والأقارب ورثاء الشيعة لأئمتهم بصورة واضحة، كما ظهر التأبين والشنا في رثاء الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة بصورة واضحة. وقد اتسمت معاني شعر الرثاء في العصر العباسي الأول بالدقة والوضوح وتظهر فيها حضارة العصر ورقية وثقافته المتعددة والتأثر بعلوم الفلسفة وعلم الكلام^(١) فضلاً عن التأثر ببعض العقائد الشيعية والتي تجلت في رثاء الشيعة لأئمتهم ورثاء أشجع السلمي للخليفة الرشيد حيث ذكر أن نور الخليفة مقتبس من نور النبي صلى الله عليه وسلم^(٢)، كما تكثرت فيها التقسيمات الطريفة التي تعد من بدع العصر ومستحدثاته الطريفة، فمن التقسيمات الطريفة التي تعد من بدع العصر ومستحدثاته الطريفة، فمن التقسيمات الطريفة ما جاء في رثاء البحترى لأم المتوكل:^(٣)

غروب دمع من الأجفان تنهمل وحرقة بغليسيل الحزن تشتعل
إن ليج حزن فلا يدع ولا عجب أو قسل صبر فلا لوم ولا عدل

(١) ص ١٢٩ من الأوراق للصولي .

(٢) ص ١٨٨٣ ج ٣ ديوان الشاعر .

وماورد في قصيدة ابن دريد التي يرثى فيها الإمام الشافعي (١).

ومن التقسيمات البديعة، ماورد في قول أبي نواس: (٢)
أيسارب وجه في التراب عتيق ويسارب حسن في التراب رقيق
ويارب حزم في التراب ومجسدة ويسارب رأى في التراب وثيق

وما يتصل بالمعاني: المبالغة والغلو والإغراق، وقد استحسنته بعض النقاد في الشعر مثل قدامة بن جعفر حيث قال: "إن الغلو عندي أجود المذهبين وهو ماذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً.. وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه" (٣).
والغلو في الشعر ليس مذهباً جديداً في الشعر العباسي بل عرفه الشعر العربي منذ القدم إلا أنه انتشر في العصر العباسي انتشاراً واضحاً وأصبح من أهم سمات الشعر العباسي بوجه عام ومنه شعر الرثاء، حيث ذهب الشعراء يغالون في وصف المصيبة وعظم مكانة المرنى ويظهر ذلك بوضوح في رثاء الخلفاء والقواد ورثاء الأبناء فلذات الأكباد، ومن هذا القبيل: قول مسلم بن الوليد في رثاء يزيد الشيباني:

أرادوا ليخفسوا قبره عن عدوه قطيب تراب القبر دل على القبر
وقول العبلي في رثاء دولة بني أمية: (٤)
قبنو أمية خير من وطني الشرى شرفاً وأفضل ساسة أمراؤها

- (١) ينظر ص ٢٣ ديوان الشافعي، وقد مرت القصيدة في رثاء العلماء .
(٢) ص ٥٨٧ ديوان الشاعر .
(٣) ص ٦٢ نقد الشعر .
(٤) ص ٢٩٠ ج ١١ الأغاني .

والأمثلة على ذلك كثيرة تزخر بها مراثى شعراء العصر العباسي الأول وتفيض بها أشعارها الرثائية في مختلف أنواع الرثاء وموضوعاته القديمة منها والجديدة .

الخيال والتصوير :

إن للخيال دوراً بارزاً في إحياء الصورة الأدبية ويعد قلب المحاور الفنية في التصوير وله دخل كبير في إثارة العاطفة وتجميع جزئيات الصورة ويمنح الشعر "الروح الخرافية وروح الأساطير التي تطل من عالم غريب ويبعث في النفس ضروباً من التطلع والتشوق والارتياح والإثارة ويعطى القدرة للشعر كي يبعث في النفس الراحة من عناء الحياة المادية أو يكشف لها طريق الهروب^(١) . فالخيال عنصر مهم من عناصر تشكيل الصورة الأدبية ويمنح لها الحياة والحيوية والبقاء والخلود . وقد أدرك ذلك النقاد العرب القدامى فدعوا إلى الخيال في صناعة الشعر حتى يكون الشاعر شاعراً حقاً^(٢) . وقد اختلف الباحثون في تعريف الخيال وتحديدته وذهبوا فيه مذاهب متعددة، فقد عرفه بعضهم : بأنه "إبراز الأفكار وتوضيحها في قوالب من المجاز المشتمل على التشبيه والاستعارة والكتابة والمجاز المرسل وغيرها .. كما ذهب معظم النقاد الأقدمون كالآمدي والجرجاني وابن رشيق وغيرهم .

وعرفه آخر : "بأنه مجسيم الحقائق وتكبيرها بقصد التوضيح والتزيين وإضافة بعض الأصباغ إلى الصورة الأم لتقوية المعنى

(١) ص ٤١ تاريخ النقد العربي للدكتور : محمد زغلول سلام طبعة دار المعارف عام ١٩٦٤م .

(٢) ينظر ص ٩٦ ج ٢ العمدة لابن رشيق .

وإيقاظ المشاعر وتنبئها ولفت انتباهها^(١) ويرى الدكتور غنيمي هلال : "أن الخيال نوع من تصوير الحقيقة عن طريق المشابهة التي لاتزال تباشر سلطانها على العقل منذ لحظة إدراكها"^(٢) .
والكلام المشتغل على الخيال أكثر روعة وأكبر أثراً في القلوب والأسماع ويزيد الكلام حسناً وجمالاً وبهاء .
أما الصورة فهي عبارة عن "العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى في نص أدبي والحصيلة الناجمة عن اقترانها فليست هي اللفظ بمفرده ولا المعنى بمفرده ولكنها الخصائص المشتركة بينهما والتي تتقوم بها شخصية النص الأدبي"^(٣) ، سواء كانت ناجمة عن كلام مشتغل على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل أم لا .

وقد اعتمد شعر الرثاء في العصر العباسي الأول اعتماداً كبيراً على الخيال في إبراز أفكاره ومعانيه وصوره وراح شعراؤه يفتنون في استخدامه ويتوسلون به في جلاء صورهم الشعرية وإبراز أفكارهم في ثوبها الفني حتى تجاوزوا بالتعبير البسيط عن الحقيقة إلى ما هو أبعد وأعمق من ذلك حيث اتجهوا إلى ألوان المجاز خاصة التشبيه والاستعارة وجعلوها متكافئاً لإبراز أفكارهم وصورهم ومعانيهم وأكثرها منها في شعرهم الرثائي ولكنها ظهرت من خلال عيونهم ممزوجة بأفكارهم وعواطفهم وابتكروا صوراً جديدة من عصرهم وبيئتهم. ولقد ازدحمت دواوين شعراء العصر العباسي الأول بألوان الخيال - من تشبيه واستعارة وكناية - في مختلف الأغراض

(١) ص ١٤٣ إجماعات الغزل في القرن الثاني الهجري . للدكتور : يوسف بكار .

(٢) ص ٤١٥ النقد الأدبي . محمد غنيمي هلال .

(٣) ص ٥١ أبو نواس وقضية الحدائث في الشعر، الدكتور : العربي حسن درويش ، الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٧م .

الشعرية خاصة شعر الرثاء على تنوع موضوعاته واتجاهاته مما يدل على خصب خيال شعراء العصر العباسي الأول الذين عاشوا حياتهم في مجتمع جديد مليء بمادته الطبيعية وثقافته المتنوعة وحضارته الزاهية .

فبجانب ألوان الخيال القديمة التي احتذاها شعراء العصر العباسي الأول في شعرهم الرثائي نجد ألواناً خيالية جديدة ابتكرها شعراء العصر ويرجع إليهم الفضل في السبق إليها. وأشعارهم الرثائية تفيض بها إفاضة عظيمة، فقد جمع الشعراء بين القديم والجديد المبتكر في ألوان الخيال والتصوير الشعري .
ويعد التشبيه أبرز ألوان الخيال وأكثرها في تشكيل الصورة وتوضيح مفهومها في شعر الرثاء في العصر العباسي الأول سواء كان قديماً احتذا شعراء العصر أم كان جديداً مبتكراً لم يسبقوا إليه.

فمن القديم ماورد في رثاء بشار لابنه محمد : (١)

كأنسى غريب بعد موت محمد لو أن المنايا ترعسوى لطبيب

وماورد في قول ابن الرومي يرثي ولده مشبهاً له بعينيه: (٢)

بكاتوكما يشفى وإن كان لا يجدى فجسودا فقد أودى نظير كما عندي

وما جاء في رثاء الرقاشي للبرامكة : (٣)

أصبحت بسادة كانوا محروماً بهم نسقى إذا انقطع الغمام

هذا وتزخر قصائد الرثاء على اختلاف موضوعاتها بمثل هذه

التشبيهات القديمة التي اتبعها شعراء العصر في مراتبهم حيث

لاغنى للشاعر مهما بلغت ثقافته ومقدرته عن اتباع غيره من

الشعراء الذين سبقوه .

(١) ص ٢٧٨ ج ١ ديوان الشاعر .

(٢) ص ٦٢٤ ج ٢ ديوانه .

(٣) ص ٣٤٠ ج ١ وفيات الأعيان .

ومن التشبيهات المبتكرة ماجاء في رثاء أبي تمام يرثى
أخاه: (١)
لله الحافظ والموت يكسرهما كأن أجفانه سكرى من الوسن
يرد أنفاسه كرها وتعطفها يد المنية عطف الريح للعقد
وماورد في قول ليلى الأخيلة في رثاء أخيها: (٢)
فقدناك فقدان الربيع وليتنا فدينناك من دهماننا بألسوف
ومازاه في رثاء ابن الرومي لولده الأوسط محمد: (٣)
توخى حمام الموت أوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقد
ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه تساقط در من نظام بلاعقد

هذا والأمثلة على ذلك كثيرة وتزخر بها أشعار الرثاء. في
العصر العباسى الأول، وقد استمدتها شعراء العصر من بيتهم
وحياتهم الجديدة وأعانت عليها ثقافتهم الواعية والحضارة والتقدم
اللتان سادتا العصر العباسى الأول .
كذلك اعتمد الشعراء العباسيون اعتماداً كبيراً على فن
الاستعارة فى تصوير صورهم وإبراز أفكارهم ومعانيهم واتخذوا
منها هى الثانية متكتناً لبعث الحياة والروح والحركة فى صورهم
ومشاهدتهم فى مراتبهم .

فمن ذلك ماورد فى رثاء أبي تمام لمحمد الطوسي: (٤)
فتسى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
أمن بعد طى الحادثات محمداً يكون لأثواب الندى أبداً نشراً؟

- (١) ص ١٤٦ ج٤ ديوان أبي تمام .
- (٢) ص ١٣٧٥ مجريد الأغاني .
- (٣) ص ٦٢٤ ج٢ ديوان ابن الرومي .
- (٤) ص ٧٩ - ٨٥ ج٤ ديوان الشاعر .

وما جاء في قول الحسين بن مطير يرثى معنًا: (١)
ألمنا بمعن ثم قولاً لقبيره سقتك الغواذى مريعاً ثم مريعاً
حيث جعل أبو تمام الأحاديث تضحك وللندی أثواباً، وأرسل
الحسين التحية للقبير .
هذا والأمثلة على ذلك وتفيض بها أشعار الرثاء في العصر
العباسي الأول على اختلاف موضوعاتها واتجاهاتها.
وإذا كان شعراء العصر العباسي الأول قد اعتمدوا اعتماداً
كبيراً على ألوان الخيال - خاصة التشبيه والاستعارة - في إبراز
صورهم وأفكارهم ومعانيهم فإننا مع ذلك وجدنا كثيراً من الصور
الرائعة التي بناها شعراؤها على الوصف التصويري دون اعتماد
على تشبيه أو استعارة أو مجاز، ومن ذلك ماورد في قصيدة أبي
تمام التي يرثى فيها ولده ويصور حالة احتضاره وحالته هو من بعد
فقدته (٢) وماورد في قصيدة الخزيمي التي يرثى فيها مدينة بغداد (٣)
وماورد في قصيدة ابن الرومي التي يرثى فيها مدينة البصرة (٤).
حيث صور الشعراء صورهم ووصفوا مشاهدتهم وصفاً واقعياً دون
الالتكاء على ألوان الخيال والاعتماد عليها اعتماداً كبيراً .

الأوزان والقوافي :

يعد الوزن العروضي من أهم عناصر العمل الشعري وأحد
أركانته، وقد جعل العرب الوزن والقافية من عناصر الشعر العربي
وإلا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم، فلا شعر دون وزن وقافية.

- (١) ص ١٨٠ ج ٥ نهاية الأرب .
- (٢) تنظر القصيدة في موضعها في رثاء الأبناء .
- (٣) تنظر القصيدة في موضعها في رثاء المدن .
- (٤) تنظر قصيدته ص ٢٣٧٧ ج ٦ ديوانه .

وحيثما تنصفح شعر الرثاء في العصر العباسي الأول نجد أنه قد التزم الوزن والقافية التزاماً تاماً ولم يحاول شعراؤه الخروج على الوزن العروضي المعروف أو تنويع القافية على الرغم من محاولتهم ذلك في بعض الأغراض الشعرية الأخرى مثل : الغزل ووصف الخمر وغيرها .

والشاعر العباسي شاعر مثقف فنان يختار لموضوعات الشعر مايلتزمه من بحور العروض، فتجده في الموضوعات الجديدة مثل : المدح والرثاء . يؤثر البحور الطويلة وينظم عليها قصائده وفي الموضوعات الهزلية يؤثر البحور القصيرة أو المجزوءة وينظم عليها أشعاره .

وشعر الرثاء من الموضوعات الجديدة بل أجدها جميعاً لذا رأينا شعراء العصر العباسي ينظمون مراثيهم على بحور الشعر الطويلة : مثل البحر الطويل والكامل والوافر والبسيط والمنسرح والمتقارب وغيرها من البحور الطويلة .

وليس معنى ذلك أن الشعراء خصصوا البحور الطويلة للموضوعات الجديدة والبحور القصيرة للموضوعات الهزلية بل كان ذلك هو الأعم الأغلب في شعرهم، وجاءت معظم أشعار الرثاء في العصر العباسي الأول على البحور الطويلة .

وقد التزم شعراء العصر العباسي الأول بالقافية الموحدة في قصائدهم الرثائية فلم ينوعوا قوافيها أو يعددوا فيها، وقد نظمو شعرهم الرثائي على معظم حروف الهجاء العربية إلا أنهم كانت لهم المقدرة الفائقة على اختيار القافية التي تلائم شعر الرثاء والتي تساعد على إشاعة معنى الحزن والأسى في قصائدهم .

كذلك وجدت قصائد ذات قوافٍ داخلية متحدة غير القافية
الموحدة في آخر الأبيات وذلك مثل قول أبي العتاهية في رثائه العام
للموتى: (١)

وذوو المناهر والعساكر والديساكر والحضائر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجائب والمراتب والمناصب في العلى .

«الخاتمة»

أما بعد : فقد تناولت هذا البحث بالدراسة المستفيضة المتخصصة وأستطيع القول بأنها أول دراسة مستقلة تختص بشعر الرثاء ودراسته في العصر العباسي الأول الذي يبلغ القرنين من السنين والذي بحثت فيه شعر الرثاء في هذا العصر موضحاً اتجاهاته كاشفاً ما طرأ عليه من التقدم وما ظهر فيه من الجديد متعرضاً لخصائصه الفنية معتمداً على كثير من النماذج الشعرية للتدليل والبرهان آخذاً في شرحها ونقدها وتحليلها معتمداً على الموازنة التي هي ضرب من ضروب النقد في كثير من الأشعار .
وقد اشتمل البحث على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة :
وتحدثت في المقدمة عن أهمية الموضوع ودواعي اختياره والمنهج الذي التزمته وأهم المصادر والمراجع التي استعنت بها في البحث .

وفي الفصل الأول : تكلمت بإيجاز عن الرثاء وألوانه حيث عرفت الرثاء لغة وإطلاحاً وذكرته وجه الشبه والاختلاف بينه وبين المدح متعرضاً للأراء المختلفة في ذلك مسجلاً رأيي الشخصي نحو هذا الموضوع، ثم تعرضت لشعر الرثاء في العصر الجاهلي فذكرت أن الرثاء من موضوعات الشعر القديمة التي عرفها الشعر الجاهلي سواء كان ندياً أم تأبيناً أم عزاءً وأن الشعراء الجاهلين قد عرفوا الرثاء الاجتماعي : الذي يتناول الأهل والأقارب والأصدقاء كما عرفوا الرثاء السياسي : الذي يدور حول رثاء القتلى في المعارك التي كانت تدور بين القبائل ورثاء زعماء القبائل وأشرافها، موضحاً الخصائص والسمات الفنية للرثاء في العصر الجاهلي معتمداً على النماذج الشعرية التي نظمت في رثاء العصر متعرضاً لها بالشرح والتحليل.

والفصل الثاني : خصصته للرثاء في العصر الإسلامي
والعصر الأموي، حيث تعرضت أولاً للرثاء في عصر صدر الإسلام
موضحاً أن شعراء العصر قد عرفوا الرثاء بقسميه : الاجتماعي :
والسياسي، حيث راح الشعراء يرثون أبناءهم وآباءهم وأزواجهم
وأهلهم فضلاً عن رثاء النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء
الراشدين من بعده وفضلاً عن رثاء الشهداء الذين سقطوا في
ساحات المعارك والحروب، وقد أظهرت أثر الإسلام في شعر الرثاء،
حيث خاطب الإسلام العقول فهداها والقلوب فرفقتها والعواطف
فأرهنها فلم يعد الرثاء ضعفاً أو تعبيراً عن الضعف بل أصبح
تعبيراً عن الوفاء والحب وقوة الإيمان وظهرت مبادئ الإسلام قوية
راسخة في أفكاره ومعانيه وصوره واصطبغ شعر الرثاء بوجه عام
في العصر الإسلامي بالصيغة الإسلامية، واتجه أسلوبه نحو الرقة
والعذوبة والسلاسة، وقد وضحت ذلك باستخدام الأمثلة للتدليل
متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل. ثم بحثت عن شعر الرثاء في
العصر الأموي فوجدت الشعر الأموي قد عرف الرثاء بلونيه :
الاجتماعي والسياسي كما رأيت شعر الرثاء قد انتشر انتشاراً
واسعاً عما ذي قبل ذكراً السبب في ذلك متعرضاً لموضوعات الرثاء
في عصر بني أمية مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لموضوعات
الرثاء في عصر بني أمية مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لها
بالشرح والنقد والتحليل مركزاً على أشهر وأروع قصائد الرثاء في
هذا العصر، موضحاً أن الرثاء السياسي قد بلغ حداً عظيماً في هذا
العصر مبيناً علة ذلك مشبهاً أن رثاء الشيعة لآل البيت كان رثاءً
حزيناً قائماً ثائراً بسبب مالحق آل البيت من مأس وأهوال، وموضحاً
أن رثاء الخوارج لقتلهم كان من أروع شعر الرثاء في ذلك العصر،
كل ذلك موضحاً بالأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد
والتحليل مبرزاً الخصائص الفنية التي ارتسمت في شعر الرثاء في
هذا العصر .

ثم تحدثت بعد ذلك عن شعر الرثاء في العصر العباسي الأول؛ فوضحت شيوع الرثاء في ذلك العصر وسبب ذلك ووجدت أن العصر العباسي قد نهض بشعر الرثاء نهوضاً ملحوظاً واحتل شعر الرثاء مرتبة متقدمة بين أغراض الشعر في ذلك العصر .

ثم خصصت **الفصل الثالث** : للرثاء الاجتماعي في العصر العباسي الأول وفصلت القول فيه وأبرزت ازدهار هذا اللون في ذلك العصر والسبب في هذا الازدهار ووجدت أن الرثاء الاجتماعي في العصر العباسي قد تعددت وكثرت موضوعاته : من رثاء الأبناء ورثاء الآباء ورثاء الأمهات ورثاء الأخوة ورثاء الأزواج والزوجات ورثاء الجوارى ورثاء الأصدقاء ورثاء العلماء والأدباء ورثاء النفس والرثاء الجماعي ورثاء الشباب، وقد تعرضت لكل موضوع من هذه الموضوعات بالحديث المفصل والمنفصل ووضحت مظاهر القديم والجديد فيه مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والنقد والتحليل مبرزاً أهم ما طرأ عليها من مظاهر حضارة العصر العباسي وتقدمه موضعاً مسحاً التقليد التي استمدها شعراء العصر من العصور السابقة وتأثروا بها في مراثيهم سواء كان ذلك من حيث الأفكار والمعاني والصور والأخيلة أو الموضوعات .

وفي **الفصل الرابع** : تعرضت للرثاء السياسي في العصر العباسي الأول، ووجدت شيوع هذا اللون من الرثاء في ذلك العصر مبيناً علة ذلك، ثم فصلت الحديث عن أهم موضوعات الرثاء في هذا اللون من الرثاء، فتعرضت لرثاء الخلفاء وفصلت القول في ذلك ووضحت أهم السمات والخصائص الفنية له مبرزاً مظاهر القديم والجديد فيه، ثم تحدثت عن رثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة موضعاً الخصائص الفنية لهذا الموضوع وجوانب التقليد والتجديد في الأفكار والمعاني والصور والأخيلة معتمداً على النماذج

أشعرية متعرضاً لها بالشرح والتقد والتحليل آخذاً الموازنة بين شعراء العصر سبيلاً من سبل النقد والتحليل. ثم تحدثت بعد ذلك عن رثاء الشيعة لأمتهم مفصلاً الحديث حول هذا الموضوع مظهراً الخصائص الخاصة التي امتاز بها شعر الرثاء. للأئمة من آل البيت سواء كان ذلك من حيث الشكل أو المضمون مبرزاً مظاهر التقليد والتجديد في ذلك مستخدماً الأمثلة الشعرية متعرضاً لها بالشرح والتحليل والموازنة .

والفصل الخامس : خصصته "رثاء الدول والمدن" في العصر العباسي الأول، وقد كان رثاء الدول الزائلة في العصر العباسي الأول امتداداً لرثاء الدول الزائلة التي عرفها شعر الرثاء في الأدب العربي القديم، فلم يكن رثاء الدول موضوعاً جديداً جد في رثاء العباسيين، ثم أوضحت أن رثاء الدول الزائلة عند الأندلسيين كان أروع وأبدع من رثاء العباسيين موضوعاً السبب في ذلك .

ثم تحدثت عن رثاء المدن في العصر العباسي الأول وأثبت أن هذا الموضوع من موضوعات الرثاء الجديدة التي ابتكرت في العصر العباسي الأول مفتداً مزاعم القائلين بغير ذلك راداً عليهم آراءهم بالدليل والبرهان والحجة المقنعة مستخدماً الأمثلة والنماذج الشعرية متعرضاً لها بالشرح والتقد والتحليل موضعاً الخصائص التي تميز بها هذا الموضوع الجديد من الرثاء .

وفي الفصل السادس : تحدثت عن "رثاء الحيوانات والطيور" ويعد هذا الموضوع من موضوعات الرثاء المبتكرة والمستحدثة في العصر العباسي الأول حيث لم يعرف من قبل وقد ذكرت السبب في ذلك، ثم تعرضت لهذا الموضوع المبتكر معتمداً على النماذج الشعرية التي احتوته وضممتها في ثناياها متعرضاً لها

بالشرح والتحليل والموازنة مبرزاً أهم السمات التي تميزت بها سواء كانت من حيث الشكل أو المضمون .

وفى الفصل السابع : تحدثت عن الخصائص الفنية لشعر الرثاء في العصر العباسي الأول وتعرضت فيه لكثير من القضايا مثل : موضوعات الرثاء التي تناولها شعر الرثاء في العصر العباسي والقديم والجديد منها وأثبت أن العصر العباسي قد سبق في بعض الموضوعات مثل رثاء المدن ورثاء الحيوانات والطيور وغير ذلك من الموضوعات التي لم يعرفها شعراء العصور السابقة على العصر العباسي فضلاً عن وجود الموضوعات القديمة التي عرفت من قبل إلا أنها كانت أعم انتشاراً وأكثر ازدهاراً عن ذي قبل .
والبناء الفني للقصيدة الرثائية، حيث اتخذت بناماً متعددأ وأشكالاً مختلفة، وتنوعت بين : الطول والقصر وبين المقطوعة والقصيدة وبين القصيدة بالمقدمة والقصيدة الخالية من المقدمة التمهيدية إلا أن الغالب في قصائد الرثاء في ذلك العصر كانت بلا مقدمة تمهيدية وكانت قصائد مستقلة في شعر الرثاء دون مشاركة غرض آخر معها ومع ذلك وجدنا بعضاً من القصائد التي جمع فيها الشعراء بين العزاء والتهنئة .

وقد عرفت القصيدة الرثائية الوحدة العضوية كما عرفت الوحدة الموضوعية ووضحت ذلك بالأدلة من النماذج الشعرية .
أما من حيث اللغة والأسلوب : فقد جاء أسلوب الرثاء ولغته أسلوباً قوياً تقليدياً محافظاً على سلامة اللغة ومثانتها وقوتها حيث يتألم ذلك مع شعر الرثاء، وقد استخدم شعراء العصر بعضاً من الألفاظ المعجمية والأعجمية في رثائهم فضلاً عن وجود ألوان البديع في أسلوب شعر الرثاء في العصر العباسي الأول إلا أنه لم يكن شائعاً منتشراً كبقية الأغراض الشعرية الأخرى فمجال الرثاء ليس مجال اللعب بالألفاظ وتصيد البديع وتكلفه .

ثم تحدثت عن المعانى وأظهرت مظاهر التقليد والتجديد فيها مبرزاً الكثير من المعانى الجديدة المبتكرة التى جاءت بها مخيلة شعراء العصر فى مراثيهم، هذا وقد اتسمت معانى شعر الرثاء بالدقة والوضوح والبعد عن التعقيد والالتواء .

ثم تحدثت عن الخيال والتصوير مبرزاً اعتماد الشعراء اعتماداً كبيراً على ألوان البيان : من تشبيه واستعارة وكناية فى تصوير صورهم وإبراز معانيهم، موضحاً ما فيه من قديم تأثروا به من شعر السابقين ومن جديد مبتكر جاءت به مخيلتهم أو استمدوه من واقع حياتهم وحضارة عصرهم .

ثم تعرضت للأوزان والقوافى فوجدت الشعراء قد نظموا مراثيهم على الأوزان المعروفة فى الشعر العربى القديم ولم يخرجوا عليها أو يستحدثوا أوزاناً أخرى جديدة، وأنهم قد استخدموا البحور الطويلة فى معظم مراثيهم بجوار البحور القصيرة أو المجزأة التى قلت فى مراثيهم، وقد نظم شعراء العصر على معظم حروف الهجاء قوافيهم أكثرين من القوافى السهلة الرائقة .

وبعد فإننى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون قد وفقت فى بحثى والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

دكتور

عبد الهادي عبد النبي علي

«أهم مساجد البحث»

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير، للأستاذ الدكتور :
محمد رجب البيومي طبعة : جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية .
- ٣ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، طبعة : دار الكتب
المصرية .
- ٤ - الأوراق للصولي .
- ٥ - أبو نواس ، منشورات دار الشرق الجديد ببيروت، الطبعة
الأولى عام ١٩٦٠ م .
- ٦ - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، للدكتور :
محمد مصطفى هداره طبعة: دار المعارف بمصر عام ١٩٦٣م.
- ٧ - اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، للدكتور : حسين
بكار .
- ٨ - أثر التشيع في الأدب العربي، تأليف : محمد سيد كيلاني .
- ٩ - أدب السياسة في العصر الأموي ، للدكتور : أحمد الحوفي.
- ١٠ - أسرار البلاغة للإمام : عبد القاهر الجرجاني، تحقيق :
الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجي .
- ١١ - أعلام الكلام، لابن شرف القيرواني، الطبعة الأولى ، طبع :
مطبعة النهضة بالقاهرة عام ١٩٢٦ م .
- ١٢ - بناء القصيدة في النقد العربي القديم، للدكتور : يوسف
حسين بكار .
- ١٣ - تاريخ الإسلام السياسي والديني ، للدكتور : حسن إبراهيم
حسن الطبعة التاسعة ، عام ١٩٧٩ م .
- ١٤ - تاريخ الخلفاء، للسيوطي، تحقيق : محمد محي الدين عبد
الحميد، الطبعة الرابعة، المطبعة التجارية بمصر عام ١٩٦٩م.

- ١٥ - تاريخ الطبرى، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر .
- ١٦ - تجريد الأغاني، لابن واصل الحموى، تحقيق : الدكتور طه حسين وإبراهيم الإبيارى، مطبعة مصر عام ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .
- ١٧ - التفسير النفسى للأدب ، للدكتور : عز الدين إسماعيل، الطبعة الرابعة مكتب غريب .
- ١٨ - جواهر الأدب ، لأحمد الهاشمى، الطبعة الثانية عشرة عام ١٣٣٨ هـ .
- ١٩ - حديث الأربعة ، للدكتور : طه حسين .
- ٢٠ - الحياة الأدبية فى عصر بنى أمية ، للدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى الطبعة الثانية ، عام ١٩٧٣م دار الكتاب اللبنانى بيروت .
- ٢١ - الحيوان، للجاحظ، تحقيق : الدكتور : عيد السلام هارون، الطبعة الأولى، مطبعة الحلبي بالقاهرة عام ١٩٣٨م .
- ٢٢ - دلائل الإعجاز، للإمام عيد القاهر لمرجاني، طبعة رشدي رضا شركة الطباعة الفنية الحديثة بالقاهرة عام ١٩٦٠م .
- ٢٣ - ديوان أبي العتاهية .
- ٢٤ - ديوان أبي نواس ، طبع دار بيروت للطباعة والنشر ، عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .
- ٢٥ - ديوان أبي تمام طبعة دار المعارف .
- ٢٦ - ديوان ابن الزيات .
- ٢٧ - ديوان ابن الرومى ، تحقيق : الدكتور : حسين نصار ، طبع : دار الكتب المصرية .
- ٢٨ - ديوان الإمام علي بن أبي طالب ، تحقيق الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى طبعة : دار ابن زيدون بيروت .

- ٢٩ - ديوان امرؤ القيس، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة .
- ٣٠ - ديوان البحتري ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي، طبع : دار المعارف بمصر .
- ٣١ - ديوان بشار بن برد، تحقيق : الشيخ محمد الطاهر عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية بالجزائر .
- ٣٢ - ديوان جرير ، تحقيق : محمد إسماعيل الصاوي، طبع : مكتبة الحياة ببيروت .
- ٣٣ - ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق / سيد حنفي حستين، طبع : دار المعارف بمصر .
- ٣٤ - ديوان الحماسة، للمرزوقي، تحقيق : أحمد أمين، وعبد السلام هارون الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، عام ١٩٥١ م .
- ٣٥ - ديوان الخرمي، جمع وتحقيق : على جواد الطاهر ومحمد جبار المعبد طبع : دار الكتاب الجديد ببيروت، الطبعة الأولى، عام ١٩٧١ م .
- ٣٦ - ديوان الخنساء، تحقيق الدكتور : إبراهيم عوضين، الطبعة الأولى مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ٣٧ - ديوان دعبل الخزاعي ، تحقيق / عبد الصاحب عمران الدخيلي، الطبعة الثانية عام ١٩٧٢ م دار الكتاب اللبناني ببيروت .
- ٣٨ - ديوان الشافعي، تحقيق/ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الثانية، مكتبة الكليات الأزهرية، عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٣٩ - ديوان عبد الله بن المعتز، تحقيق : د/ محمد بديع شريف ، طبع : دار المعارف بمصر .
- ٤٠ - ديوان العباسي بن الأحنف، طبع : دار صادر بيروت .

- ٤١ - ديوان عنترة، طبع : دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- ٤٢ - ديوان الفرزدق، طبع : دار صادر بيروت .
- ٤٣ - ديوان النابغة الذبياني، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع : دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .
- ٤٤ - الرثاء "قنون الأدب العربي" للدكتور : شوقي ضيف ، الطبعة الثالثة طبع : دار المعارف بمصر .
- ٤٥ - زهر الآداب ، للحصري ، تحقيق / علي محمد الجاوي، الطبعة لثانية ، مطبعة الحلبي بالقاهرة .
- ٤٦ - شعر علي بن جبلة، تحقيق/ الدكتور حسين عطوان، الطبعة الثالثة، طبع دار المعارف بمصر .
- ٤٧ - شعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق / الدكتور حسين عطوان الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر .
- ٤٨ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، للدكتور : شوقي ضيف دار المعارف بمصر .
- ٤٩ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق / الدكتور : مفيد قميته دار الكتب العلمية ببيروت .
- ٥٠ - صبح الأعش، للقلقشندي، طبع : المطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .
- ٥١ - الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق د / مفيد قميحة الطبعة الثانية ، عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية ببيروت .
- ٥٢ - الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي، للدكتور : علي إبراهيم أبو زيد .
- ٥٣ - صورة المرأة في الشعر العباسي ، للدكتور : علي إبراهيم أبو زيد الطبعة الأولى عام ١٩٨٣م دار المعارف .

- ٥٤ - ضحى الإسلام، لأحمد أمين، الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية .
- ٥٥ - طبقات الشعراء، لابن المعتز، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر .
- ٥٦ - طبقات قحول الشعراء، لابن سلام، شرح الدكتور : محمود محمد شاكر، طبع : مطبعة المدني .
- ٥٧ - ظهر الإسلام ، لأحمد أمين، الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨م .
- ٥٨ - العصر الإسلامي، للدكتور : شوقي ضف ، الطبعة التاسعة دار المعارف بمصر .
- ٥٩ - العصر العباسي الأول ، للدكتور : شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر .
- ٦٠ - العصر العباسي الثاني ، للدكتور : شوقي ضيف، دار المعارف بمصر .
- ٦١ - العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي .
- ٦٢ - علم الأسلوب ، للدكتور : صلاح فضل .
- ٦٣ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، دار الجيل ببيروت عام ١٩٧٢م .
- ٦٤ - فجر الإسلام، لأحمد أمين .
- ٦٥ - قصول في الشعر ونقده، للدكتور : شوقي ضف ، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .
- ٦٦ - في الأدب الأندلسي، للدكتور : جودت الركابي، الطبعة الرابعة .
- ٦٧ - في الشعر العباسي الرؤية والفن، للدكتور : عز الدين إسماعيل طبع : دار المعارف بمصر ، عام ١٩٨٠م .
- ٦٨ - الكامل ، للمبرد، تحقيق الدكتور : محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة : نهضة مصر .

- ٦٩ - لسان العرب ، لابن منظور، طبع : دار المعارف بمصر .
٧٠ - المثل الثائر ، لابن الأثير ، تحقيق / الدكتور محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة الحلبي بالقاهرة عام ١٩٣٩ م .
٧١ - مروج الذهب ، للمسعودي ، المطبعة البهية المصرية، عام ١٣٤٦ هـ .
٧٢ - معجم الأدباء، لياقوت الرومي .
٧٣ - معجم الشعراء، للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباتي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية بيروت عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
٧٤ - المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، للدكتور : عزيز فهمي ، تحقيق / محمد قنديل البقلى، دار المعارف بمصر .
٧٥ - مقدمة ابن خلدون ، نشر الدكتور : عبد الواحد وافي، مطبعة البيان العربي بالقاهرة عام ١٩٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
٧٦ - المنتخب من أدب العرب ، شرح لجنة من الأساتذة : أحمد الاسكندري وأحمد أمين وعلى الجارم وعبد العزيز البشري وأحمد ضيف المطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٩٥٢ م .
٧٧ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية بتونس عام ١٩٦٦ م .
٧٨ - نزعة الجلساء في أشعار النساء، للسيوطي، تحقيق/ عبد اللطيف عاشور، طبع : مكتبة القرآن بالقاهرة .
٧٩ - نقد الشعر . لقدامة بن جعفر ، تحقيق / كمال مصطفى، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي بالقاهرة .
٨٠ - النقد المنهجي عند العرب، للدكتور : محمد مندور ، طبع : دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة .

- ٨١ - نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويرى ، الجزء الخامس،
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
- ٨٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان .

«الفهرس»

الصفحة	الموضوع
أ - ٥	المقدمة
	«الفصل الأول»
١٨ - ١	"الرثاء في العصر الجاهلي"
٨ - ٣	معنى الرثاء وألوانه
١٨ - ٩	شعر الرثاء في العصر الجاهلي
	«الفصل الثاني»
٥٤ - ١٩	"الرثاء في العصر الإسلامي والأموي"
٣٨ - ٢١	أ - شعر الرثاء في العصر الإسلامي
٥٤ - ٣٩	ب - شعر الرثاء في العصر الأموي
	«الفصل الثالث»
	"الرثاء في العصر العباسي الأول"
١٣٤ - ٥٩	"الرثاء الاجتماعي في العصر العباسي الأول"
٦٢	١ - رثاء الأبناء والبنات
٧٦	٢ - رثاء الآباء والأمهات
٨٣	٣ - رثاء الأخوة
٩٤	٤ - رثاء الأزواج والزوجات
٩٩	٥ - رثاء الجوارى
١٠٨	٦ - رثاء الأصدقاء
١١٤	٧ - رثاء العلماء والأدباء
١٢١	٨ - رثاء النفس
١٢٩	٩ - رثاء الشباب
	«الفصل الرابع»
٢١٥ - ١٣٥	"الرثاء السياسي في العصر العباسي الأول"
١٣٧	١ - رثاء الخلفاء

الصفحة	الموضوع
١٦٦	٢ - رثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة
١٩٧	٣ - رثاء الشيعة لأئمتهم
«الفصل الخامس»	
٢٥٣ - ٢١٧	"رثاء الدول والمدن في العصر العباسي الأول"
٢١٩	١ - رثاء الدول
٢٢٤	٢ - رثاء المدن
٢٥٠	٣ - رثاء القصور
«الفصل السادس»	
٢٧٤ - ٢٥٥	"رثاء الحيوانات والطيور في العصر العباسي الأول"
٢٥٧	١ - رثاء الحيوانات
٢٦٦	٢ - رثاء الطيور
٢٦٨	٣ - رثاء أشياء أخرى
«الفصل السابع»	
٣١٤ - ٢٧٥	"خصائص الفنية لشعر الرثاء في العصر العباسي الأول"
٢٧٨	١ - موضوعات الرثاء
٢٨٢	٢ - بناء القصيدة
٢٩٠	٣ - اللغة والأسلوب
٢٩٩	٤ - المعاني
٣٠٨	٥ - الخيال والتصوير
٣١٢	٦ - الموسيقى الشعرية
٣١٥	الخاتمة
٣٢١	المصادر
٣٢٨	الفهرس

